



منشورات جمعية تطلون - أسمر

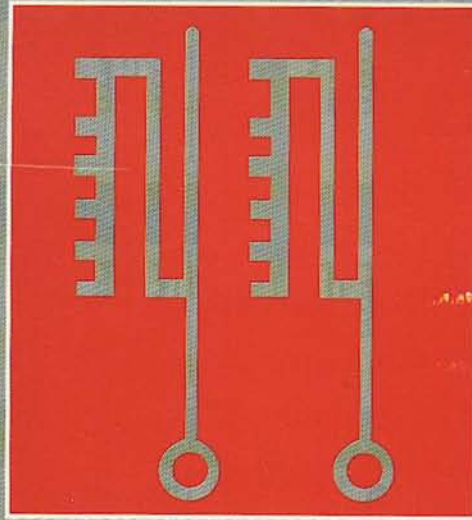
kitabweb-2013.forumsmaroc.com

محمد الشريف

سببنة الإسلامية

دراسات في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي

(عصر الموحدين والمرينيين)



تقديم: الدكتور امحمد بن عبود



سلسلة دراسات

الدكتور محمد الشريف

سببنة الإسلامية

دراسات في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي

(عصر الموحدين والمرينيين)

(طبعة ثانية مزيدة ومنقحة)



الطبعة الأولى: تطوان، 1995

الطبعة الثانية، الرباط، 2006

الإيداع القانوني: 2006/590

ردمك: 9954-8671-0-4

صورة الغلاف: راية سبّنة قبل الاحتلال البرتغالي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إلى روح والديّ

تقديم الطبعة الثانية

تصدُر الطبعة الثانية من كتاب "سبئة الإسلامية" بعد انصرام عقد من الزمن على صدور طبعته الأولى التي افتتحت بها جمعية تطاون - أسمير سلسلة منشوراتها العلمية؛ وقد شارفت الآن على السبعين عنوانا. وكان للكتاب، إثر صدوره، صدى إيجابي والحمد لله، ولقي عناية لدى المهتمين بتاريخ المغرب عامة، ولدى المهتمين بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي بصفة خاصة. كما لقي الكتاب إقبالا خاصا لدى مغاربة سبئة المحتلة، الذين وجدوا فيه بعض ما يؤكد الهوية المغربية لمدينتهم، وارتباطها العضوي بوطنهم الأم المغرب.

ولما نفذت الطبعة الأولى منذ سنوات، ارتأينا إعادة طبع الكتاب بعد تنقيحه وتحوير عنوانه جزئيا، وإغناء معطياته التاريخية بما توفر لدينا من معلومات جديدة، معتمدين في ذلك على أحدث الدراسات العربية والأوربية، كما استندنا في تدقيق بعض القضايا على نصوص المصادر التي اكتشفت مؤخرا. ويجد القارئ لائحة مفصلة بهذه الدراسات في ببليوغرافية الكتاب. ونأمل أن ينتفع بهذه الطبعة الجديدة قراء جدد لم يتح لهم الاطلاع على الطبعة الأولى، والله تعالى ولي التوفيق.

تطوان، 7 محرم الحرام 1427 (2006/2/6)

محمد الشريف

أستاذ التعليم العالي - جامعة عبد المالك السعدي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تطوان

مقدمة الطبعة الأولى

هذه الدراسات التي أضعها بين يدي القارئ الكريم، هي في أصلها فصل من دراسة شاملة لمدينة سبتة على عهد الموحيدين والمرينيين، قدّمها بجامعة (تولوز لوميراي) الفرنسية لنيل دكتوراة السلك الثالث، سنة 1987، وحصلت على ميزة "حسن جداً بالإجماع"، مع التوصية بالطبع! ولقد ارتأيت نقل الفصل الثالث، المتعلق بالاقتصاد والمجتمع، إلى اللغة العربية. ولم أدخل على النص الأصلي سوى تغييرات طفيفة. كما آثرت حذف بعض الإحالات والمقاطع والاستطرادات التي قد تثقل النص العربي الذي أريده أن يخاطب المختصين، وعموم القراء.

ولا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى جميع الأصدقاء الذين لم يترددوا في مساعدتي على إعداد هذا الكتاب، تصحيحاً ومناقشة. وأنوه بمجهودات الأستاذ أحمد أوطاح، والسيد محمد الشبّابي اللذان أوليا عناية خاصة بهذا العمل. كما أشكر جمعية تطاون - أسمير التي تولت طبع هذا الكتاب ضمن منشوراتها. وحرّي بنا أن تعمل الجمعيات، والهيئات، والمؤسسات الأخرى، على نشر الأعمال الجامعية، حتى لا تظل أسيرة الرفوف، عرضة للقرصنة، ولقرض الفئران. والله الموفق.

محمد الشريف، (تطوان، 21 - 12 - 1995)

1 - تولت دار النشر (لارماتان) بباريس طبع هذه الأطروحة، وأصدرتها تحت عنوان :
Mohamed CHERIF, *Ceuta aux époques almohade et mérinide*, Préface de Alain
Ducellier, Paris, L'Harmattan, (Histoire et perspectives Méditerranéennes), 1995.

تقديم

بقلم الدكتور امحمد بن عبود

يسعدني أن أقدم كتاب " سبته الإسلامية : دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي"، لصاحبه الأستاذ محمد الشريف، الذي يعد من العناصر النشيطة، والمنتجة في شعبة التاريخ بكلية الآداب بتطوان.

إذا كان المجهود والعمل الجدي في الحقل العلمي هما مقياس التطور، فهذا ما نسجله بشكل ملحوظ ومشرف على الأستاذ محمد الشريف من خلال مشاركاته الجادة في عدد من الندوات بالجامعات المغربية والأجنبية، (مراكش، فاس، مكناس، تونس، غرناطة، السوربون، تولوز...)، كما يتضح نشاط صاحب هذا الكتاب في عدد من المقالات التي نشرها في المجالات التاريخية المتخصصة في المغرب، وفي فرنسا، وإسبانيا، وتونس، والمشرق العربي. ويفرد محمد الشريف بعلاقاته الوطيدة مع عدد من الجامعيين الفرنسيين البارزين المتخصصين في التاريخ الوسيط. وأتنبأ للمؤلف بمستقبل زاهر في مجال البحث العلمي، لأنه اكتشف طريقه، وأدرج برنامجاً علمياً ضمن الأولويات، وارتبط بعدة شبكات للبحث العلمي، حتى أصبح مطلوباً بصفته من الجامعيين المغاربة القلائد المتخصصين في التاريخ المغربي والأندلسي خلال عصر الموحدين. ونرجو أن يكمل مشوار الأستاذ محمد زنيبر، رحمه الله، الذي كان معروفاً بعشقه لهذه الحقبة التاريخية.

يعتبر الكتاب الذي أقدمه للقارئ الكريم من أحسن الدراسات الصادرة باللغة العربية حول تاريخ سبته خلال عصري الموحدين والمرينيين. فهي

دراسة تتميز بالتجديد المنهجي، وتعكس التعب الفكري الذي يُشترط في كل دراسة جادة ومجددة. كما تتميز بتوثيق متين. ويعكس تقويم المؤلف للمراجع اطلاعه الواسع على أحدث الدراسات الأوربية حول تاريخ سبتة، كما طبع تقويمه المذكور بروح نقدية صارمة.

وأحسن المؤلف اختياره لما حدّد موضوع الكتاب في الجانب الاجتماعي والاقتصادي لمدينة سبتة خلال عهديّ الموحدين والمرينيين، وهو جانب أهمله الباحثون المهتمون بسبتة. وربط المؤلف تاريخ سبتة بالمغرب والأندلس وحوض البحر المتوسط، ولكنه حدّد الحقبة المدروسة تحديداً دقيقاً، فقدّم صورة منسجمة ومتكاملة للحياة الاجتماعية والاقتصادية لسبتة الإسلامية، وجمع بذلك بين التوجّهات العامة، والمحاوّر الدقيقة، كمشكلة الرّي، وعقود الاستغلال الفلاحي، ومشكلة الضرائب، ومشكل المياه، والسكن، والأكل، واللباس، وغيرها من العناصر التاريخية المرتبطة بالاقتصاد والمجتمع السبتيّين، فأخذ الكتاب طابعاً واقعيّاً.

يمكن إدراج هذا الكتاب ضمن الدراسات المغربية والأندلسية في آن واحد، لأن سبتة تأثرت كثيراً بالأندلس، ثقافياً وحضارياً وروحياً.

نرحّب بهذه الدراسة مساهمة في إغناء التاريخ الاجتماعي والاقتصادي المغربي خلال العصر الوسيط، ونرجو أن تلقى ترحيباً حاراً من طرف المهتمين بالموضوع من الباحثين الجامعيين والطلبة والمتقنين المتنورين عامة.

الدكتور امحمد بن عبود

أستاذ التعليم العالي/ كلية الآداب بتطوان

على سبيل التمهيد :

توجهات البحث في تاريخ سبتة

ما فتئت المدينة العربية الإسلامية تثير اهتماماً كبيراً لدى الدارسين، عرباً وأجانب. فالندوات واللقاءات العلمية الكثيرة التي خصصت لها مؤخراً، قدمت للمهتمين الإطار العام لهذه المدينة، وأوضحت كثيراً من خصائصها المشتركة. ومع ذلك، فإن تاريخ كثير من المدن العربية ما يزال مجهولاً. وإذا كان هذا الحكم ينطبق على المدينة العربية بالمشرق الإسلامي التي أولاهها الباحثون اهتماماً خاصاً منذ بداية القرن الماضي، فإنه يصبح حقيقة صارخة عندما يتعلق الأمر بالمدن المغربية في العصر الوسيط. فالمحاولات القليلة التي رأت النور في منتصف القرن العشرين، اهتمت أساساً بتاريخ المدن العواصم (فاس - مراكش). وتبقى كثير من المدن بحاجة إلى دراسات ومنوغرافيات معمقة، لفتح المجال أمام المحاولات التركيبية لتاريخ المدينة المغربية.

إن مدينة سبتة التي لم تكن عاصمة سياسية، والتي لم يرتبط مصيرها بمصير دولة معينة من الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، كان لها تاريخ ذو أهمية خاصة. فقد لعبت بفضل موقعها الجيو - استراتيجي الهام على مضيق جبل طارق، دوراً محورياً في تاريخ المغرب خلال العصر الوسيط، وفي تاريخ العلاقات المغربية الأيبيرية، وتاريخ الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. فالمدينة كانت بوابة المغرب نحو العالم الخارجي، ومعبراً من معابر التاريخ الكبرى بين أوربا وإفريقيا. فقد سمح لها موقعها الجغرافي المتميز أن تصبح إحدى المراكز الرئيسية في التجارة المتوسطية، والمنفذ الأساسي للتجارة الخارجية المغربية على الواجهة المتوسطية. ولقد تمتعت المدينة لمدة طويلة باستقلال ذاتي،

يؤشر على أهميتها كإحدى النقط الرئيسية لمنطقة مضيق جبل طارق، في فترة كانت الهيمنة على هذا الأخير رهاناً تتنافس من أجله القوى المسيحية (قشتالة - أرغون - جنوة)، والقوى الإسلامية (المغربية - النصرية). كما أن المدينة ظلت على امتداد تاريخها الإسلامي ممراً للفتح والجهاد بالأندلس، حتى أنها سميت بـ"باب الجهاد"، و"فرضة المجاز"، و"محل أساطيل المسلمين". بالإضافة إلى أنها كانت إحدى المراكز العلمية المشعة الكبرى في تاريخ الثقافة الإسلامية، لما أبدعه أعلامها من نتاج علمي، ولما ساهموا به من معرفة، غطت جميع الميادين.

إن هذه الأهمية التي تمتعت بها مدينة سبتة، محلياً ودولياً، جعلتها تستأثر بنظر كثير من الدارسين، حتى أن المكتبة العربية أصبحت غنية نسبياً بالدراسات "السبتية". فبيبلوغرافية المدينة تعد الآن من أهم البيبلوغرافيات المتوفرة حول ماضي مدينة مغربية وسيطية. فتحقيق مؤلفات علماء سبتة، ونشر تراثهم (أو إعادة نشره)، وتنظيم الندوات والملتقيات العلمية، وإنجاز الرسائل والأطروحات الجامعية، داخل المغرب وخارجه²، ظاهرة تلفت الانتباه خلال السنوات الأخيرة، وتدل في نفس الوقت على خصوبة ميادين البحث التي يقدمها تاريخ المدينة؛ خصوصاً وأنه يقدم عناصر الإجابة على كثير من الإشكالات التاريخية التي يطرحها تاريخ المغرب، وتاريخ العلاقات المغربية الإيبيرية. هذا بالإضافة إلى أن المدينة شهدت ميلاد ظواهر تاريخية حاسمة في التطور التاريخي لبلاد المغرب، بمختلف أبعادها السوسيو- دينية؛ مثل ظاهرة

² - بغض النظر عن الرسائل والأطروحات التي اتخذت إحدى الشخصيات العلمية السبتية أو تحقيق التراث السبتي موضوعاً لها، فإننا نذكر أعمال كل من إسماعيل الخطيب، محمد الشريف، زليخة بن رمضان، محمد الغازي، حليلة فرحات، طوريس سانطوس، موسكيرا كارمن، ديلفيينا سيرانوا...، أما المصادر فقد أوردناها بدراسة نقدية في كتابنا الآتي الذكر، والصادر عن دار النشر لارماتان بباريس.

"الشرفافة" *chérifisme*، و"الاحتفال بعيد المولد النبوي"، و"مؤسسة المدرسة"؛ الأمر الذي يجعل من تاريخ المدينة "مختبراً"³ لتتبع نشأة وتطور بعض الظواهر التي حددت مسار التاريخ المغربي، وفي نفس الوقت ميداناً خصباً لفحص إجرائية مختلف المناهج المستمدة من العلوم الاجتماعية المعاصرة.

إن صعوبة حصر ببليوغرافية سبتة تأتي من كون تاريخ المدينة يندمج اندماجاً كبيراً في تاريخ المغرب، وتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط، وتاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية⁴. فالإمام بالكتابات المتعلقة بالمدينة يقتضي الاطلاع على تاريخ المنطقة كلها، وهو الأمر الذي يتجاوز مقدرة باحث منفرد؛ خصوصاً وأن الأدوات الببليوغرافية المتوفرة تشكو من نقص في المعلومات، وعدم الانتظام في توفرها. فنحن لا نتوفر على أي دليل ببليوغرافي، أو نشرة "منتظمة" متعلقة بالإصدارات التاريخية حول تاريخ المغرب، وبالأحرى تاريخ سبتة. أضف إلى هذا وجود شبه قطيعة بين الباحثين العرب (والمغاربة خاصة) المهتمين بتاريخ المدينة والباحثين الغربيين (والإسبان خاصة). فخطط التواصل يكاد ينعدم بين الصنفين. فلا الإسبان مطلعون بما فيه الكفاية على الدراسات العربية، ولا الباحثون العرب على علم ودراية وثيقة بالدراسات الإسبانية حول المدينة⁵. وهذا الجهل أو (التجاهل) المتبادل لا يقتصر على الدراسات العامة فقط، وإما نلاحظه حتى في الدراسات المتخصصة، وفي الأطروحات الجامعية.

3- Halima Ferhat, *Sabta des origine au XIVE siècle*, Rabat, 1994, p p. 15, 468

4 - Halima Ferhat, "Sabta, état bibliographique", *Hespéris-Tamuda*, 28, 1990, p.164

5 - تمثل دراسات العرب والإسبان ما يقرب من 89% (46.4% و 42.22% على التوالي) من مجموع الدراسات التي أحصيناها حول المدينة والبالغ عددها 405 عنوانا. انظر الهامش التالي.

التوجهات والآفاق

إن الملاحظات التالية لا تدعي إعطاء مسح شامل وتام للنتاج التاريخي الذي يتمحور حول موضوع سبتة، ولا القيام بفحص دقيق لمنطلقاته المنهجية، وإنما تطمح إلى تقديم توضيحات مقتضبة عن التوجهات الحالية، والآفاق المحتملة للدراسات السبتية، كما تستخلص من جرد بيبليوغرافي لما يزيد عن 400 عنوان مرتبط مباشرة بتاريخ سبتة، منذ نشأتها حتى سقوطها بيد البرتغاليين سنة 818 هـ / 1415 م⁶. إذ نعتقد أنه من المستحسن أن يتم الوقوف على التوجهات العامة، قصد إجراء مقارنات بين الأبحاث والمقاربات المختلفة، عوض تقديم لائحة تصنيفية إحصائية لببليوغرافية المدينة، قد نجدها مثبتة في لائحة مراجع هذه الدراسة أو تلك.

سبتة "ما قبل الإسلام" :

حضور البحث الإسباني وغياب نظيره المغربي

اتجهت أنظار الباحثين الإسبان بصفة أساسية لتاريخ سبتة ما قبل الإسلامية⁷. فهناك أطروحات شاملة ودراسات قطاعية لهذه الفترة، تعتمد أساساً على نتائج الحفريات الأثرية، وبصفة ثانوية على نصوص المؤرخين اللاتينيين الكلاسيكيين. إنها دراسات غنية ومتباينة المواضيع، ترمي إلى توضيح ظروف

6 - Cherif M., "Ceuta dans les écrits récents", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, VII, 1994. وتوجد جميع الدراسات المشار إليها في المتن بإحالاتها الكاملة في الجرد الببليوغرافي المثبت في هذا المقال. أما مصادر تاريخ المدينة فقد خصصنا لها دراسة نقدية مفصلة في كتابنا : Cherif M., *Ceuta aux époques almohade et mérinide*, op. cit., 1995.

7- من بين 170 عنواناً باللغة الإسبانية هناك 102 عنواناً (أي 60%) متعلقاً بالتاريخ القديم للمدينة.

نشأة المدينة، والأساطير والخرافات المصاحبة لها، كما تسطر تاريخها السياسي منذ ما قبل التاريخ إلى نهاية العصر البيزنطي، مروراً بالعصر الفينيقي والروماني والوندالي. وتبرز دور المدينة في المبادلات التجارية في مضيق جبل طارق، على ضوء نتائج الحفريات الأركيولوجية، أو التنقيبات في أعماق البحر، وتبحث في صناعاتها، وخزفيتها، وفي مسكوكاتها، كما تدقق في أصل تسمية المدينة، وطبونيميتها، وطبوغرافيتها الكلاسيكية، وجغرافيتها التاريخية، ومشاكل تزويدها بالماء... إلخ⁸. إن هذه البحوث تتزايد في الوقت الحاضر، ولكن نظراً لتبايناتها المنهجية، والطابع التقني الدقيق لأكثريتها، فإنها لم تقدم حتى الآن، إلا القليل من الأعمال التركيبية.

إن أسباب هذه الأهمية المعطاة لتاريخ "سبتة ما قبل الإسلام" من لدن الباحثين الإسبان مرتبطة بدون شك بالدينامية التي يعرفها البحث التاريخي بإسبانيا حالياً، وبالإمكانات المتوفرة، وعلى رأسها وجود مؤسسات علمية مشجعة في عين المكان⁹.

على أن هذه الأسباب تتجاوز قطعاً نطاق الاهتمام التاريخي العلمي الصرف، لتلامس أرضية الإيديولوجية الإستعمارية الإسبانية. فهناك توجه قار في الدراسات الإسبانية يرمي إلى إيجاد ما يسمى بروابط "الاستمرارية" بين سبتة "القديمة"، وسبتة "الإسبانية". ومن هذا المنطلق لا تشكل الفترة المغربية

8- نعطي بعض الأمثلة لهذه الدراسات علماً بأن الببليوغرافية الكاملة يمكن الاطلاع عليها في دراستنا المشار إليها في الهامش 6.

9 - إن «مركز الأبحاث السبتية» الذي أسسته بلدية سبتة عام 1969 يعد من أنشط مراكز البحث الإسبانية، حيث نشر عدداً كبيراً من المؤلفات سواء في سلسلة «دراسات تاريخية» أو في سلسلة «إصدارات القاعة الأركيولوجية البلدية». هذا بالإضافة إلى إصدار مجلتيين متخصصتين في تاريخ المدينة هما "Tranfretana" (مجلة معهد الدراسات السبتية) ومجلة "Cuadernos del Archivo Municipal de Ceuta"

الإسلامية إلا مرحلة عارضة، لا تحظى باهتمام هذه الدراسات الإسبانية. إن عناوين بعض الدراسات، فضلاً عن مضمون أغلبها، تعبر عن ذهنية هذا التوجه في الدراسات الإسبانية ومراميه¹⁰. وإلا فكيف نفسّر كون الفترة الإسلامية لا تحظى إلا بحظ يسير جداً من الدراسات الأركيولوجية، بينما باطن الأرض السبتية يغصّ بالبقايا الأثرية التي تعود إلى هذه الفترة، وهي البقايا التي لا تلقى سوى الإهمال، باعتراف الأركيولوجيين الإسبان أنفسهم¹¹.

وعلى عكس هذا الاهتمام بسبتة "الما قبل إسلامية" من طرف الباحثين الإسبان، يظهر أن نفس الفترة التاريخية لا تثير بتاتاً اهتمام زملائهم المغاربة. إنه لمن اللافت للانتباه ذلك التغييب التام لعصور "ما قبل الإسلام" في الدراسات المغربية والعربية عموماً. إن هذا الإهمال نلاحظه حتى في الأطروحات الجامعية. فأخر دراسة مغربية صدرت حول سبتة - وهي دراسة الأستاذة حليلة فرحات، التي تحاول تتبع تاريخ المدينة "منذ النشأة" إلى القرن الرابع عشر¹² - لا تخصص سوى عشرين صفحة من عمل ضخّم (حوالي 500 صفحة)، للكلام عن أصول المدينة، وكل تاريخها السابق عن ظهور الإسلام. ويظهر أن الباحثة المغربية لم تأخذ بعين الاعتبار النتائج التاريخية الإسباني الغني والمتنوع حول هذه الفترة. أما باقي الدراسات العربية فإنها لا تتعرض لتاريخ المدينة السابق على الإسلام إلا على سبيل التمهيد لدراسة الفترة اللاحقة. وهذا التمهيد الذي لا يتعدى بضعة أسطر في أغلب الأحيان، يعيد صياغة ما سطره المؤرخون والجغرافيون العرب القدماء، بما

-10 -Gordillo Osuna, M., "Continuidad hispánica de Ceuta", *Africa*, N° 246, 1962

- Schiriqui David y Manuel Leria, *Ceuta antigua y moderna*, Ceuta, 1965.

- Martin Lunas, F., *Ceuta. historia de una ciudad española*, Malaga, 1982.

- Carlos Posac Mon, "Datos para la arqueología musulmana de Ceuta", - 11
Hespéris-Tamuda, vol. 1, 1960, p. 159 - 160

Halima Ferhat, *Sabta des origines au XIVe siècle*, Rabat, 1994. - 12

في ذلك الأساطير والخرافات المصاحبة لأخبارهم. ولا عَجَب أن نجد ندوة مغربية
جامعية تحمل عنوان "سبّة : التاريخ والتراث"¹³ لا تتطرق مداخلتها بتاتاً لتاريخ
المدينة السابق على ظهور الإسلام.

إن أسباب هذا النقص في الدراسات المغربية كثيرة. يجب أن نشير أولاً إلى
الإهمال الذي نوليه لفترة تاريخية انتهت مع ظهور الإسلام؛ وكان الاهتمام بالفترة
الإسلامية يتمّ على حساب الفترات السابقة لها. ومما له مغزاه، هو ذلك الإهمال
الذي يوليه التقليد الإستوغرافي المغربي لتاريخ المغرب القديم الذي يكاد يصبح في
نهاية المطاف تاريخاً مقصياً من التاريخ الوطني¹⁴. وينضاف إلى مختلف هذه
الأسباب، سبب آخر موضوعي، يتمثل في المعرفة الضحلة التي نتداولها، منذ فترة
طويلة، حول هذه الفترة. إن الوثائق المستعملة في الدراسات العربية ما تزال تستند
على الشهادات الأدبية الكتابية. ويجب أن نشير إلى الصعوبات التي تعترض
الباحث المغربي، لأسباب متعددة، للحصول على المعطيات والمعلومات التابعة من
الحفريات الأركيولوجية السبّية. فقد أضحت هذه الأخيرة حكرًا على الباحثين
الإسبان، منذ أن استولت إسبانيا على مقاليد المدينة المغربية.

سبّة الإسلامية :

ندرة الأبحاث التاريخية وهيمنة البعد الثقافي

في الوقت الذي اتجهت فيه أنظار الباحثين الإسبان إلى تاريخ مدينة سبّة
السابق على الإسلام، سيتخذ الباحثون العرب، والمغاربية، الفترة الإسلامية
ميدان بحثهم المفضل. لقد عرفت عملية نشر مؤلفات العلماء السبّيين في

13 - نشرت أعمال الندوة بمجلة كلية الآداب بتطوان، العدد 3، 1989.

14 - Clément, J. F., "L'historiographie récente au Maroc", *Lettre d'information de l'AFEMAM*, 2.1987.

السنوات الأخيرة نشاطاً نوّه به المهتمون بحقل الدراسات المغربية والإسلامية، ووضعت رهن إشارة الباحثين مادة تاريخية غنية. ومع ذلك، فإن هذا النشاط في النشر لم يستتبعه تراكم في البحث التاريخي التحليلي. إن الجهود انصبّت بصورة قويّة على دراسة الحياة الفكرية للمدينة وتراجم علمائها¹⁵. فالندوات التي خُصصت للمدينة بالمغرب اتخذت من الميدان الأدبي والحياة الفكرية موضوعاً لها¹⁶. ولكن لم ينبثق حتى الآن، عن هذه الدراسات الأدبية، محاولات تركيبية مركزة على إشكالات تاريخية واضحة، تتجاوز مرحلة الوصف والافتتان بثقافة مدينة مغربية إسلامية كان إشعاعها العلمي قوياً طوال العصر الوسيط. إنها دراسات لا يمثل فيها البُعد التاريخي إلا حيزاً ثانوياً. لكنها تشكل ظاهرة تراكمية تجدر الإشارة إليها.

أما في الميدان التاريخي، فإن الدراسات الأكاديمية المتخصصة قليلة جداً. إذ لا يمكن أن نذكر سوى دراسة الأستاذة زليخة بن رمضان حول المعالم المادية والحضارية للمدينة (1987) ودراسة كاتب هذه الكلمات حول "سبّة على عهد الموحدين والمرينيين" (1987)، ودراسة الأستاذة حليلة فرحات، السابقة الذكر (1994)؛ بينما تظل الدراسات التاريخية الأخرى الوصفية والأكثر عمومية، والأقل تنظيراً (كدراسات محمد بن تاويت¹⁷، وإدريس

15 - هناك 138 من بين 188 عنوان باللغة العربية (أي نسبة 73.40%) متعلقاً بالجانب الفكري أو بالإعلام البشرية التي يصعب في كثير من الأحيان حصر الدراسات المخصصة لها.

16 - على سبيل المثال نجد أن نصيب التاريخ في ندوة «سبّة : التاريخ والتراث» لا يتعدى ست مداخلات (ثلاث في تاريخها الوسيط وثلاث في تاريخها الحديث والمعاصر) بينما باقي المداخلات (إحدى وعشرين) لمناحي الحياة الأدبية ولشخصياتها الفكرية.

17 - محمد بن تاويت، تاريخ سبّة، الدار البيضاء، 1982

خليفة¹⁸، والحاج محمد السراج¹⁹...) موجهة للجمهور العريض. أما باقي الدراسات الجامعية الأخرى فإنها أعطت الأولوية للبعد الأدبي (محمد الغازي²⁰، إسماعيل الخطيب²¹، حسن الوراكلي²²، عبد السلام شقور²³، وغيرهم).

وبغض النظر عن تباينها المنهجي فإن الدراسات المغربية يربطها دافع أساسي، يتم التعبير عنه صراحة أو ضمناً: وهو كشف تاريخ المدينة، تعميقاً لمعنى مغربيتها وعُروبته وإسلاميتها؛ وهو طابعها وهويتها الحقيقية. وليس جزافاً أن يعنون إدريس خليفة كتابه بـ "التاريخ المغربي" لمدينة سبتة. فهو يندرج في إطار كفاحي، "يهدف إلى إظهار مغربية سبتة تاريخياً"، وإقامة الدليل على مغربيتها "قبل الإسلام وبعده". وليس غريباً أن نجد نعت "الإسلامية" لصيقاً بأغلب عناوين الدراسات العربية. والواقع أن مدينة سبتة بوضعيتها السياسية الحالية، ووضعها الاستعماري المفارق، تعيش في عمق الضمير والوجدان المغربي، ولا يمكن تناول تاريخها دون الانخراط فيه بكل الجوارح.

في البيبليوغرافية الإسبانية يظهر أن القرن العاشر الميلادي هو الذي يحظى باهتمام الباحثين الإسبان. إنه القرن الذي أصبحت فيه سبتة مدينة "أندلسية"، بخضوعها لسيطرة أموي الأندلس. ولا شيء يعكس لنا بطريقة

18 - إدريس خليفة، التاريخ المغربي لمدينة سبتة، ج 1، تطوان، 1988

19 - الحاج محمد السراج، خلاصة تاريخ سبتة... تطوان، 1976

20 - El Ghazi M., *Les rapports intellectuels entre al Andalous et Ceuta au XIII^e siècle*, thèse de 3^eme cycle, Paris IV, 1988

21 - إسماعيل الخطيب، الحياة العلمية في سبتة خلال القرن السابع، تطوان، 1986

22 - حسن الوراكلي، شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة، تطوان، 1984

23 - عبد السلام شقور، القاضي عياض أديبا، طنجة، 1983

جاية هذا التوجه من دراسات "خواكين بالبي برمخو" *J. Vallvé Bermejo* وخاصة أطروحته "مساهمة في تاريخ مدينة سبتة حتى السيطرة المرابطية"²⁴. وفي هذا العمل الذي فتح الطريق أمام أبحاث أخرى تستلهم خطواته وقناعاته الإيديولوجية، خصص المؤلف الفصل الخامس لما يسميه بـ"سبتة الإسبانية"، وجعله واسطة عقد أطروحته. فبينما لم يخصص سوى تسع صفحات لـ"سبتة الإسلامية" (ص 113 - 122)، وعشر صفحات لـ"سبتة والقاضي عياض" (207 - 217)، نجده يخصص حوالي ستين صفحة لـ"سبتة الإسبانية" (123 - 179). ثم يفرد لاحقاً دراسة مطولة حول التدخل الأموي في سبتة وشمال المغرب.

ومع ذلك نلاحظ أن تياراً - ولو أنه ما يزال ضعيفاً كمياً - بدأ يأخذ مكانة في الدراسات الإسبانية المتعلقة بسبتة المغربية. يكفي أن نلقي نظرة على أعمال Ramos Calvo, J. Valencia, R. Zanón, M. I. Calero, Mosquera Merino وغيرهم، لنلمس معالم هذا التيار الجديد. وهذا التوجه تدعمه دراسات أخرى جعلت من الجوانب المادية للمدينة المغربية موضوعاً لها؛ مثل الجوانب المعمارية الحضرية، والمسكوكات، والأقليات الإثنية والدينية، والنشاط التجاري، وهي دراسات تطبعها إرادة إظهار اندماج المدينة في العالم المتوسطي، فضلاً عن اندماجها في وسطها الطبيعي المغربي.

إن المساهمة الفرنسية في كتابة تاريخ سبتة تعود إلى عقود خلت. ولقد أولت اهتمامها أساساً إلى العلاقات التجارية للمدينة مع عالم حوض البحر

24 - استعمل المؤلف كلمة *Ocupación* وليس *Dominación* في عنوان أطروحته *Contribución a la historia de Ceuta hasta la ocupación almoravide*, (Fac. Letras de Madrid, 1962).

الأبيض المتوسط. فباستثناء الملاحظات المقتضية لـ "هنري طيراس" حول بعض معالم المدينة، نجد أن الدراسات الفرنسية الأخرى قد أولت اهتمامها لعلاقة المدينة مع الساحل الفرنسي، وخاصة مع مدينة مرسيليا، استناداً على الوثائق العدلية المتعلقة بتجارة مرسيليا ومحاضر مينائها. كما أن بعض الباحثين الفرنسيين اعتمدوا في دراستهم على الأرشيفات الإسبانية، مثل "شارل إيمانويل دوفورك"، أحد أكبر المختصين في العلاقات المغربية الإيبيرية في العصور الوسطى. إن دراساته المختلفة حول العلاقات المغربية القطلانية، وخاصة تلك التي خصصها لـ "مسألة سببة في القرن الثالث عشر"، لا يمكن الاستغناء عنها، مثلها مثل أطروحته الرائدة: "إسبانيا القطلانية وبلاد المغرب في القرنين 13 و14"، التي تستند على كم هائل من الوثائق المحفوظة في الأرشيفات الأوروبية، وخاصة أرشيفات قاطلونيا. وهناك من اعتمد الأرشيف الإيطالي لدراسة علاقات المدينة التجارية مع دول حوض البحر المتوسط. ويكفي أن نذكر العمل الحديث للباحث الفرنسي "جورج جيهال"، حول الجنوبيين في غرب البحر المتوسط، وهو عمل رائد ومحكم التوثيق، ومجدد في ما يخص استغلال قاعدة متينة من وثائق الأرشيفات الإيطالية التي تلقي أضواء كاشفة على مكانة سببة في خارطة المبادلات التجارية في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

إن إسهامات الدراسات الأنجلوسكسونية، والإيطالية، والبرتغالية تظل ضعيفة، مقارنة بالنتائج التاريخية المغربي أو الإسباني، أو حتى الفرنسي. فبعض الباحثين الأمريكيين ساهموا في الثلاثينيات من القرن الماضي بأبحاث جيدة حول نشاط التجار الإيطاليين ببلاد المغرب، وخاصة بسببة، نذكر منهم H. W. Byrne و C. Krueger. ولكن الباحث البريطاني J. D. Latham هو الذي أسهم

مساهمة فعالة في كتابة تاريخ سبّطة الإسلامية. إن دراساته حول النظام التحصيلي للمدينة، وخاصة دراساته حول آل العزفي، تعتبر من أهم الدراسات المنجزة حتى الآن وأدقها حول هذه الأسرة التي طبعت تاريخ سبّطة خلال العصر الوسيط²⁵. أما الباحثون الإيطاليون (Balleto, Pistarino, Di Tucci) فقد اهتموا بسبّطة في إطار اهتمامهم بأنشطة تجار بلدهم في مدينة الزقاق.

يظهر أن الدراسات "السبّطية" لا تعيد نفسها، ولا تشكو من اجترار نفس الموضوعات، كما يُدعى أحياناً²⁶. بل إنها دراسات تتكامل ويستدعي بعضها البعض. وعلى الرغم من الغنى النسبي في الدراسات "السبّطية"، فإن المدينة ما تزال مفتوحة أمام البحث التاريخي، وخاصة ما يتعلق بحضارتها المادية خلال العصر الوسيط، وهي الحضارة التي لن تتضح بصفة جلية دون مساهمة الأبحاث الأركيولوجية. إن الأمر يقتضي تظافر جهود الباحثين المغاربة والإسبان، عن طريق خلق جسور الحوار المشترك والتنسيق بين مراكز البحث الإسبانية ومثيلاتها المغربية.

25 - هي دراسات ترجمها أمين توفيق الطيبي ضمن كتابه : دراسات في تاريخ مدينة سبّطة الإسلامية، طرابلس، 1989.

Halima Ferhat, "Sabta: état bibliographique", op. cit., 164 - 165- 26

المبحث الأول

القاعدة الاقتصادية

نسبته في العصر الوسيط

أولاً: الفلاحة والصيد البحري

1 - الملكية العقارية

من المؤكد أن دراسة النشاط الفلاحي تحتم التعرض مسبقاً لمسألة وضعية الأرض والملكية العقارية. لكن مصادرنا تظل خرساء عندما نستنتجها حول هذه الجوانب من الاقتصاد السبتي. إن ندرة النصوص التاريخية حول الملكية العقارية بسببته ونواحيها تعكس، على الأقل، واقعاً تاريخياً، يتمثل في كون النشاط الفلاحي لم يكن له تأثير كبير في الحياة الاقتصادية للمدينة التي ظلت تعتمد طول تاريخها على التجارة والبحر.

ويمكننا التأكيد على أنه قد سادت بسببته - كما في أغلب المدن المغربية في العصر الوسيط - الملكية الخاصة، وملكية الأعباس. فقد أعاققت التضاريس المعقدة المجاورة لسببته ظهور الملكية الكبيرة، أو الإقطاعات. أما الملكية الخاصة التي كانت صغيرة ومركزة في جوار سببته²⁷، فلم تكن نابعة من التوريب فقط، وإنما كذلك من الشراء، وخاصة في فترات الاضطرابات التي عرفتها المدينة. ولقد عملت بعض الأسر السببية الغنية على اقتناء الأراضي بالقرى المجاورة لسببته، وحتى بالأندلس. فالقاضي عياض كان يمتلك أراضي في مدينة مالقة، إضافة لما كان يملكه في سببته²⁸. أما ابن هاني اللخمي السبتي

27 - القاضي عياض وولده محمد، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تحقيق محمد بن شريفة، بيروت، 1990، 46؛ ابن رشد، مسائل أبي الوليد بن رشد، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، الدار البيضاء، 1992، ج 259/1.

28 - أبو عبد الله محمد بن القاضي عياض، التعريف بالقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة فضالة (د.ت)، 113.

فإنه كان "مقتصراً على فائدة ربع له ببلده" إشبيلية²⁹. وتوفر النصوص الفقهية معلومات قيمة عن "الجثث" والبساتين الخاصة التي كانت تحيط بالمدينة، أو وُجِدَتْ بداخلها³⁰.

لقد عرفت عملية التحبيس تطوراً كبيراً بسببته، والملكيات الحبسية التي وقفنا عليها ترجع للخوادم، وليس للسلطات. فأسرة القاضي عياض حبست جزءاً من الأرض التي كانت تملكها بالمنارة من المدينة، للدفن، وجزءاً آخر حبسته على المسجد³¹. وفي القرن السابع الهجري/ 13 م، نجد أبا الحسن علي الشاري يحبس مكاناً لدفن طلبة المدرسة التي بناها بالمدينة، و"عين لها من خيار أملاكه وجيد رباعه جملة وقفها عليها"³². أما الطيبية السبتية، عائشة بنت محمد ابن الجيار، محتسب المدينة في القرن الثامن الهجري/ 14 م، فقد "عهدت بتوقيف رباعها في وجوه البر وسبيل الخيرات"³³. ويمكننا أن نضاعف من الأمثلة. لكن تجدر الإشارة إلى أن التحبيس لم يكن دائماً فقط لهدف ديني. فنحن لا نعدم شهادة على اللجوء إليه لتفادي البيع، أو تقسيم الملكية، كما أنه استعمل لتجنب الإرث من المصادرة. فهناك فتاوى تبين كيف أن الأسر السبتية كانت

29 - الإحاطة، ج 3، 143

³⁰ - مذاهب الحكام، ص 88، 171

31 - التعريف، نفس الصفحة؛ المقري، أحمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، الجزء الأول، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، ج 1، ص 28

32 - ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج 8، تحقيق محمد بن شريفة، الرباط، 1984، ص 201؛ أبو الحسن الرعيني، برنامج شيوخ الرعيني، تحقيق إبراهيم شيوخ، دمشق، 1962، 74-75.

33 - مجهول، بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بثغر سبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1984، 55

حريصة على حَصْر تحبيسها في أعقبها، خصوصاً إن كان مكوناً من الإناث، وذلك لقطع الطريق على دخول الأجنبي في الإرث³⁴.

2 - عقود الاستغلال الفلاحي

إن عقود الاستغلال الفلاحي التي يناقشها الفقهاء ترجع بصفة أساسية إلى "المزارعة"، و"المغارسة"، و"المساقاة". وكانت هذه العقود تَضمن للفلاح نصيباً من الإنتاج الفلاحي. ولو أن المذهب المالكي لم يجز المزارعة والمغارسة إلا بتَحمُّظ، فإن فقهاء المغرب قد أجازوا هذه العقود "حسب العرف"، وذلك بتليين تطبيقاتها. بل إن بعضهم، كالقاضي عياض، الفقيه المالكي ومالك الأراضي، سيمنع على المزارع الاستفادة من المحصول الزراعي إن هو لم يساهم بنصف الزريعة؛ ولم يجز له سوى أجره عمله³⁵.

ونتساءل عن أهمية هذه العقود ودورها في الحياة الاقتصادية للمدينة التي كانت موارد تمويلها تأتي عن طريق التجارة وليس عن طريق الإنتاج الفلاحي. ومع ذلك لا يجب أن نهملها، خصوصاً والنصوص الفقهية تشير إليها وإلى استعمالها بنواحي سببة. ويمكننا افتراض أن المغارسة كانت هي السائدة في هذه المنطقة.

3 - الماء ومشاكل الري

لقد بذل السبتيون على ما يظهر مجهودات كبيرة لتحسين تقنيات الري لديهم، والاستفادة من تقنيات وتجارب القدماء التي بقيت ذكرياتها حية

34 - مذاهب الحكماء، 193 - 194.

35 - نفسه، 234.

بالمدينة³⁶. وبفضل تقنيات الري المتطورة، استطاع السبتيون خلق تلك المغروسات والحدائق التي ألهمت خيال الشعراء والأدباء العرب. "فالساقية"، في الهواء أو تحت الأرض، كانت توزع على الجنات، المياه المجلوبة من عين أو من جدول، أو تلك التي تأتي من بئر. في بعض الأحيان لم يكن الري ممكناً دون اللجوء إلى "الآلات الرافعة"، مثل "الدواليب"، أو "الناعورات"³⁷. لقد كانت الحيوانات تحرك الدولب الذي يصب الماء المجلوب من الجدول، أو من البئر، في "القواديس" التي بدورها تصبها في "صهاريج". كما استعمل "الأنبوب" في سبته لاقتصاد الماء³⁸. وغالباً ما نجد حوضين متلاصقين، يصب أحدهما في الآخر. كما وجدت "القالات" بكثرة بالمدينة، وكانت تطلق على بعض الأسوار التي يجري فوقها الماء داخل قواديس³⁹. ويظهر أن تضاريس المدينة ساعدت على استعمال هذه التقنية الأخيرة.

إن مدينة سبته تقع في منطقة تستفيد من تساقطات مطرية مهمة. وبالإضافة إلى الأحواض والآبار، فإن بليونش كانت تتوفر على عيون جارية، وأنهار وصل عددها إلى 86، "أرفعها قدراً، وأشهرها في النفع ذكراً، نهر أمزار"⁴⁰. ولو أن القرية لم تكن تعرف مشاكل في التزود بالماء، كما كان الشأن بالنسبة للمدينة، فإن توزيعه على المزارع كان يطرح مشاكل معقدة، تؤدي إلى

36 - مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر سعد زغول، الدار البيضاء، 1955، 137 - 138.

37 - جلب الشريف أبو العباس الحسيني المياه إلى الرياض الأعظم «بالدواليب حتى أوصله إلى القبة ذات الأعمدة». أزهار الرياض، ج 1/ 40.

38 - محمد الأنصاري، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1983، 40.

39 - كانت المدينة تتوفر على عدد مهم من القالات مثل قالة البساتين، قالة الدنيقي، قالة البسابيس، قالة الصندل، وقالة العين، انظر: بلغة الأمنية، م. س. 41؛ الأنصاري، اختصار الأخبار، م. س. 49.

40 - الأنصاري، اختصار الأخبار... م. س. 52.

صراعات ومنازعات بين أصحاب الملكيات الزراعية. ولا شيء يعكس لنا هذه الظاهرة أحسن من كثرة الفتاوى المتعلقة بالنزاعات حول مصادر الماء، وحفر الآبار المجاورة لبعضها البعض، وخاصة مسألة توزيع المياه بين الأرحاء والمزارع. إن الفقهاء كانوا يعطون الأولوية دائماً لأصحاب المزارع، ولو كانت للأرحاء أسبقية الأقدمية.

وتشير بعض الفتاوى على أن توزيع المياه كان يتم "حسب العرف"، وأهم طريقة كانت هي التوزيع حسب "النوبة". وفي كثير من الأحيان كان يتم خرق الأعراف من طرف الأقوياء والمتنفذين. فهناك فتوى متعلقة بأحد المتنفذين الذي قام بجرّ الماء المعروف بماء السياج، من قرية بليونش، إلى جنته، ضاراً بالطريق العمومية وبالمارة، دون أن "يُجتراً على الإنكار عليه"، لأنه كان مقرباً من السلطات المحلية، ومتعلقاً بالبرغواطي، حاكم المدينة. ولقد أعيد النظر في هذه القضية بعد أكثر من عشرين سنة. وعلى الرغم من تشبث صاحب الجنان بحق الأقدمية، فقد حكم عليه قاضي المدينة "بقطع ذلك الماء، ومنع إجرائه في الطريق، ولا في وقت من الأوقات"، حتى ولو جعل "للماء المذكور سرباً تحت الأرض، ويغطيه حتى لا يضر بأحد". وبعد ذلك قام آخرون، غير المحكوم عليه، يحتجون على قرار القاضي، لأنهم كانوا يسقون جناتهم بذلك الماء نحو أربعين سنة، و"لم يزالوا يسقون به"، وأنهم "قد غرسوا عليه غرساً، وكانوا لا يقدرّون على جري الماء في الغالب إلا من هذا الطريق المحكوم بقطع الماء عنها"⁴¹.

41 - مذاهب الحكم، 109 - 111.

كما أن المنطقة كانت تعرف مشاكل مرتبطة بعدم انتظام التساقطات المطرية، أو انقطاعها في بعض الأحيان، مما ينتج عنه نقص في صبيب الأنهار والعيون، الأمر الذي كان يؤثر على الحياة الفلاحية بمنطقة سبتة. فالمزارع التي كانت تعتمد في سقيها على المياه المجلوبة من مزارع أخرى تصبح مهددة بقطع الماء عنها من طرف جيرانها، وخاصة في فصل الصيف.

4 - الإنتاج الفلاحي

إن مدينة سبتة المبنية على حجرة، والمحاطة بمياه البحر، كانت تابعة كليا لمحيطها الخارجي في ما يخص مواردها الغذائية. فباستثناء السمك، كانت المدينة تعتمد على الخارج، سواء تعلق الأمر بالحبوب واللحوم أو بالخضروات، وحتى بالنسبة للماء. إن المنطقة القريبة منها كذلك متحجرة وغير منتجة. لكن على بعد سبعة كلمترات، تقع بليونش، البقعة الخصبة والغنية بمنتجاتها الفلاحية. ولم يلبث أن أصبحت بليونش مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بسبتة، على الرغم من صعوبة الطريق التي تربط بينهما، ووعورتها⁴².

والواقع أن بليونش كانت تمثل بالنسبة لمدينة سبتة ذلك الحزام الغذائي الذي شكلته الضواحي الزراعية المحيطة بمدن أخرى، كفاس ومكناس ومراكش. كما شكلت مكان نزهة وإقامة ثانية بالنسبة لأرستقراطية المدينة⁴³.

42- حول صعوبة الوصول إلى بليونش يقول القاضي عياض :
بليونش جنة ولكن ** طريقها يقطع النياط
كجنة الخلد لا يراها ** إلا الذي جاوز الصراطا

(المقري، أزهار الرياض، ج 1، ص 34)

43 - Cressier P.(et autres), *El urbanismo rural de Belyounech. Una aproximación metodológica a un yacimiento islamico medieval del norte de Marruecos* in *Arqueologia espacial. Congreso sobre el Microespacio, Teruel, 1986, pp. 327- 349*

إن ضيق المساحة الزراعية، وغياب أي مجال فلاحى بضواحي سبتة، لم يسمح بظهور زراعة الحبوب بها. فهناك إجماع لدى المؤرخين العرب فيما يخص فقر المدينة وناحيتها بخصوص إنتاج الحبوب. فقد رآها ابن الخطيب⁴⁴ "عديمة الحرث، فقيرة من الحبوب". وأوضح العمري أن "القمح لا يزكو نباته في أرضها، وإنما يُجلب إليها جلباً"⁴⁵. ويؤكد الحسن الوزان كذلك بأن بادية المدينة "هزيلة وعرة، ولهذا السبب كانت المدينة تشكو دائماً من قلة الحبوب"⁴⁶. إلا أن المدينة عرفت كيف تحل هذه المشكلة بفضل علاقاتها التجارية مع السهول الأطلسية، وسهول المناطق الداخلية في المغرب؛ بل أصبح أكبر مخزن للقمح المغربي الموجه لأسواق البحر الأبيض المتوسط. وبهذا الصدد، نجد أن بعض المؤرخين لم يترددوا في ربط احتلال سبتة سنة 1415م (والسواحل المغربية الأخرى) بمحاولة البرتغاليين ضمان هذه المادة الأساسية لبلادهم⁴⁷. ويدعم (روبير ريكار) فرضية الدور الأساسي للحبوب في قضية سبتة، ويعتقد أن الحبوب مرتبطة كذلك بالمبادلات التجارية التي ستم لاحقا مع غينيا⁴⁸. ويؤكد (بيطورينو ماغالهايس غودينهو) من جانبه على أن سبتة كانت مركز تخزين كبير للحبوب التي كانت تردّها من السهول المغربية،

44- ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق كمال شبانة، الرباط (د. ت)، 146.

45 - العمري (ابن فضل الله)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر)، تحقيق مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1988، 137؛ القلقشندي، صبح الأعشا، ج 5، 153.

46 - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص 317.

47 - أحمد بوشرب، دكالة، 154.

48 - R. Ricard, " Le commerce de Berbérie et l'empire portugais", *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger*, t. II, 1936, p. 10- 11

ويؤكد هذا المؤرخ أن البرتغال كانت تستورد القمح من سبتة قبل حملة الملك جواو الأول عليها سنة 818هـ/ 1415⁴⁹.

إن الريّ المتطور جداً بسبتة كان يستعمل في البستنة، وفي سقي الخضر والفواكه التي كانت تستدعي عناية خاصة، وتقنيات متطورة، أثارت انتباه الجغرافيين العرب وإعجابهم. ففي الأوصاف الجغرافية تظهر بليونش ميدانا للزراعة الشجرية بامتياز. في القرن السادس الهجري/ 12 م، يخبرنا الإدريسي أنه كان يتجهز بفواكه بليونش الكثيرة "إلى ما جاور سبتة من البلاد"⁵⁰. ثلاثة قرون بعد ذلك يؤكد الأنصاري، بقليل من المبالغة، أن "القرية في كثرة الفواكه الصيفية والخريفية، واختلاف أصنافها، وتعدد أرهاطها وأنواعها، بحيث توسق منها الأجفان، وتساfer إلى المغرب وبلاد الأندلس"⁵¹. إن هذا المؤلف هو الذي أعطانا لائحة كاملة ومثيرة للانتباه بالمنتجات الفلاحية البليونيشية، "وغيرها من قرى سبتة"، مع ذكر عدد أنواعها، بحيث لا يبقى مجال للشك في خصوبة المنطقة وغناها الفلاحي. فقد قسم منتجات بليونش إلى أربعة أقسام:

- الفواكه الخريفية، مثل العنب والتين والتفاح والخوخ واللوز والجوز والقسطل والسفرجل والخروب.

- الفواكه الصيفية، مثل المشمش وعيون البقر والإجاص والتوت.

⁴⁹- Godinho M. V, *Les grandes découvertes*, Coimbra Editora, Coimbra, 1953, p. 32
Id.: *História económica e social da expansão portuguesa* op. cit., t. I, p. 87-89

50 - الإدريسي، *نزهة المشتاق*، 529.

51 - الأنصاري، *اختصار الأخبار...م. س.*، 53.

- الفواكه الشتوية، مثل الترنج والليمون والرنانج والزنبوع وقصب السكر والموز.

- المشمومات، مثل الريحان والياسمين والنسرین والبهار والسوسان والنوار القرنفلي والبنفسج والنعنع والترنجان، والمرددوش، وزهر النارانج.

ونلاحظ باهتمام بالغ انتشار الزراعات التي كانت تحتاج إلى عناية خاصة من طرف المزارعين، وإلى وجود بعض الزراعات الاستوائية بنواحي سبتة، مثل قصب السكر الذي لا نعرف بدقة متى بدأت زراعته ببلونش. فأول إشارة إليه ترجع للقرن السادس الهجري/ 12 م. ويظهر أن هذه الزراعة قد تقلصت أهميتها في القرن الثامن الهجري/ 14 م؛ إذ يشير العمري إلى وجود قصب السكر بنواحي سبتة، لكنه " ليس بالكثير"⁵². ويؤكد الأنصاري وجود هذه المادة في مطلع القرن التاسع الهجري/ 15 م، مشيراً إلى أنه ثلاثة أنواع. ونشك أن يكون غنى المنطقة بالسكر هو الذي دفع البرتغاليين لاحتلالها⁵³. كما أن الموز كان "كثيراً بداخل المدينة، ولا يختص بفصل".

إن المؤرخين والجغرافيين العرب لا يقدمون معلومات عن تربية الماشية بسبتة ونواحيها. في هذا الميدان كذلك كانت المدينة خاضعة للخارج. فقد كانت الحمير راكبة الفقراء بامتياز. أما الخيل والبغال فكان يستعملها كبار القوم والميسورون⁵⁴. ولم تكن الجمال لتتأقلم مع مناخ الشمال، ومع ذلك كان

52 - العمري، 137.

Godinho, V. M., *L'Economie de l'Empire portugais aux XVe et XVIe siècles*, - 53
Paris, 1969, 8, 41 - 42.

54 - كان أحد زهد المدينة «يسمر الدواب ولا يتعرض لتسمير الخيل والبغال خشية أن يقصده بذلك الأمراء». بلغة الأمانة، 32

السبتيون يشاهدونها تفرغ حمولاتها من القمح في الفندق الكبير بالمدينة⁵⁵. ولم تكن المراعي تنقص الرعاة السبتيين، وخاصة بليونش. وتشير بعض النصوص إلى مزاولة الإنتاج بضواحي المدينة⁵⁶. لقد كانت الأبقار تربي بكثرة في سهول تطوان⁵⁷. أما الأغنام، فإنها لم تكن تتأقلم بسهولة مع تضاريس ومناخ المنطقة، وكان يتم استيرادها⁵⁸. بينما كانت تربية الدجاج والحمام والنحل متطورة بالمدينة.

لا نعرف الشيء الكثير عن الضرائب الفلاحية، وتلك التي وقفنا على أثرها في المصادر التاريخية لا نعرف بالضبط طبيعتها ولا مقدارها ولا كيفية جبايتها. فبعض النصوص النوازلية تشير إلى ضرائب غير شرعية مثل "المغارم" و"الكلف" التي كانت تضرب النشاط الفلاحي بضواحي سبتة. فإحدى نوازل القاضي عياض تنطرق إلى "رجلين أخوين قام عليهما قائم يدعي عليهما أنهما زادا عليه في أرض تجاوزهما، فأنكرا ذلك... فشهدت للقائم بيّنة أن الحد قد غير". ولم تكن هذه البيّنة سوى "مقاسمة المغارم والكلف التي تلزم الرعية بسبب السلاطين"⁵⁹. إن التنصيص على "مقاسمة المغارم" توحي بأن هذه الضرائب غير الشرعية كانت تؤدي بشكل جماعي. وتتعرض نازلة أخرى إلى "الوازم" كانت مفروضة على سكان قرية من قرى سبتة، وتتمثل في "العُشر وفطرة ومغرم سلطان وغير ذلك"⁶⁰. إن هذه الشهادات تعود إلى القرن السادس الهجري (12م)،

55 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س.، 38.

56 - مذاهب الحكام، 304 (فتوى للقاضي عياض).

57 - في إحدى الغارات البرتغالية على مدينة تطوان تم الاستيلاء على 300 بقرة، انظر، Godinho, V. M., *Historia económica e social da expansão portuguesa*, Lisbonne, 1947. 32.

58 - العمري، 137.

59 - مذاهب الحكام، ص 52

60 - نفسه، ص 304

وتتزامن مع الدولة المرابطية التي نذكر بأنها ربطت قيامها بوضع حد للتجاوزات الجبائية واستئصال المغارم المستحدثة الخارجة عن الشرع، أو "بدعوة الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم"⁶¹. ولا نعتقد أن هذه الضرائب قد ألغيت لاحقاً، سواء في العصر الموحي أو في العصر المريني⁶². إلا أن ما يثير الانتباه هو ما يقره ابن البلد، محمد بن القاسم الأنصاري، من كون نواحي سبتة كانت "مغفأة من الوظيف، ومحررة من المغرم"⁶³.

5 - الصيد البحري

يعتبر الصيد البحري من الموضوعات التي ما تزال مهمة في الاستغرافية المغربية الحديثة، على الرغم من الدور الكبير الذي لعبه البحر والوديان في تاريخ المغرب، قديماً وحديثاً. ومن اللافت للانتباه أن دراسة أكاديمية متخصصة كتلك التي قام بها الدكتور عز الدين أحمد موسى، حول "النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري"⁶⁴ لا تُخصص سوى ستة أسطر لا غير للحديث عن نشاط الصيد البحري بالمغرب الإسلامي برمته. لذلك نعتقد أن تخصص دراسة مستقلة لهذا النشاط الاقتصادي بمدينة مغربية خلال العصر الوسيط لمن شأنه أن يثير الانتباه، ويفتح آفاق

61 - أبو عبيد البكري، كتاب المسالك والممالك، طبعة تونس، 1992، ج 2، ص 857-868

62- حول المسافة الفاصلة بين المشروع الإصلاحى والممارسة الجبائية عند الدولة المغربية في العصر الوسيط، راجع : محمد القبلي "حول الإصلاح وإعادة الإصلاح بالمغرب الوسيط"، المناهل، عدد 69-70 يناير 2004

63 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م.س، ص. 52.

64 - عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، بيروت 1983، ص 204، وانظر كذلك،

Rosenberger B., "L'histoire économique du Maghreb", *Wirtschaftsgeschichte des V. Orients...* Leiden, 1977.

البحث في هذا الموضوع الذي لم يدرس بعد دراسة جادة⁶⁵، مثله في ذلك مثل موضوع "القنص وتقنياته"، و"حيوانات المغرب في العصر الوسيط"، وهما موضوعان مرتبطان بالصيد البحري.

لعب البحر والصيد البحري دوراً كبيراً في حياة سببته منذ أقدم العصور⁶⁶. فقد استفادت المدينة من موقعها الجغرافي المتميز على مدخل مضيق جبل طارق، ومن شكلها الطبوغرافي الذي يمنحها امتيازات صفة شبه جزيرة، وكذلك من الرصيف القاري الذي يوفر الظروف الملائمة لتكاثر السمك، لتصبح من أهم مراكز الصيد البحري بشمال المغرب خلال العصر الوسيط.

وإلى ما قبل احتلالها من طرف البرتغال سنة 818 هـ/ 1415 م، كانت المدينة تتوفر على نوعين أساسيين من تقنيات الصيد البحري، وهما: "المضارب" و"المصائد"؛ إذ يخبرنا أبو القاسم محمد الأنصاري أن عدد ما وقف عليه من المصائد، سوى ما لم يقف عليه، يقارب الثلاثمائة "مفتوحة من طرف قب منت من بحر أبي السول [...] إلى مرسى موسى، بل إلى مدشر فريوية من أرض مصمودة من بحر الرملة". أما بخصوص المضارب فيذكر أن المخصصة "لحوت البحر وغيره بالبحرين" كانت تسعة مضارب، كلها

65 - يقدم د. محمد حمام نظرة أولية عامة عن الصيد وتجارة السمك في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ما بين القرن 10 وبداية القرن 16 م. انظر :

Mohamed Hammam, "La pêche et le commerce de poisson en Méditerranée occidentale (Xe- début XVIe siècles). Tableau historico-géographique établi d'après les sources musulmanes. in *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Age*, Rabat, 1995, pp. 151- 180

Ponish M. Et Tarradell M., *Garum et industries antiques de salaisons dans la Méditerranée occidentale*. Paris, 1965, p. 5.

مفيدة، و"أعظمها فائدة مضرب أويات"⁶⁷. ومن المؤسف أن كتاب "الإعلام" الذي أودعه الأنصاري معلومات ضافية عن تقنيات الصيد، وذكر فيه "ما يقع الانتفاع به منها من ذكر العلامات والمياه"، و"كمية الصيد في كل مصيد"... لم يصلنا بعد. وإذا كان الأنصاري يؤكد أنه وُجد من "المضارب" ما كان بداخل المدينة، ومنها ما هو خارج عنها، فإننا لم نستطع تحديد مواقع إحداهما، باستثناء "مضرب أويات" الواقع جنوب غرب بحر أبي السول، ومضرب الشبكة المجاور لدار الصناعة. وإذا كنا لا نتوفر على معلومات بخصوص تاريخ إقامة هذه المنشآت، فمن المؤكد أنها كانت تحتاج إلى عدد مهم من اليد العاملة، وأن تأثيرها على الإنتاجية كان كبيراً.

إن الجغرافيين والمؤرخين العرب يتفقون فيما يخص غنى مياه سبتة بالأسمك. وشهادة الإدريسي، ابن المدينة، تغني عن كل تعليق، يقول: "وبمدينة سبتة مصايد للحوت، ولا يعدلها بلد في إصابة الحوت وجلبه، ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع، ويصاد بها السمك المسمى التن الكبير الكثير"⁶⁸. وباستثناء هذا النوع من السمك الذي خصته مصادرنا الوسيطية باهتمام خاص، فإنها لا تقدم لنا معلومات عن الأنواع المصطادة وكمياتها. ومع ذلك نجد ذكراً للسردين، ولسمك "الجري"، ولسمك موسى، ولسمك "الطردنس". وهذا النوع الأخير لم يكن يوجد إلا في المياه العميقة⁶⁹. ويتحدث

67 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م.س، ص 50 - 51.

68 - الإدريسي، نزهة المشتاق، نشر دوزي وخوي، ليدن، 1864، ص 529؛ العمري، مسالك الأبصار، ترجمة فرنسية بقلم جودفري ديمومين، باريس، 1927، ص 138؛ نعت ابن الخطيب المدينة بكونها «محشر أنواع الحيتان»، معيار الاختيار، تحقيق كمال شبابة، الرباط، د.ت، ص 146.

69 - ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف التادلي)، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد الترفيق، الرباط، 1984، 160؛ العمري، مسالك الأبصار، 139؛ عبد العزيز الأهرسي،

أبو حامد الغرناطي (ت. 565 هـ / 1169م) عن نوع آخر يسميه "الحوت المشوي"، وهي سمكة طولها أكثر من ذراع وعرضها شبر، وكان هذا الحوت يوجد بكثرة بنواحي سبتة، ويخبرنا أن "الناس يتبركون به، ويهدونه إلى المحتشمين". ويبدو أن اليهود كانوا يحتكرون تسويق هذا النوع من الحوت، فقد كانوا "يقددونها ويحملونها إلى البلاد البعيدة للهدايا"⁷⁰.

ولقد استطاعت المدينة أن تُراكم خبرة كبيرة فيما يخص تقنيات الصيد البحري. فـ"الحنكة" و"المهارة" و"الدربة" كلها صفات تُعت بها الصيادون السبتيون. ففي معرض حديثه عن طريقة اصطياد التن الكبير، يخبرنا الإدريسي أن "لهم في ذلك دربة وحكمة سبقوا فيهما جميع الصيادين"⁷¹. ومع ذلك، فإن معلوماتنا عن تقنيات الصيد البحري تبقى ناقصة، لأنها لم تلتفت، على ما يظهر، انتباه الجغرافيين العرب. إنهم يشيرون مع ذلك إلى استعمال "الرماح" الخاصة بصيد التن الكبير، والتي كانت "لها في أسنتها أجنحة بارزة تنشب في الحوت ولا تخرج، وفي أطراف عصيها شرائط القنب الطوال". ونجد كذلك وسائل أخرى، مثل "الشبكة" التي كانت ترمى من الشاطئ، أو من وسط المضربة. ومن المرجح أنها كانت تصنع من حبال رقيقة، وقطع من الفلين العائم على وجه البحر، وأحجار لإثقال الشبكة. وإذا كانت هذه الطريقة تستدعي تكاثف مجهودات جماعة من الصيادين، فإننا لا نعدم وجود معلومات تشير إلى مزاولة الصيد البحري الفردي، والذي ظل بدائياً، يقتصر على استعمال "القفة" لصيد

ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة، مجلة معهد المخطوطات العربية، ج 1، 1957 ص 291.

70 - أبو حامد الغرناطي، المعرب عن بعض عجائب المغرب، تقديم وترجمة وتحقيق إينغرد بيارانو، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1991، ص 71؛ وانظر كذلك القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1969، ص 182.

71 - الإدريسي، نزهة المشتاق، 529.

السماك⁷². ومن المؤكد أن منتوج هذا النوع من الصيد لم يكن موجهاً إلى التسويق بقدر ما كان مخصصاً لتلبية حاجيات العائلة، إن لم نقل الشخص الواحد.

ونشير إلى أن مهنة الصيد لم تكن مهنة محتقرة في سبتة، بل حظيت بالاحترام، وزاولها الفقهاء والمتصوفة، سواء لحسابهم الخاص أو كمأجورين⁷³.

ونظراً لأهمية هذا النشاط في اقتصاد المدينة، فقد أصبحت مراقبته وتنظيمه ضروريين. وقد تولى هذه المهمة موظف رسمي يسمى "عامل المضارب". ولا نعرف مهام هذا العامل إلا من خلال نص فريد ووحيد أورده المقرري في "أزهار الرياض". فقد كان هو المسؤول عن النظر في فوائد المضارب "وما تحتاج إليه من نفقة وآلة"، وكان يساعده في ذلك "رجاله وأعوانه" الذين كانت مهامهم تقتضي الحرص على المداخل المتأتية من بيع السمك. فقد كان عامل المضارب "يأمر رجاله وأعوانه، حين يقعد النواتية الكيس، بالوقوف إليه والدفاع عنه، بعد أن يحضر الشهود، خفراً وضبطاً لما يحصل من فائد المضرب المالي"⁷⁴.

72 - عبد الحق البادسي، المقصد الشريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، 1982، ص 103

73 - ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقيير، نشر محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط، 1965، ص 12؛ ابن الزيات، التسوف، م. س. 302. ابن الطواح، سبك المقال، ص 55؛ الأزموري، بهجة الناظرين، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1343 د، ورقة 38، 54 (وفيه أن عبد السلام أمغار العابد اشترى منبراً من بسبته حيث سياحته بها " من ثمن حوت كان يصطاده من البحر بيده حرصاً على الحلال".

74 - المقرري، أحمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج 1، م. س. 33.

وإذا كانت المصادر لا تسمح بافتراض وجود احتكار لصالح المسيحيين، كما كان الأمر في تونس مثلاً في نفس الفترة، فإنها تشير إلى أن مداخيل المصائد السبتية كانت محتكرة من طرف بعض الشخصيات البارزة بالمدينة. ومع ذلك فإنه يصعب الحسم فيما إذا كان الأمر يتعلق باحتكار أم بعتاء. ففي القرن الثامن الهجري/ 14 م، كان "فائد مضرب الميناء" مخصصاً للشريف أبي العباس الحسيني، "دون أن يشركه غيره". كما "كان له بمضرب أويات، يوم يضرب فيه، ويومان لببيت المال". وكان يحصل له من "فائد يومه" من مضرب أويات وحده، ما بين خمسمائة وألف دينار، هذا بعد "إباحة المضرب للمساكين، وتفريق الحوت على من لا يصل إليه ممن يحضر متنزهاً"⁷⁵. ومهما كان نصيب هذه الأرقام من مبالغه، فإنها تعكس على الأقل غنى المصائد ودورها في اقتصاد المدينة، وتغذية ساكنتها.

ونتهي هذه الملاحظات بطرح بعض القضايا التاريخية التقنية المتعلقة بطرق تعبئة وصيانة الثروة السمكية المصطادة والمصدرة للأسواق الخارجية. فسمك التن مثلاً، يظل دون قيمة لو لم يُصَبَّرَ ويُسَوَّقَ. فالمصائد والمضربات كانت تصطاد كميات هائلة منه، حسب شهادة الإدريسي السابقة الذكر. وهذه الكميات المصطادة قد تصل إلى عدة أطنان يومياً، وكانت تتجاوز حتماً الاحتياجات الاستهلاكية لساكنة سبتة من السمك الطري، إذا اعتبرنا أن الوزن المتوسط لتينة واحدة هو مائة كيلوغرام. وهذا الأمر يدفعنا إلى البحث عن طرق حفظ السمك وتخزينه وتعبئته في ظروف لا يتعرض فيها للتلف أو للتونة. وعندما نقول تخزين السمك، فإن ذلك الأمر يستتبعه تسويقه وتصريفه

75 - نفسه، 43.

في الأسواق الخارجية، وما يرتبط بذلك من إشكالات متعلقة بالنقل والبحث عن الأسواق. وهذه الأمور تضع أمام الباحث قضايا دقيقة وصعبة في نفس الوقت، ومنها ما يتعلق باستعمال وسائل وآليات حفظ المنتج السمكي المصطاد وتعبئته؛ وتأتي على رأس تلك الآليات: الجرات، أو الخابيات. ومن المعلوم أن استعمال الجرات ظل مألوفاً حتى القرن السادس أو السابع الميلادي، قبل أن يُعوّض باستعمال البراميل المصنعة من خشب البلوط الفليني، أو من شجر القسطل⁷⁶. وهو ما رجح كفة المناطق المتوفرة على ثروة غابوية. فالبراميل كانت تسمح، من ناحية الوزن، بحمل ضعف كميات السلعة في نفس المساحة على السفن. إضافة إلى أن البراميل ليست سريعة الانكسار، مثل الجرات، ويمكن إعادة استعمالها مرات متعددة. وإذا كانت المصادر العربية تشير إلى عدد من الصناعات التقليدية المرتبطة بالخشب، فإنها تظل خرساء حينما نستنطقها بخصوص استعمال البراميل في تعبئة ونقل المواد السائلة، أو المسحوقات، أو حتى في نقل بعض السلع السريعة التلف. فهل استمر السبتيون في استعمال الجرات والخابيات الخزفية لحفظ السمك وتخزينه؟ أم أنهم لجأوا إلى استيراد البراميل الخشبية من شبه الجزيرة الإيبيرية (قشتالة)، أو من المدن الإيطالية التي كانت تربطها بالمدينة علاقات تجارية وطيدة؟

إن عمق الصلات التجارية الجنوبية مع سبتة يدفعنا إلى افتراض أن قسما من الرساميل الجنوبية قد استثمرت في ميدان صيد السمك، وبصفة خاصة في المضربات وتسويق سمك التن وغيره⁷⁷. ويتأكد الاحتكار الجنوبي لهذا النشاط خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وكان يغطي المجالات

76 - رسالة شخصية من السيد F. Doumenge ، مدير المعهد الأوسيانوغرافي بإمارة مونكو Monaco، بتاريخ 9 دجنبر 1997

77 - هذا ما يعتقده السيد Doumenge في رسالته السابقة الذكر

الإسلامية والمسيحية على السواء، على الأقل في الجزء الأوسط من المحيط الأطلسي. لكننا لا نتوفر لحد الآن، على إشارة تاريخية لحمولة تشمل السمك المستورد من سبتة ضمن حمولات السفن الجنوبية في هذا العصر.

ثم إنه خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بدأ استعمال نوع آخر من الآليات لصيانة السمك والاحتفاظ به، إلى جانب عملية التمليح التي استعملت منذ أقدم العصور⁷⁸؛ يتعلق الأمر بصيانة سمك التين في الزيت، وهو عمل كان من أكبر اختصاصات الجنوبيين في حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد كان الحصول على الزيت أسهل بكثير من الحصول على الملح. ومن جهة أخرى، فإن تصبير السمك والاحتفاظ به بواسطة استعمال الزيت يصبح أكثر نجاعة من تصبيره بواسطة الملح، عندما يتعلق الأمر باستخدام الجرات والخابيات الخزفية.

وكيف ما كان الحال، فإن الصيد البحري في سبتة لم يقتصر على السمك فحسب، بل شمل كذلك صيد المرجان. فقد اشتهرت السواحل السبتية منذ القدم بغنى مرجانها وجودته. فالخرائط البحرية القديمة تبين جزيرة ليلي (تورة) - التي تقع غرب مدينة سبتة بحوالي ثمانية كيلومترات - وتسميها "جزيرة المرجان" *Isla del coral*⁷⁹ لكونها من المناطق الغنية بهذه المادة. وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، يشير الرحالة المشرقي، ابن حوقل، إلى جودة مرجان المدينة⁸⁰، ويصفه الإدريسي بأنه "لا يعدله صنف من صنوف

Ponisc M. et Tarradell, *Garum et industries antiques de salaisons...* op. cit. - 78
E. de la Primaudaie, "Les villes maritimes du Maroc", *Revue Africaine*, XVI, - 79
1872 p. 204
80 - ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، 1963، ص 79 وحسب بعض الروايات الغامضة
قد يكون المرسلون أتوا لصيد المرجان السبتي منذ القرن التاسع للميلاد. انظر :
Hardy, G., " Le Maroc", in *Histoire des colonies françaises*, t. III, Paris, 1931, p. 13.

المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار" ⁸¹. إلا أنه، وغيره من الجغرافيين العرب، لا يحددون بدقة مكان تواجده. ويرجع الفضل إلى "أزهار الرياض" في تحديد "مغطس المرجان" بجبل موسى، على بعد تسعة أميال من سبتة ⁸². وعلى الرغم من أن صيت مرجان سبتة وشهرته قد ذاعت في الدول الأوربية، حتى نعتت المدينة في خرائطها القديمة بـ "جزيرة المرجان" ⁸³، فإنه لم يعط امتياز احتكاره للمسيحيين، كما هو الشأن بالنسبة لتونس الحفصية.

إن استخراج المرجان من بحار سبتة أعطى ديناميةً لنشاط صناعي - حرفي مرتبط به، وموجه للتسويق الخارجي. ويذكر ابن حوقل (منتصف القرن الرابع/ 10 م) أنه يعمل من المرجان بسبتة "قويريات [أواني] لطاف" ⁸⁴. ويذكر الإدريسي - وهو من أبناء المدينة - أنه كان بسبتة "سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزاً، وثقبه وتنظيمه، ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد، وأكثر ما يحمل إلى غانة، وجميع بلاد السودان؛ لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيراً" ⁸⁵.

ولم يتعرّض الجغرافيون العرب للتقنيات المستعملة في استخراج شجيرات المرجان السبتي. على أنهم أشادوا بجودته التي يذكرونها دائماً في معرض حديثهم عن مرجان مرسى الخرز الشهير. ونعتقد أن تقنيات استخراج المرجان من مياه سبتة لم تكن تختلف كثيراً عن مثيلاتها المستعملة بمرسى الخرز. فقد كان المركب يبحر بحوالي عشرين رجلاً، بعضهم يكون مكلفاً

81 - الإدريسي، نفسه.

82 - المقرئ، أزهار الرياض، ج 1، 35 - 36؛ ابن عذاري، البيان المغرب، الجزء الأول، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، ص 206.

83 - Cherif Mohamed, "Notes sur la pêche maritime à Ceuta au Moyen Age", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, N° IV. 1990, p. 260.

84 - ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، د. ت. ص 79.

85 - الإدريسي، نفسه، ص 529.

بالغطس تحت الماء، ومزوداً بـ "آلات ذوات دواب كثيرة تصنع من القنب. تدار هذه الآلة في أعالي المراكب فتلتف الخيوط على ما قاربها من نبات المرجان، فيجذبه الرجال إلى أنفسهم"⁸⁶.

ويبدو أن مصائد المرجان السبتي قد عرفت تقلصاً في أهميتها، وضعفاً في إنتاجيتها خلال القرن الثامن الهجري/ 14 م، بسبب الاستغلال المكثف الذي تعرضت له طيلة القرون السابقة. فالخرائط المسيحية لهذه الفترة لا تشير إليها⁸⁷. ولم يتعرض لها الأنصاري في "اختصار أخباره" ضمن مقومات المدينة الاقتصادية. ويتأكد هذا الاضمحلال لأهمية ذلك النشاط، إن لم نقل زواله بالمرّة في القرن العاشر الهجري/ 16م، بحيث لا تشير إليه الخرائط الإغريقية بتاتاً⁸⁸.

لقد عرفت المدينة نشاطاً آخر مرتبطاً بالبحر، ويتعلق باستخراج الملح الذي زاوله السبتيون منذ العصر النيوليتيكي⁸⁹. إلا أن المصادر لا تسمح بالتأكيد على استمرارية هذا النشاط حتى العصر الوسيط، ومع ذلك فإن استخراج الملح من بحار سبتة لم يتوقف تماماً. فأحدى الكرامات المرتبطة بولي سبتي توحى بوجود هذا النشاط بضواحي المدينة⁹⁰.

86 - نفسه، 290 - 291؛ ابن حوقل، 77.

87 - Carlos Gozalbes Cravioto, *Ceuta en los portulanos medievales*, Ceuta, 1997, - 87

88 - Cherif Mohamed, "Notes sur la pêche..", op. cit., p. 260. - 88

89 - Ponish M. Et Tarradell M., *Garum*, op. cit, p. 5. - 89

90 - خرج ولي سبتي من رابطته بحجر السودان «فوجد على حجر بإزاء البحر مدين من الملح». الأزدي (أحمد بن إبراهيم القشتالي)، تحفة المغرب ببلاد المغرب، نشر فرناندو دي لاغرانشا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 17، 1972-1973، ص 120.

إننا لا نتوفر إلا على معلومات ناقصة جداً عن الصيد البري. في القرن الخامس الهجري/ 11 م يشير البكري إلى مكان غرب مرسى موسى، يلتقي فيه السبتيون لمزاولة القنص. وهناك قصة أورها ابن رشيد في رحلته، مفادها أن بعض أدباء سبتة خرجوا مع الوزير ابن خلاص خارج سبتة، فانتالت عليهم الأرانب من كل جهة، فصادوها دون كلفة⁹¹. يتعلق الأمر على ما يبدو بنوع الذ من الأرانب العادية وأملس منها، كان يسمى "القلنية" التي كانت، حسب المقري، لا توجد "في بر البربر [المغرب] إلا ما جلب منها [الأندلس] إلى سبتة، فنشأ في جوارها"⁹².

91 - أحمد الحدادي، رحلة ابن رشيد السبتي، دبلوم الدراسات العليا، فاس، 1981، ج 1، ص 18.

92 - نفح الطيب، ج 1، ص 198.

ثانيا : النشاط الصناعي والحرفي

1 - التنظيم الحرفي

يصعب فصل النشاط الحرفي عن النشاط التجاري في التنظيم الاقتصادي لسببته الإسلامية في العصر الوسيط. فقد كان الحرفي يُسوّق منتوجه بنفسه في أغلب الأحيان. ومكان الحرفة هو مكان البيع في نفس الوقت. ويتجلى هذا التداخل بين النشاطين حتى على مستوى المصطلحات. فمصطلح "النجارين" مثلاً قد يحيل - في غيبة سياق موضع - على حقائق مرتبطة بصناعة الخشب، أو ببيعها. ومع ذلك، فلكلا النشاطين خصائص معينة، ويطرحان مشاكل خاصة.

ونظراً لطبيعتها التجارية، فقد اعتمدت سببته أساساً على الخارج في التزود بالمواد الغذائية، وبالمواد الضرورية لصناعتها التقليدية. وساهم التوسع العمراني للمدينة وزيادة عدد سكانها في تسريع إنتاجها الحرفي الذي سيصبح أحد العناصر الأساسية في علاقات المدينة التجارية بباقي مناطق المغرب، وبدول حوض البحر الأبيض المتوسط.

ويبدو أن كثيراً من العلماء والمتصوفة السبتيين قد تعاطوا للنشاط الحرفي، وهو ما يؤشر على أهمية العمل اليدوي في البنية الاقتصادية للمدينة، ونظرة المجتمع السبتي إليه. ورغم أن المدينة عرفت انتشاراً ملحوظاً للتصوف في العصر الوسيط، فإننا نادراً ما نجد متصوفة عزفوا عن العمل، وركنوا إلى الراحة. بل على العكس من ذلك، نجد منهم من زاول مهناً بسيطة ترمز إلى التواضع والبساطة والتعبد. فليس غريباً أن نجد الأسماء الدالة على الحرف مثل العطار، والحداد، والسمار، والحرار، والدباغ، تكثر في التراجم التي وصلتنا لشخصيات سببته. بل ظل الحرفيون والصناع يحتلون مكانة محترمة في

التراتبية الاجتماعية داخل المدينة حتى سنة سقوطها بيد البرتغال⁹³. ومع ذلك، فإننا لا نعدم إشارة إلى علماء كانوا يستنكفون من مزاوله العمل اليدوي⁹⁴.

لقد انتظمت الصناعة بطريقة لم تختلف عن تنظيمها في المدن المغربية والإسلامية الأخرى⁹⁵. فالتجمع الجغرافي، وتنظيم الصناعات حسب الحرف، يظل طابعاً مشتركاً في جميع المدن الإسلامية. فقد كانت الحرف تنتظم في توزيعها حسب توزيع جغرافي يعكس أهميتها انطلاقاً من وسط المدينة؛ كما أن الحرف التي كانت تحتاج إلى مساحة كبيرة، أو ذات الروائح الكريهة، كان يتم إقامتها خارج الأسوار.

ومع ذلك، فإن هذا التوزيع حسب الحرف لم يكن إلا نسبياً في سبته. فقد اضطرت المدينة بسبب ضيق مساحتها إلى تشتيت الأنشطة الحرفية الواحدة على طول مجالها الحضري. فالتربيعات مثلاً، كانت توجد داخل الأسواق، وبالمرات "من أول المدينة إلى آخرها"⁹⁶. كما إن وجود "الأمناء"، أو "العرفاء"، أو "المقدمين"⁹⁷؛ والتفريق بين "شيوخ الصناعات"، و"الصناعات"،

93 - أشير المؤرخ البرتغالي «زورار» إلى ثلاث فئات مهنية على قدم المساواة بمدينة سبته عند سقوطها سنة 1415 قائلا: «جميع سكانها من التجار والصناعات والبحارة»

Cité par R. Ricard, "Le Maroc septentrional au XVe siècle d'après les chroniqueurs portugais", In *Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc*, Coimbre, 1955, 19.

94 - في ترجمته لمحمد بن أحمد التلمساني الأنصاري، السبتى الدار، يقول ابن الخطيب أنه كان «مؤثر للراحة نافر عن الكد... جار على سنن شيوخ الطلبة والمقتاتين من الأرزاق المقدرة...». ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 3، تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، 1975، ص 200.

95 - ناجي عبد الجبار، دراسة في تاريخ المدن العربية الإسلامية، بغداد، 1986.

- Hourani A. M. et Stern S. M., *The Islamic City*, Oxford, 1970.

- Chevallier, D., *L'Espace de la ville arabe*, Paris, 1979.

- Bouhdida A et Chevallier, D., *La ville arabe dans l'Islam*, Tunis, 1982.

96 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، ص 37.

97 - يشير التجيبي إلى «مقدم الموثقين بسبته ورنيس جماعاتهم»، برنامج التجيبي، تحقيق ع. منصور، ليبيا - تونس، 1981، ص 74.

و"المعلمين"، و"المتعلمين" في سبتة⁹⁸، كلها دلالات تشير إلى أن المدينة لم تنظم حياتها الحرفية بطريقة مختلفة عن التنظيم المعروف في المدينة الإسلامية عموماً.

2 - الإنتاج الحرفي

ليس هدفنا إعطاء جرد شامل بالأنشطة الحرفية التي قد تكون عرفتها المدينة، وإنما إبراز أهمية بعضها في حياتها الاقتصادية. ولعل أهم صناعة كانت تعرفها المدينة واستمرت مزدهرة حتى سقوطها بيد البرتغاليين، هي صناعة السفن، والصناعات النسيجية.

من المعلوم أن صناعة السفن التي تعتبر "من أصلها محتاجة إلى جزء كبير من الهندسة في جميع أصنافها"⁹⁹، كانت تتطلب بنيات معينة، يتوقف تطورها على وجود شبكة من العاملين بالميناء، من تقنيين أكفاء يشرفون على تصاميم السفن، ومراحل صنع القطع البحرية، ويد عاملة مدربة ومخصصة، وضمنان المواد التي تحتاجها السفن. من جهة أخرى، نجد أن نشاط الحركة التجارية، والأعمال، والمضاربات، والعلاقات التجارية الدولية بالمدينة، جعل ميناء المدينة يتطور بموازاة تطور دار الإنشاء.

والمواقع أن أوراش بناء السفن بالمدينة تعتبر من أقدم الأوراش المغربية على الإطلاق¹⁰⁰. وقبل فتح العرب لها، كانت المدينة هي القاعدة البحرية

98 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م.س، 37؛ أزهار الرياض، ج 1 / 44.

99 - المقدمة، 437.

100 - يؤكد كلود كاهن وجورج كولان «أن أقدم دار صناعة السفن في بلاد المغرب هي دار الصناعة بسبتة وبطنجة» "Dar al Sina' a", *Ency. De l'Islam* 2, t. 2, pp. 132 - 133.

البيزنطية الرئيسية في الحوض الغربي للبحر المتوسط¹⁰¹. ولم يكن لمؤسس الدولة الموحدية أن يستغني عن القطع البحرية التي كانت توفرها أوراش سبتة. كما أن ابنه، أبا يعقوب، كرس هذه الأهمية بتوسيعه لدار الصناعة التي ظلت مرتبطة باسمه حتى سقوط المدينة بيد البرتغال، سنة 818 هـ / 1415 م¹⁰².

وأنشأ مؤسس الدولة المرينية دار الصناعة بسبلا ليستغني عن الأسطول السبتي. لكن دار الإنشاء السلالية لم تكن تجهز إلا القليل من القطع البحرية، وظلت سبتة هي القاعدة الأساسية لصناعة السفن المغربية. وتولى الإشراف عليها وتوسيعها حكام المدينة العزفيون.

ونحن نعلم أن كل تاريخ صناعة السفن مرتبط بتاريخ الخشب، كما أوضحت ذلك منذ فترة طويلة أبحاث "موريس لومبار" ¹⁰³. ولم تفقد دار الصناعة السبتية أبداً المواد الأولية الضرورية. فخشب جبال الريف كان يُساق بسهولة، عن طريق البر والبحر، إلى سبتة من بادس وغيرها¹⁰⁴. بل إن الأنصاري يوضح لنا أنواع المواد الأولية اللازمة لبناء السفن، وتوفرها بنواحي سبتة وقراها، "من أقصى الريف شرقاً، وإلى قصر كتامة، أول بلاد الهبط غرباً"؛ وهي القرى التي كانت تتوفر على كثير من "ضروب الشجر وشعاري الأرز والبلوط والطحش والبقس وما أشبهه من مكارم الخشب

Ahrweiler A., *Byzance et la mer*, Paris, 1966, p. 11 et note 5. - 101

Mascarenhas, *Historia de la ciudad de Ceuta*, op.cit. p. 25. 158 - الحلل الموشية

103 - «في جميع الأوصاف الجغرافية للعصر الوسيط، تظهر غابة جبال الريف وكأنها مخزنا لا ينفد للخشب المستعمل في دور الإنشاء في موانئ البحر الأبيض المتوسط»

M. Lombard, *Arsenaux et bois*, 71

104 - ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، 73، مناقب أبي يعقوب البادسي، في؛ أحمد البوعياشي، حرب الريف التحريرية ومراحل النضال، ج 1، طنجة، 1974، 322.

وأنواعه، ومعادن الحديد والقار، وسوى ذلك مما يعود نفعه على الثغر، ويستعان به على الإنشاء، وما يرجع إلى الأمور الجهادية¹⁰⁵.

لقد اكتسب السبتيون تجربة كبيرة في شؤون البحر، وخبّروا الوسائل الضرورية للإنشاء والملاحة البحرية. ومن المؤكد أن النشاط الصناعي الأول للمدينة كان هو صناعة السفن. ولم تضمحل أهمية دار الإنشاء السبتية طيلة العصر الوسيط بتاتا. فالأنصاري يشير إليها كأحدى المعالم الكبيرة بالمدينة¹⁰⁶.

وارتباطا بالنجارة لا بدّ من الإشارة إلى نشاط برع فيه السبتيون، يتعلق الأمر بصناعة القسي، لا لأهميتها الاقتصادية كسلعة تجارية فحسب، وإنما لكونها كانت السلاح الأمثل للدفاع عن المدينة ووسيلة حيوية في الصراع من أجل السيطرة على مياه الزقاق¹⁰⁷. لقد وصف ابن الخطب سبّتها بأنها "دار الناشبة"¹⁰⁸، لكن الأنصاري هو الذي يقدم لنا معلومات في غاية الأهمية حول هذه الصناعة. فهو يشير إلى وجود خمس عشرة منجرة في أيامه (بداية القرن 9 هـ/15م). بعد أن كانت أربعين في فترة سابقة. وكلها معدة "لعمل القسي"، عشرون منها كانت توجد بالممرّ الأعظم، وهو الأمر الذي يؤشر على أهمية تجارتها بداخل المدينة، بينما كانت العشرون الأخرى توجد بمنازل المعلمين والصناع. فقد تخصّصت بعض العائلات السبتية في صنع القسي، كبنّي القنطري وبنّي العاقل وبنّي ابن غالب وغيرهم. ومن المؤكد أن هذه الحرفة كانت تحظى باحترام السبتيين، لأننا نجد الشرفاء والمتصوفة وبعض عليّة القوم

105 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 56 - 57 ويبدو أن معادن حديد طنجة الجيد هي التي كانت تستعمل في سفن سبّتها؛ ابن الخطيب، معيار الاختيار، 147.

106 - محمد الشريف، "الأسطول السبتي بين التجارة والحرب"، ضمن كتاب، الغرب الإسلامي : نصوص جديدة ودراسات، ط. 1، تطوان، 1996

107 - انظر مادة "رماة سبّتها"، ضمن معلمة المغرب، ج 13، ص 4431-4432

108 - ابن الخطيب، معيار الاختيار، 147.

من الذين امتهنوها. كما أن الأوصاف التي أطلقها النصاري على بعض الصناعات مثل : "الشيخ" و"الشريف" و"الوجيه" و"الحسيب" و"المتقدم" و"الفاضل"، تؤكد هذا الطابع وتلك الأهمية؛ كما يؤكد إخصاع هذه الحرفة لرقابة السلطات المحلية. فمن بين ديار الإشراف التي وُجدت بالمدينة نجد "دار الإشراف على البناء والنجارة وما يرجع إليها"¹⁰⁹.

وعرفت صناعة النسيج من جانبها تطوراً كبيراً بالمدينة، على الرغم من منافسة المنتجات المسيحية لها. فالأنصاري يشير إلى إحدى و ثلاثين تربية، "معلومة للحرارين والقرازين"، فضلاً عن التربيعات الأخرى الموجودة داخل الأسواق، وبالممرات "من أول المدينة إلى آخرها"، وأعظمها كانت "سامية في الهواء [...] على ثلاث طباق"¹¹⁰.

إن إحدى الأدلة الأخرى عن قوة هذا النشاط بالمدينة تدلّ عليه عدد المقاصر، أي أماكن دق الثياب وتبييضها. فقد كان عددها بالمدينة يصل إلى خمسة وعشرين مقصراً، منها بالميناء ستة عشر، وستة مقاصر داخل المدينة، كما كانت لأهل الأرياض ثلاثة مقاصر خاصة بهم، بل إنها انتشرت حتى في القرى السبئية. فقد كان بقية الأنصاري "مقصر كبير [...] حصاؤه كالدر نصوعاً وبريقاً". هذا بالإضافة إلى "المقاصر الغزلية" التسعة عشر.

109 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 41-42. وقد وصلتنا نماذج من النقش على الخشب توشّر على مهارة التجارين السبتيين، ومنها تلك التي يحتفظ بها في المتحف الأثري بسبئية وتعود إلى المدرسة الجديدة التي بناها السلطان بي الحسن المريني بسبئية.(انظر : Virgilio M. Enamorado, *Epigrafía y poder; Inscripciones árabes de la Madrasa al-Jadida de Ceuta*, Ceuta, 1998, pp135-173

110 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 37.

والملاحظ أن أغلب المقاصر كانت توجد تحت الأسوار والأبراج والأبواب، وقرب القالات التي تزودها بالمياه الضرورية. وقد كانت الأمتعة التي يتم قصارتها تنشر نهاراً على أسوار الأبراج، وتحط ليلاً، إلى أن يتم تسليمها لأصحابها. ولقد شجعت السلطات هذا النشاط بسببته عن طريق تخفيض الضرائب المفروضة عليه¹¹¹.

إن نسبة مهمة من الإنتاج النسيجي كانت تأتي عن طريق المغازل المنزلية. واشتهرت سببته بكونها هي المزودة للمدن المغاربية الأخرى. فقد كانت الزرابي السبتية المصنوعة من "الصوف والكتان"، وكذلك الأحزمة المطروزة، و"الكبوط" المصنوع من الكتان، تجد أسواقاً لها حتى في القارة الأوروبية¹¹². ومن بين الوثائق القطلانية المثيرة للانتباه بهذا الصدد تلك المتعلقة بصفقة تجارية لأخوين قطلانيين بلغت قيمتها 170 ليرة بعملة برشلونة تتمثل في "أقمشة مزركشة، وأقمشة كتانية مصبوغة تسمى "السبتية" *Septies*، وأقمشة كتانية أخرى بيضاء، و سلع أخرى مجموع قيمتها 800 ليرة"¹¹³، إلا أننا لم نقف على وثائق أوروبية أخرى تشير لهذا النوع من الأقمشة "السبتية"، ليتأكد لدينا قطعياً وجود صناعة نسيجية قطنية وكتانية مزدهرة بما فيه الكفاية، لتصبح مشهورة في الأسواق الأوروبية، وتحمل "ماركة" تجارية هي *Septies*.

111 - نفسه، 40.

112 - مارمول كاربخال، إفريقيا، ج 2، 215

Primaudaie, *Les villes maritimes*. op. cit., 205

Madurel y Marimon y Garcia Rivas, *Comandas comerciales barcelonesas de la baja Edad Media*, Barcelona, 1973, pp.45-46 - 113

لقد نعت ابن الخطيب المدينة بكونها "محط قوافل العصير والحريير والكتان"¹¹⁴. ومن الجدير بالذكر أنه كان يوجد سوقان لبيع الألبسة الكتانية والحريرية؛ هما سوق القطانين¹¹⁵ وسوق الكتان¹¹⁶. ويظهر أن الإنتاج السبتي من النسيج كان يعطي الأولوية للكمية أكثر من إعطائها للكيفية. فالأطرزة لم تكن تنتج أنواع الثياب الحريرية الفاخرة التي يجلبها التجار النصاري إلى المدينة. فقد أهدى "ناصر صاحب" الديوانة، إلى الناصر الموحيدي، من تحف ما يجلبه التجار النصاري لديوانة المدينة ثوبين حريريين نسجاً بأنواع الجواهر، وجعلت فيهما أعلام من اليواقيت¹¹⁷.

لم تعرف صناعة دبغ الجلود ازدهاراً بسبته، ولا تتوفر على أية إشارة للدباغين بالمدينة. ولكن نظراً لأهمية الجلود في التجارة الخارجية لمدينة الزقاق، يمكن القول أن المادة كانت تصلها مدبوغة من داخل المغرب، وخصوصاً من فاس، التي كانت تتوفر على 86 مدبغة في عصر الموحيدين. ولكن ذلك لم يمنع من تطور بعض الحرف المرتبطة بالدباغة والجلود، مثل تفسير الكتب، وصناعة الأحذية الجلدية. هذه الأخيرة نافستها صناعة القرق التي تطورت بسرعة بالمدينة، بدليل وجود سوق خاص ببيعها، هو سوق القراقين¹¹⁸.

إن سبته التي كانت مركزاً مهماً للعلم والثقافة عرفت كذلك تطوراً في الوراقة؛ التي قد تعني صناعة الورق أو بيع وشراء الكتب واستنساخها.

114 - معيار الاختيار، 146.

115 - مذاهب الحكام، 205.

116 - الإحاطة، ج/ 57؛ البادسي، المقصد الشريف، 140.

117 - التيجاني، رحلة التجاني، نشر محمد بن عبد الوهاب، تونس، 1957، 359.

118 - البادسي، 98، 148؛ التكملة، 2/ 599.

واشتهرت المدينة بورقها "السبتي" الذي كان، حسب شارل أندري جوليان، مشهوراً، مثل ورق مدينة شاطبة الأندلسية¹¹⁹. بل إن المدينة كانت تصدر هذه المادة. وقد احتفظت بعض الأرشيفات الإسبانية بوثائق مكتوبة على هذا الورق السبتي الذي صارع الزمن واحتفظ بكثير من رونقه¹²⁰. وفي بداية القرن التاسع الهجري/ 15 م، كان يوجد بالمدينة زقاق خاص بصناعة أو بيع الورق، هو "زقاق الوراق"¹²¹.

وعرفت صناعة المواد المعدنية نمواً مطرداً بالمدينة، إذ تشير النصوص إلى مهارة الصناع والعمال السبتيين في "المصنوعات النحاسية، كالشمعدانات والجفان والمحابر وغيرها، فكانت هذه الأشياء تباع كما لو كانت من فضة"¹²². ويؤكد الأنصاري أن سوق السقاطين كان "من الأسواق المعلومة لتجارة الآنية الصفرية القوية الصبغة، العجيبة الصفرة، بسببها دون غيرها"¹²³.

Julien. Ch. A., *Histoire de L'Afrique du Nord*. II. p. 122. - 119
¹²⁰ - من بين الوثائق التي كتبت على الورق السبتي نجد "معاهدة فاس" المحفوظة بأرشيف سرقسطة، وكذا مخطوط يحمل رقم Ms-18635-29 Caja N°6 Fez 1309 وهو عبارة عن رسالة من السلطان أبي الربيع إلى قاشتيلنو Castellnou، يفتخر فيها بالورق السبتي، وقد كتبت بخط قوطي جميل جداً وواضح، مما يدل على أنها نسخت بشبه الجزيرة الإيبيرية. وتوجد كذلك بالمكتبة الوطنية بمدريد ضمن محفظات "امتيازات وأوامر اشبيلية" Privilegios y Ordenanzas de Sevilla ووثائق عديدة تغطي الفترة الممتدة من سنة 1248 (تاريخ منح الملك فرناندو الثامن أول امتياز) إلى سنة 1394 (عهد الملك هنري الثالث)، ويصل مجموع هذه الوثائق إلى 130 ورقة folio كلها من "الورق السبتي" من حجم 247 x 321 وفي كل ورقة 35 سطر. وحالة هذه الوثائق جيدة على الرغم من بعض الثقوب التي أصابتها. ومما يدل على الجودته العالية للورق السبتي عدم تلاشيها رغم أن نساخ الوثائق كانوا يكتثرون من المداد في كتابتهم. انظر :

Maria Del carmen Mosquera Merino, *La señoría de Ceuta*, op. cit. pp. 473-474.

121 - بلغة الأمنية، 33.

122 - ليون الإفريقي، 317.

123 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 36.

وقد رأى الحسن الوزان بعضاً منها في إيطاليا بعد سقوط المدينة بكثير، "وكان كثير من الناس يظنون أنها من صنع دمشق"¹²⁴.

ويمكننا أن نربط مهنة الصاغة، التي تخصص اليهود فيها، بهذه الصناعات. كما أن دار سك العملة كانت من أهم دور السك المغربية، وإحدى المؤسسات الهامة بالمدينة الموجودة بالقصبة. وقد ظلت قائمة منذ القرن الخامس الهجري/ 11 م على الأقل إلى سقوط سبته سنة 818 هـ/ 1415 م¹²⁵. ومن المؤكد الآن أن إحدى فترات الازدهار الكبرى لدار السكة بسبته هي التي عرفتها خلال عصر الخليفة الموحد المرتضى (أبو حفص عمر). فقد بلغ ما أخرجته دار السكة السببية مقدار 2835 كلغ من الذهب المسكوك، ما بين مثقال ونصف المثقال وربعه، خلال المدة الممتدة ما بين سنتي 646 و 665 هـ/ 1248 - 1266 م. وهي كمية من الذهب لم تسكها مدينة في الغرب الإسلامي خلال تلك الفترة ولا بعدها¹²⁶. ومن الجدير بالذكر أن سبته كانت أكبر أسواق الذهب بالمغرب، وأن العملة الذهبية الجيدة المسكوكة بهذه المدينة كانت قد انتشرت في أوروبا، واشتهرت باسم *Ceutil*¹²⁷. إن رغبة البرتغاليين في الحصول

124 - ليون الإفريقي، 317.

125 - محمد الشريف، "مسألة سك العملة بين ابن حزم وأبي العباس أحمد العزفي"، ضمن كتاب: الغرب الإسلامي: نصوص دقينة ودراسات، م.س.

Benhain Mesmoudi R., *Approche quantitative de l'or monnayé en Occident musulman* (450/1058- 59 à 830/1426-27). Thèse de Doctorat, Paris I, 1994, pp. 598- 603

Posac Mon, C., " *El Ceitel ¿moneda de Ceuta?*", *Transfretana*, N°6, 1993, - 127

Godinho, *L'Economie*, op. cit., 177 - 178.

Posac Mon, C., *La historia de Ceuta a través de la numismática*, Ceuta, 1985.

على الذهب لا يمكن التقليل منها أو استبعادها كعنصر رئيسي في دفعهم للاستيلاء على سبته سنة 818 هـ/1415م¹²⁸.

لم تشر مصادرنا الكتابية إلى صناعة الخزف والزجاج. ولكن من خلال الشهادات الأركيولوجية، يمكننا التأكيد على أن استعمال الأواني الخزفية المبرنزة كانت منتشرة بالمدينة، وخاصة في العصر المريني. ولكننا نجهل إن كانت تصنع بالمدينة أم كانت مستوردة. ولم تختلف تقنيات الزخرفة بها عن مثيلاتها السائدة بالأندلس في نفس الفترة¹²⁹. أما بخصوص صناعة الزجاج، فتشير إليها فتوى للقاضي عياض. كما أن "رحبة الزجاج"¹³⁰ كانت مكاناً خاصاً لبيع هذه المادة وصنعها. فكثير من معالم المدينة كانت منمقة بالزجاج.

إن استخراج المرجان من بحار سبته قد خلق نشاطاً حرفياً مهماً بالمدينة منذ القرن السادس الهجري/ 12 م على الأقل. فقد كان بسبته سوق متخصص في تفصيله وحكه وصنعه خرزاً، وثقبه وتنظيمه. ومن المؤكد أن هذا النشاط قد اضمحل مع اضمحلال صيد المرجان في القرن الثامن الهجري/ 14 م.

¹²⁸ - لقد عرف القسم الجنوبي من أوربا "مجاعة نقدية" في القرن 14م لم يسبق أن عرفها من قبل، مرتبطة بأزمة الحصول على الذهب. وبسبب النقص في هذه المادة توقفت البرتغال عن سك عملة ذهبية خاصة بها منذ عام 1383م. كما أن الأزمة الطويلة التي كانت تعاني البرتغال منها قبيل حملة سبته نتيجة النقص الكبير في موارد الدولة، دفع بالملك جواو الأول إلى العبث بالعملة، وتخفيض قيمتها، لتسديد ديونه. فقد أصبحت قيمتها سنة 1409 أقل من قيمة العملة القديمة الذهبية بخمسين مرة، ونزلت إلى 700 مرة سنة 1435. وكانت فنة التجار على رأس المتضررين من هذا الانخفاض، فلا غرابة أن وجدناهم وراء اختيار سبته كأول هدف لكونها كانت آنذاك أهم أسواق التبر بالمغرب (أحمد بوشرب، المخططات البرتغالية خلال القرنين 15 و 16، ضمن كتاب: في النهضة والتراكم، ص 188، 196؛ محمد الشريف، المغرب وحروب الاسترداد، م. س. 113).

Posac Mon C., "Datos para la arqueología musulmana de Ceuta", *Hespéris-* - 129
Tamuda, 1. 1960, 162 - 163.

Fernandez Sotco. *Ceuta medieval: aportación al estudio de las cerámicas*, (s. X-XV)
Ceuta, 1988.

130 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س.، 36.

وفيما يتعلق بالصناعات الغذائية، فقد تمثلت أساساً في الطحن والخبازة وتعصير الزيتون. فالمطاحن كانت نشيطة جداً في مجتمع يشكل فيه الخبز العنصر الأساسي في الغذاء. فقد وصل عددها بالمدينة مائة وثلاث، من أعظمها طاحونة بالمسامرين كانت "ضخمة البناء، واسعة الأفنية، كثيرة المدارات"، وكانت "تحتوي على مخازن وقاعات ومساكن"¹³¹. ولم تكن المطاحن التي توجد داخل المدينة تكفي لسد حاجيات السكان، فقد كانت ثلاث وأربعون رحي طحانة أخرى بالقرى المجاورة للمدينة تعمل لصالحها.

لا تشير المصادر إلى المطاحن الهوانية. ومن الراجح أنها تواجدت على المرتفعات السبئية. وكانت بعض المطاحن لا تشغل إلا خلال الليل، لتسمح بري المزارع. وهناك من الأرحاء من كانت تتوقف عن العمل لنقص الماء، وخاصة في فصل الصيف¹³².

ولقد ارتبطت الأفران بالمطاحين. وكان عددها في فترات الازدهار السبئي ثلاثمائة وستين. كان بعضها عبارة عن مركبات ضخمة. فالفرن الذي بناه العزفي في أعلى زقاق ابن يربوع كان "متسع المساحة، كبير البيت مع حسن البناء ونظافته"¹³³. ويظهر أن البعض الآخر كان يتوفر على منشآت عدة، ويشغل يد عاملة مهمة، مثل "الكوشات"¹³⁴. وما يفسر هذه الأهمية، هو أن الخبز لم يكن ضرورياً لتموين سكان المدينة فقط، وإنما كذلك لتغذية عدد كبير من التجار والعابرين.

131 - نفسه، 42.

132 - مذاهب الحكام، 106-109.

133 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 39.

134 - الأزدي، تحفة المغترب ببلاد المغرب، م. س. 113.

ولم تغب صناعة الزيتون عن مدينة سبتة. إلا أن ضعف إنتاج هذه المادة لم يسمح بنمو هذا النشاط الحرفي. ويبدو أن حاجيات السكان من الزيوت كانت تغطيها التجارة الكبيرة¹³⁵. ومنذ القرن الخامس الهجري/ 11 م وُجد "سوق الزيت"¹³⁶ بالمدينة، كما وُجدت "طاحونة الزيتين" بها¹³⁷.

ومن المفترض أن تكون هناك صناعة السكر بالمدينة على الأقل في القرن السادس الهجري/ 12 م، إذ تشير مصادرها إلى وجود قصب السكر ببليونش¹³⁸، كما أن الاستهلاك المحلي لهذه المادة كان مهماً لاستعمالها بكثرة في الحلويات¹³⁹.

135 - خلف القبتوري، رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، 121
136 - مذاهب الحكام، 205.
137 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 37.
138 - انظر هامش 40-41
139 - يعتقد أنه يوجد بعض البقايا الأثرية لمعاصر قصب السكر يضواحي سبتة (Mosquera)
(Merino, *La señoría...*op. cit. p. 464)

ثالثا : التجارة الداخلية

1 - إطار الأنشطة التجارية

كانت الأسواق عبارة عن بنىات اقتصادية مفتوحة، من أهم خصائصها التقليدية : التخصص (في نوعية السلع المعروضة)، والتركيز الجغرافي (تجميع أصحاب السلعة الواحدة في نفس المكان). لقد كان عدد الأسواق بسببة في العصر الوسيط 174 سوقاً، منها 142 سوقاً خاصاً بالمدينة، بينما تقع البقية بالأرياض¹⁴⁰. بالإضافة إلى الأسواق، يشير الأنصاري إلى 24 ألف حانوت منتشرة بالمدينة. وكانت أكثر من ذلك قبل بداية القرن التاسع الهجري/ 15م. إن هذه الأرقام التي قد تكون فيها بعض المبالغة كانت تضم، ولا شك، الحوانيت التي كانت تتكون منها الأسواق نفسها. وتجدر الإشارة إلى أن عدداً كبيراً من هذه الحوانيت كانت من ممتلكات الأحياس¹⁴¹.

فالإضافة إلى الأسواق والحوانيت، كانت القيسرية بسببة تقدم نفس خصائص القيسريات الأندلسية خلال العصر الوسيط سواء تعلق الأمر بموقعها، أو بشكلها الهندسي، أو بتخصصها¹⁴².

وكانت توجد بسببة الإسلامية أماكن أخرى للنشاط التجاري. إنها "التربيعات" و"الرحيبات"، و"الفنادق"؛ بالإضافة إلى "الديوانة" التي سنتناول نشاطها لاحقاً. فالتربيعات كانت عبارة عن أسواق صغيرة مربعة الشكل، تجمع بين خصائص الأسواق وخصائص الأزقة العمومية. لكن إحدى التربيعات السببية كانت ضخمة

140 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س.، 36.

141 - نفسه، وانظر كذلك، مسائل أبي الوليد بن رشد، 215.

142 - حول هذه الخصائص، انظر:

Torres Balbas, "Al Caicerias", *Al Andalous*, XIV, 1949.

البناية "سامية في الهواء [...] على ثلاث أطباق وفي صحنها مسجد". وقد كان عدد التربيعة المخصصة للحرارين والقزازين، دون غيرهم، 31 تربيعة¹⁴³. أما الرحبات فيظهر أنها كانت مخصصة لبيع وشراء الحبوب. إن "الرحبة العظمى" كانت توجد بقرب فنادق تجار النصارى. ويشير عبد الحق البادسي إلى "رحبة الخطاب" التي كانت تقع بالميناء. وهناك رحبة ثالثة لم نستطع تحديد موقعها كانت تسمى "رحبة الوزان"¹⁴⁴. بينما كانت "رحبة الزجاج" تقع داخل القسبة.

أما الفنادق التي وصل عددها إلى 360 فندقاً، فقد لعبت دوراً اقتصادياً أساسياً في المدينة. ونعرف بعضها، كفندق أحمد بن إبراهيم الزيات الذي كان يوجد غرب مقبرة السوق، ويعد أقدم فندق تشير إليه مصادرنا¹⁴⁵؛ وفندق غانم الذي كان معداً لسكنى الناس من التجار وغيرهم، وفندق الوهراني، وفنادق التجار النصارى، فضلاً عن الفندق الكبير الذي كان "أعظمها بناء، وأوسعها ساحة"، وكان معداً لتخزين الحبوب¹⁴⁶.

قد تكون الأرقام التي يقدمها الأنصاري لا تخلو من مبالغة، وأن المؤلف كان يريد إظهار عظمة المدينة ليبرز مقدار خسارة المغاربة لها. إلا أن الازدهار التجاري الذي يعكسه لا يمكن الشك فيه. لم تكن سبتة عاصمة سياسية موحدة أو مرينية، ولكنها كانت عاصمة تجارية للمغرب في العصر الوسيط. إنها الميناء الرئيسي على الواجهة المتوسطية، والمركز النشط للصناعة التقليدية، والسوق المتوسطية الهامة.

143 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 37.

144 - البادسي، 140، *Saints du Rif*.

145 - مذاهب الحكام، 194.

146 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 38 - 39؛ الذيل والتكملة، ج 416/8 (استعمال الفنادق لسجن الأسرى).

ليست لدينا أية إشارة حول الأسواق الأسبوعية أو الموسمية بنواحي سبتة القريبة، حيث يمكن أن يلتقي الفلاحون بمنتجاتهم الفلاحية، والصناع بموادهم المصنعة. ويصعب افتراض أن "سوق الكسابين"، بجانب باب البقر، كان سوقاً أسبوعياً يتردد عليه الكسابون لبيع ماشيتهم. لكن من الراجح أن سكان بليونش كانوا يأتون يوماً إلى سبتة لبيع منتجاتهم الفلاحية المختلفة، الشيء الذي غابت معه ضرورة خلق سوق أسبوعي.

لم تنفلت أسواق سبتة، كمثيلاتها من الحواضر المغربية الأخرى من مراقبة المحتسب. ورغم عدم توفرها على كتب حسبة سبتية موجهة للمحتسب المحلي، فإن وظيفة الحسبة كانت تطبق بهذه المدينة كما كان الأمر في المدن الأندلسية والمغربية الأخرى. ويمكن افتراض أن الصورة التي تقدمها رسائل الحسبة الأندلسية كانت صالحة للمحتسب السبتي، خصوصاً وأن بعض هذه الرسائل تحيل على محتسب سبتة فيما يخص بعض الميادين، كشؤون السفن وآلاتها، مثل الحبال والمسامير¹⁴⁷.

2 - تقنيات التبادل التجاري

بصفة عامة، كانت المبادلات التجارية تتم نقداً، أي بنقود ذهبية وفضية أساساً. لكن التبادل العيني لم يكن غائباً، وفي بعض الأحيان كان يصبح لازماً. وكان الاقراض ممارسة منتشرة بكثرة، وغالباً ما يصحبه تحرير عقود. وفي حالة التشكي كان يطلب تقديم شهادة الدين. وكان المدينون يقدمون شيئاً ما رهينة، وفي بعض الأحيان يرهن حتى المنزل¹⁴⁸. كما نجد مديناً يوفي بدينه على دفعات. وهذه الطريقة لم

147 - أبو عبد الله محمد السقطي، رسالة في آداب الحسبة، نشر ليفي بروفنسال وكولان، باريس، 1931، 71.

148 - مسائل أبي الوليد بن رشد، 1، 102.

يجزها الفقهاء إلا إذا أخذت بعين الاعتبار ثمن الصرف الجاري، لتفادي الربا. لكن تجدر الإشارة إلى أن بعض الفقهاء كانوا من ممارسي الربا بطرق ملتوية¹⁴⁹.

ولعب الوسطاء دوراً كبيراً في التجارة السبئية. ففي الأسواق كان يلتقي التجار أصحاب البضائع والفلاحون وجمهور الناس. لكن نجد كذلك شخصية تلتقي عندها الأنظار، وهي السمسار، أي الوسيط بين الباعة والمشتريين. في أغلب الأحيان يكون السمسار مجرد براح ينادي على السلع في الأسواق، معلناً أثمانها، أو مشرفاً على عملية المزايدة في ثمن سلعة معينة، تركها له أحد البائعين. إن العدد الكبير من الفتاوى المتعلقة بالسمسار تدل على أهميته من جهة، وعلى تعقيد وظيفته من جهة أخرى. إن أجرته غالباً ما كانت موضوع خلاف. ولا شيء يمكن أن يرشدنا إلى مقدارها. لقد كان للسمسار حانوته (أو إدارته) الخاصة، حيث يعرض خدماته على جميع الناس¹⁵⁰. إن مسؤوليته كانت موضوع خلاف ومشاحنات يومية بسبب ضياع السلعة، أو إتلافها، وبسبب السرقة، وجميع أشكال الغش. ففي هذا الميدان نجد الفقه لا يُحمّل المسؤولية للسمسار، بشرط أن يكون سمساراً مأموناً معلوماً بالثقة، وليس عبارة عن سمسار لحظة معينة، أو سمسار يبيع سلعته الشخصية. وبصفة عامة كان السمسار الحقيقي يعتبر كأجير مؤتمن، ولا يتحمل مسؤولية ضياع السلع وإتلافها إلا إذا ثبت أنه تهاون في مسؤوليته. وفي سبئية لم تكن الأمور كذلك، إذ كان على السماسرة أن يقدموا ضامناً لهم، يكون هو المسؤول في حالة تلف أو ضياع السلعة. ولقد برر محمد بن القاضي عياض هذا التشدد بكون السماسرة قد "كثروا، وقل المؤتمن فيهم"¹⁵¹.

149 - لدينا فتوى حول عقد بيع وشراء يحتمل الربا بين بائع «من أهل العلم والفقه وهو كان عاقد العقد، والمشتري رجل أمي لا يقرأ ولا يعلم ما عقد عليه»، مذاهب الحكام، 255.

150 - مذاهب الحكام، 162 - 169.

151 - نفسه، 164.

3 - أنظمة الوزن والكيل

إن وحدات الوزن (الرطل، الأوقية، القنطار، الربع، المتقال...)، والكيل (المد، القفيز، القدح، الصفحة، الوسق...)، هي وحدات يحددها العرف، وتختلف من مكان لآخر، وتتباين حسب طبيعة السلعة الموزونة أو المكيلة. بل إنها تختلف من حرفة إلى أخرى. وبسبب اختلافها من مدينة إلى أخرى، فإنه من الصعب إعطاء تدقيقات إحصائية حول قيمة هذه الأدوات خلال فترة معينة. ولم تستطع السلطات توحيد هذه الأنظمة، رغم محاولاتها المتكررة، وخاصة على عهد المرينيين¹⁵².

لقد امتاز القفيز السبتي بالضخامة حيث كان يساوي حوالي ثمان هكتولترات في الأسواق المتوسطية خلال القرن السابع والثامن الهجريين/ 13 - 14 م، بينما كان قفيز تونس يساوي 1.75 وقفيز بلنسية 4.1 وقفيز أراغون 8.1 وقفيز طرابلس 5.2¹⁵³.

في القرن الثامن الهجري/ 14 م وصف ابن الخطيب سبته بأنها "قوية المكيال والميزان". ولكننا لا نعرف مقارنة مع أي أنظمة وزن وكيل أخرى. إن التغلب على السلبات التي تطرحها أنظمة الوزن والكيل كانت مهمة حساسة جداً بمدينة سبته التي تتوافد عليها سلع جميع مناطق حوض البحر المتوسط. بل إن صعوبة التعامل بمختلف الأوزان والمكاييل حتمت على المشتري والبائع الاتفاق مسبقاً على النظام المستعمل في تقييم السلع. ولا نستغرب إن اشترط السبنيون في عقود بيعهم، أو صدقاتهم، أن يكون النظام المرجعي المعتمد هو نظام وزن مدينتهم وكيلها¹⁵⁴.

152 - مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول، د. د. ع، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب - الدار البيضاء عين الشق، 1988 - 89، (الفصل الثالث).

153 - Pegolotti (F. Di B.), *La pratica della mercatura*, Ed. Allan Evans, Cambridge (Mss.), 1936, p. 21.

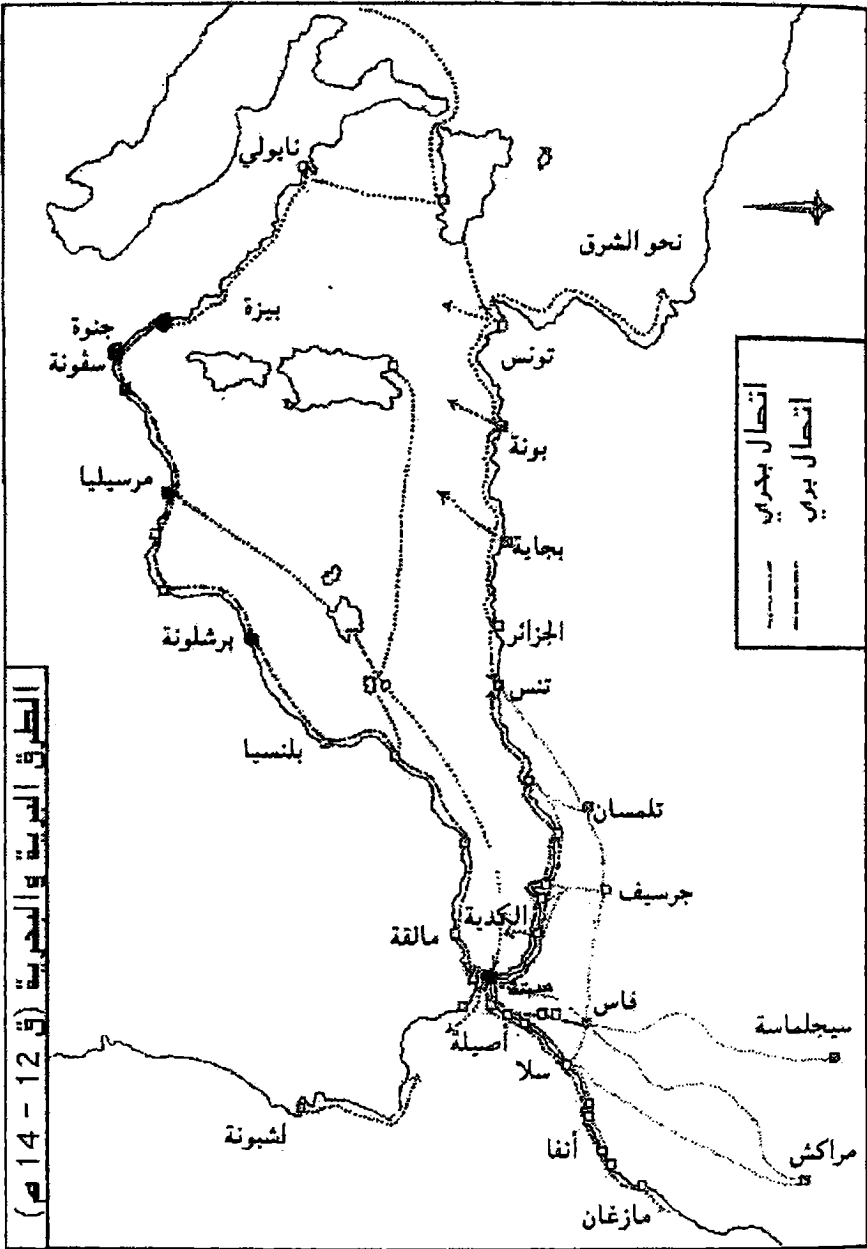
154 - مذاهب الحكام، 182.

كانت مدينة سبّته تعيش أساساً على المبادلات التجارية مع عالم حوض البحر الأبيض المتوسط، ولم يكن لها أن تستغني عن الأداة الأساسية لحياتها اليومية، أي العملة. لقد كان النقد يوجد بكثرة بالمدينة، ويستعمل على نطاق واسع في اقتصاد يقوم على المبادلات النقدية حيث أبسط العمليات التجارية كانت تتم بالنقود. فالصدقة والهبة والزكاة والكراء والأجور والهدايا كان يتم التعبير عنها بالدينار والمثقال والدرهم والقيراط... ويقدم لنا كتاب "مذاهب الحُكّام" للقاضي عياض، أمثلة عديدة حول الأهمية التي كانت للتعامل النقدي الذي طبع كل القطاعات الحياتية واليومية بسبته. وفي النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ 14م، نجد "بيغولوتي" يؤكد أن "العملات المستعملة بسبته هي الدينار الذهبي والدينار الفضي، ووحدات نقدية مصغرة أخرى، ويعادل الدينار الذهبي 12 ديناراً فضياً، ويساوي كل دينار فضي عشرة دراهم فضية"¹⁵⁵

ففي اقتصاد يقوم على التبادل النقدي، ستكون التبدلات في وزن وعتبار النقود عوائق أمام التجارة. وإذا كان بعض التجار قد تمكنوا من التغلب على هذا المشكل بتحديد قيمة الصرف، وطبيعة النقد، ومكان إصداره في عقودهم، فإن أغلبية سكان المدينة كانوا يجدون أنفسهم تائهين في سراديب الظروف التقنية للصرف، والمشاكل الناجمة عنها. وسيصبحون فريسة في يد الصيارفة الذين كانوا يعرفون، بحكم مهنتهم، نسبة الذهب إلى الفضة، ويحددون الأثمان تبعاً لذلك. في هذا الإطار بالذات يجب أن نضع تأليف أبا العباس أحمد العزفي: "إثبات ما ليس منه بُدّ لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد"¹⁵⁶.

¹⁵⁵ - مصطفى نشاط، "التجارة المغربية في العصر المريني من خلال كتاب مرشد التجار للفورنسي بيغوليتي"، ضمن كتابه: نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية في العصر الوسيط، وجدة، 2005، ص 37

¹⁵⁶ - أبو العباس أحمد العزفي السبتي، إثبات ما ليس منه بُدّ لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد، تحقيق د. محمد الشريف، المجمع العلمي أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1999



رابعاً : التجارة الخارجية

"وهي ركاب البحرين، شبه الاسكندرية في كثرة الحط والإقلاع، وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة"
ابن سعيد المغربي (ق 7هـ / 13م)

نعتقد أن الإمام بتطور الاقتصاد المغربي خلال العصر الوسيط لن يكون شاملاً إلا بالوقوف عند أحد أبرز تجلياته المتمثلة في التجارة البحرية، (أو المرفئية). وإذا كانت مجهودات الباحثين قد انكبت، ومنذ فترة طويلة، على إبراز أهمية التجارة الصحراوية (القافلية)؛ فإن التجارة البحرية لم تخصص لها لحد الآن، دراسة مستقلة، وإنما يتم التطرق لبعض معالمها في فقرات مقتضبة، متضمنة في دراسات عامة تلامس بعض مظاهر الاقتصاد المغربي الوسيط. ويبدو أن ندرة الوثائق العربية هي التي تقف وراء إجماع الباحثين العرب عن الخوض في هذا الموضوع. فجل معلوماتنا عن التجارة البحرية مستمدة أساساً من وثائق الأرشيفات الأوربية؛ وهي وثائق لاتينية بالدرجة الأولى¹⁵⁷. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الوثائق التي تزخر بها أرشيفات إيطاليا

157 - انظر مثلاً: Bautier H., "Sources pour l'histoire du commerce maritime en Méditerranée du XIIe au XIVe siècle", dans *Actes du IV Colloque International d'histoire Maritime*, Paris, 1959, pp. 137-177.

وانظر الصفحات التي خصصتها الباحثة الإسبانية مارياديل كارمين موسكيرا ميرينو لمصادر دراسة تجارة سبتة في العصر الوسيط ضمن كتابها: Maria Del carmen Mosquera Merino, *La señoría de Ceuta en el siglo XIII*, op. cit. pp. 402-409 وراجع كذلك الدراسة التفويضية الجيدة لوثنانق أرشيف جنوة التي قام بها جورج جيهال: Jehl G., *Les Génois en Méditerranée occidentale (fin XIe-début XIVe siècle)*, Paris, 1993, pp. 111-115.

ويقول نفس الباحث في مكان آخر: " ليس هناك من أرشيفات أكثر أهمية من الأرشيفات الجنوبية لقياس كثافة العلاقات الاقتصادية وطابعها المبكر مع العالم الإسلامي

وإسبانيا بصفة خاصة، تقدم للباحث في التاريخ التجاري المغاربي، مادة تاريخية غنية، تسمح له بتطبيق المقاربة الكمية والمناهج الإحصائية؛ وهو الأمر الذي لا تسمح به النصوص العربية القليلة المتناثرة في مظان مختلفة، والتي لا تتجاوز غالباً إطار الارتسامات والتقديرات الوصفية.

ومن الثابت الآن، أن العلاقات التجارية بين ضفتي حوض البحر الأبيض المتوسط لم تنقطع عبر العصور. ولم تصمد أطروحة "هنري بيران" حول انفصام الصلات بين الغرب المسيحي والعالم الإسلامي، وتفكك أوامر الوحدة التي سادت البحر المتوسط بسبب الفتح الإسلامي¹⁵⁸. فالوحدة التجارية لحوض البحر المتوسط تثبتها الأبحاث التاريخية الجادة، كتلك التي قام بها "كويتن" اعتماداً على وثائق "الجنيزة" الغنية، حيث تجلت تلك الوحدة من خلال كثير من مظاهر العادات المشتركة بين شعوب ضفتي الحوض المتوسطي، وهو الأمر الذي يستلزم موضوعياً وجود اتصالات تجارية بينهما¹⁵⁹. كما أن "كلود كاهن" ينطرق لموضوع هذه الوحدة، ويؤيدها بدعامة لسانية تفيد بوحدة مسميات البضائع، ومصطلحات البحرية والتجارة ذات الأصل العربي، والتي دخلت إلى سائر اللغات الأوروبية¹⁶⁰. وإذا سلّمنا باستمرار الوحدة التجارية

الغربي" (جورج جيهال، "جنوة وبلاد المغرب في العصر الوسيط"، مجلة كلية الآداب بنطوان، العدد 8، 1997، ص 100

158 - لقد أثارت أطروحة «هنري بيران» في وقتها نقاشات حادة بين المؤرخين. انظر مثلاً:

Perroy E. (éd), "Encore Mahomet et Charlemagne", *Revue Historique*, 1954.

Cipolla C., "Sans Mahomet Charlemagne est inconcevable", *Annales ESC*, XVII, 1962

Goitein. S. D., *Jews and Arabs: their Contacts through the Ages*, New York, - 159 Schochen, 195

Id., "The Unity of the Mediterranean World in the "Middle" Middle Ages", *Studia Islamica*, XII, 1960.

Cahen C., "Quelques problèmes concernant l'expansion économique - 160 musulmane au Haut Moyen Age" in, *les peuples musulmans dans l'histoire médiévale*, Damas, 1977. p. 347 et sq.

لحوض البحر المتوسط، فإن العلاقات التجارية المغربية الأوروبية لم تنقطع عبر العصور، لتبلغ أرقى درجات تطورها ما بين القرن السادس والسابع الهجريين/ 12- 14 م. وهذه العلاقات ستصبح محكومة بمعاهدات واتفاقيات تجارية، تعتبر نصوصها أهم مادة لدراسة موضوع العلاقات التجارية المغاربية الأوروبية خلال العصر الوسيط. وقد نشر أغلبها الباحث الفرنسي "ماس لاطري"، والمستشرق الإيطالي "ميشال أماري"، في نهاية القرن التاسع عشر¹⁶¹.

ولقد لعبت مدينة سبتة دوراً كبيراً في التجارة المتوسطية، واحتكرت نسبة كبيرة من التجارة البحرية المغربية طيلة العصر الوسيط. إذ كانت المدينة هي المنفذ الرئيسي على الواجهة البحرية المتوسطية للمغرب. وأصبح النشاط التجاري عماد المدينة الاقتصادي وشريانها الحياتي الحيوي، بل طبع هذا النشاط جميع مناحي الحياة الأخرى السياسية منها والاجتماعية والفكرية والدينية والمعمارية؛ حتى أصبح من المؤكد الآن أن تاريخ المدينة لن يُفهم دون أخذ العامل التجاري بعين الاعتبار.

1 - تقنيات التبادل التجاري

لعلّ أهم مؤشر على حيوية المعاملات التجارية التي كانت تطبع الحياة الاقتصادية بسببها باعتبارها سوقاً عالمية، هو تواجد معظم تقنيات التبادل

من بين المصطلحات البحرية والتجارية ذات الأصل العربي، نذكر مثلاً في اللغة الفرنسية؛ Amiral, drogman, douane, divan, chèque, Bazar, Arsenal, Magasin, Jarre, Gabelle, Récif... انظر كذلك، نجاه باشا، التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة، تونس، 1976، ص 112 - 121.

Mas-Latrie (L. De), *Traité de paix et de commerce concernant les relations - 161 des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-âge*, Paris, 1866.
Amari M., *Diplomi arabi del real archivio fiorentino*, Floranza, 1863.

التجاري المنتشرة في موانئ وحواضر البحر الأبيض المتوسط. فإذا كنا نعدم شهادات على استعمال السكوك والحوالات والسفاتيح، فإن المصادر الفقهية تعج بالنوازل المتعلقة بالسلف، والصرف، والوكلاء، والعقود التجارية، والشركة، والقراض، والربح، والربا، والأسواق، والمديان، والسماسة والدلائن، والجالسين... إلخ. ومن الصعب التعرض لجميع هذه العناصر في هذه الدراسة. يكفي أن نقف عند بعض تقنيات التعامل في التجارة الخارجية، لمقارنتها بتلك المستعملة في الجمهوريات التجارية الإيطالية.

أ - القراض

إن تحريم القرآن الكريم للربا دفع ببعض التجار إلى استعمال طرق ملتوية، وحيل للقرض، للانفلات من ذلك التحريم. وهذا الأمر شجع على تكوين أنواع مختلفة من الشركات، وعلى رأسها القراض الذي كان وسيلة جيدة للاستفادة من فوائد السلف، دون الوقوع في الربا.

إن القراض هو ممارسة قديمة، يقال إن الرسول (ص) زاوله، ويقترب من "الكومندا" *commanda* الأوربية في العصور الوسطى. يتعلق الأمر بعقد شركة من نوع "رأسمال - عمل"، حيث يقدم "الرأسمالي" قدرأ من المال لشخص ثالث يستعمل جهده وعمله لتوظيفه في عملية تجارية في بلد آخر، على أساس اقتسام الأرباح، حسب نسبة محددة مسبقاً (في الغالب الأعم يستفيد صاحب رأس المال من $\frac{3}{4}$ الأرباح، والثاني من $\frac{1}{4}$ المتبقي).

أصبح القراض بفضل مرونته الكبيرة، أداة جيدة بالنسبة للتجارة الخارجية، واستعمل على نطاق واسع في سبته. وتوفر على مثالين حيين زاولهما التجار السبتيون. المثال الأول يعود إلى النصف الأول من القرن

السادس الهجري/ 12 م، والثاني إلى بداية القرن الثامن الهجري/ 14 م، وهو ما يوحي باستمرارية هذه الممارسة بسبب طيلة الفترة التي تهمنا.

فحسب إحدى النوازل، هناك "قوم بينهم اشترك في سفينة"، أخذوا "ذهبا" من الناس على وجه القراض"، اشترى به قمحا، وحققوا بعد بيعه ربحا، فطالبهم أحد شركائهم الذي لم يعمل معهم بنصيبه في الأرباح، متذرعاً بأن "ذلك عرف في البلد". وقد أفتى القاضي عياض في هذه النازلة، مانعاً الغائب من أية استفادة من الأرباح المحققة، ولم يجز له سوى واجب "كراء حصته"¹⁶². المثال الثاني متعلق بمقترض سبتي سافر إلى ميورقة سنة 1300-1301 م، أو 1302 م (700-702 هـ)، وبحوزته أموال على وجه القراض من أهل مدينته¹⁶³.

على أن هناك حاجزاً لم تعرفه "الكومندا" الأوربية كان يحد نسبياً من استعمال القراض. إن المذهب المالكي لم يجز القراض عيناً. فالذهب والفضة غير المسكوكين لم يكونا مباحين في القراض. ومع ذلك يظهر أن القراض العيني كان يمارس على نطاق واسع بسببته، خصوصاً وأن الفقهاء المالكيين قد اضطروا لتلبيح ذلك التحريم. نجد هذا التلبيح عند ابن أبي زيد القيرواني عندما جعل العملية تحتوي شقين: يحصل المقرض المحتمل أولاً على السلعة التي سيتولى بيعها بعيداً نظير أجر محدد، وبعد ذلك يجوز له التصرف في المال المحصل من بيع تلك السلعة كقراض¹⁶⁴. فالعملية تقتضي أن يكون المقرض مجرد أجير حتى لحظة بيع

162 - مذاهب الحكام، 235.

Dufourcq Ch. E., "Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe Chrétienne - 163 et marine musulmane: données connues et problèmes en suspens", *Revue d'Histoire et de civilisation du Maghreb*, Tunis, 1979, t 1, p. 178.

164 - ابن أبي زيد القيرواني، الرسالة، نشر وترجمة فرنسية بقلم L. Bercher، الجزائر، 1968، ص 216 - 217.

السلعة، بعد ذلك يصبح مقرضاً حسب المعايير المتفق عليها. ونجد هذه الحيل في ممارسات كبار التجار السبتيين. فإحدى النوازل تشير إلى أن "رجلاً اشترى لنفسه ربع مائة صوف [...] ثم إن رجلاً اشترى منه نصف الصوف المذكور، وشاركه فيه، ثم قال المشتري للنصف: أنا شريك معك في ذلك، فسافر بجميعه، وبعه واشترى بالثمن قمحاً، ويكون بيني وبينك"¹⁶⁵.

والواقع أن المقرض لم يكن يسافر بشحنة سلعية واحدة، وإنما كان يستقرض من عدة تجار لزيادة فرص الربح دون مخاطر السفر، بما أن الأمر يتعلق بسفر واحد. فالنوازل تشير إلى "رجل معروف بتبضيع التجار له"¹⁶⁶. في بعض الأحيان، نجد أن التاجر المقرض المسافر يساهم بنفسه في رأس المال، ويصبح شريكاً فعلياً وليس مجرد أجير لتاجر كبير، وهو الأمر الذي يزيد في فرص أرباحه¹⁶⁷. ومن الجلي أن هذه الحالة تتشابه إلى حد كبير مع مفهوم "الشركة البحرية" التي انتشرت بالجمهوريات الإيطالية، وكانت تسمى بجنوة *Societas maris*، وبالبنديقية بـ *Collengenza*. ثم إن المقرضين لم يكونوا يتعاقدون مع شخص واحد، بل يوزعون أموالهم على مشاريع تجارية مختلفة.

ب - الشركة

إلى جانب القراض الذي لم يكن ينسج سوى علاقات مؤقتة، نجد شركات التجارة، أي "تجمع رؤوس أموال أكثر استقراراً ولمدة أطول". وسوف لن نستغرب إذا وجدنا الشركة التجارية تزدهر في سببته، المدينة البحرية والتجارية بامتياز. فقد وجد صنفان من الشركات بسببته ابتداء من القرن

165 - مذاهب الحكام، 240 - 242.

166 - مسائل أبي الوليد بن رشد، 1300؛ مذاهب الحكام، 153.

167 - مذاهب الحكام، 153.

السادس/ 12 م على الأقل : شركات حيث يسافر الشريك بجزء من المال، ويبقى الآخر في المدينة لمباشرة إدارة شؤون الشركة، ويعد كل شريك موكلاً عن الآخر. ويشبه هذا الشكل "الشركات البحرية" في إيطاليا¹⁶⁸. أما النوع الثاني فيشبه ما يسمى "شركة في كل شيء"، حيث الشركاء هم أصحاب السفينة، ويسافرون معاً مستثمرين رأس مالهم الثابت والمتحول¹⁶⁹. ويظهر أنه لم يكن هناك ما يمنع من تكوين شركات أعضاؤها ينتمون لمختلف الأوساط والمعتقدات الدينية. فهناك دلائل تؤكد وجود شركات تجارية يساهم فيها مسلمون ويهود ومسيحيون. كما أن هناك اشتراكاً في ملكية السفن بين كبار تجار سبّنة والتجار النصارى¹⁷⁰. فالعامل الديني كان يغيب أمام الحضور القوي لعنصر الربح المادي.

بعض "التجار الكبار"، ومن بينهم بعض الشخصيات العلمية والإدارية التي لم يكن بمقدورها التنقل باستمرار بسبب مهامها، كانت تجعل لها وكيلاً أو أكثر. وميدان نشاط هؤلاء لم ينحصر في مدينة سبّنة. ففي بعض الأحيان، كانوا يقومون بدور التاجر الوكيل في البلدان النائية. ولم يشمل العمليات الصغيرة وحدها، كما يلاحظ من خلال فتاوى متعددة بـ"مذاهب الحكام". نعرف مثلاً أن أبا الحسن الشاري (ت. 650 هـ / 1252 م) الذي كان على درجة كبيرة من الغنى، "لم يباشر قط ديناراً ولا درهماً، إنما كان يتصرف له في ذلك وكلاؤه

Y. Renouard, *Les hommes d'affaires italiens au Moyen- Age*, Paris, 1949, 44. - 168
Id, *Les villes d'Italie de la fin du XIe siècle au début du XIVe siècle*, Paris, 1969, II, 462.

169 - مذاهب الحكام، 235 «قوم بينهم اشتراك في سفينة فسافر أحدهم وترك السفينة بين أصحابه... وسافروا فأفاء الله عليهم بالسلامة والريح».

Ch. E. Dufourcq, "Chrétiens et musulmans durant les derniers siècles du - 170
Moyen-Age", *Anuario de Estudios Medievales* (Barcelona), X, 1980, p. 222.

واللائذون بجنابه"171. ومنهم من جعل أبناءه وكلاء عنه، كأبي عبد الله بن جوهر، الذي "كان من ذوي اليسار والجدة، متحرراً بتجارة يديرها بقيسارية سبئة [...] أبضع مع ابنه مالا جسيماً، فغرق معه"172. وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الوكلاء لعبوا دوراً كبيراً في الحياة الاقتصادية بسبئة. فبعضهم كان في خدمة تاجر واحد، ومنهم من كان يقترح خدماته على الجميع. وقد كان المشهور في سبئة حسب محمد بن القاضي عياض "في السماسرة والمأمورين والوكلاء أن لا ضمان عليهم، لأنهم أمناء وليسوا بصناع، كانوا بحوانيت أم لا". وكان القاضي عياض يقضي تبعاً للمذهب المالكي بعدم تضمين الوكلاء لما يأخذون من سلع للبيع في حالة التلف، لكن تشعب نشاطاتهم في المدينة دفع به إلى القيام بتضمين السماسرة، مخالفاً عموم الفقهاء، بذريعة أنهم "كثروا وقلّ المؤمن فيهم"173.

ج - كراء السفن

من الواضح أن قسماً كبيراً من التجارة السبئية كان بحرياً، يتم بواسطة السفن. وكان كراء السفن من الممارسات المعتادة في أوساط التجار السبئيين¹⁷⁴. وكان أصحاب المراكب الذين يريدون تحقيق أقصى ربح ممكن، عن طريق وسق أكبر قدر ممكن من السلع، لا يعبأون بمشكلة قدرة حمولة السفن، لأنهم كانوا يستفيدون من إمكانية إلقاء السلع في البحر، للتخفيف من حمولة المركب، وإنقاذه في حالة هيجان البحر، وهو ما كان يثير احتجاج التجار. وتعكس هذا الأمر مجموعة من الشواهد التاريخية والمجادلات الفقهية

171 - الذيل والتكملة، ج 201/8.

172 - نفسه، 340/6.

173 - مذاهب الحكام، 162 - 163.

174 - نفسه، 235.

النظرية المتعلقة بمسؤولية أصحاب المراكب، والقسط الذي يجب أن يؤديه لتعويض السلع الملقاة في البحر. وقد كان القاضي عياض "يذهب مدة قضائه على ما عليه الجمهور من أن المركب لا يدخل في المحاصة"، ولو ثبت على "رب المركب أنه يقتحم هول [...] البحر، ويتجاسر عليه عند عصفه"¹⁷⁵. لكن القاضي عياض رجح عن رأيه، "وذهب إلى إدخاله في المحاصة". وأخيراً سيرجع إلى "مذهبه الأول". إن هذه التذبذبات في موقف قاضي المدينة تعكس أنه إلى حدود القرن السادس/ 12 م على الأقل، كان أرباب المراكب هم المتحكمون في التجار على البحر. ويبدو أن التجار كانوا مضطرين لإشراكهم في تجارتهم لتفادي مخاطر اقتحام هول البحر بحمولة تفوق قدرة المركب. إنه التطور الذي عرفته المدن الإيطالية البحرية نفسها في هذه الفترة¹⁷⁶.

خلاصة القول، إن التقنيات التجارية المستعملة من طرف السبتيين ووسطهم البحري تذكر بأوساط رجال الأعمال بموانئ إيطاليا في كثير من مظاهرها التجارية والبحرية.

2 - التجار السبتيون في العالم

بفضل وثائق الأرشيفات الأوروبية أصبحنا نعرف كثافة النشاط التجاري لسفن الغرب المسيحي في السواحل المغربية في العصر الوسيط. فقد كانت التجارة البحرية المغربية في أساسها مبادرات مسيحية. إن ابن خلدون الذي تطرق في أحد فصول مقدمته¹⁷⁷ إلى أرباح التجارة البعيدة المدى وغنى المشتغلين بها، يشير إلى "التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان"،

175 - نفسه.

Hoover C. B., "The Sea Loan in Genoa in the twelfth Century", *The quarterly Journal of Economic XI*, 1926, pp. 495-529.

177 - المقدمة، 322 - 323.

وإلى المسافرين "من بلادنا إلى المشرق"؛ لكنه لا يشير بتاتا إلى أولئك الذين كانوا يقصدون البلدان الأوروبية. فهل يعني ذلك أن التجار المغاربة لم يكونوا يترددون على الديار المسيحية للتجارة؟ وأن السفن المغربية لم تكن تصل إلى الموانئ الإيطالية والقطلانية وغيرها؟ إنه السؤال/ الإشكالية الذي طرحه "شارل إيمانويل دوفورك"¹⁷⁸، أحد أكبر المتخصصين في تاريخ العلاقات القطلانية- المغربية في العصر الوسيط، وما يزال مطروحا. إن غياب الوثائق المغربية يعتبر خسارة جسيمة. فالمصادر المعتمدة في كتابة التاريخ المغربي، على الرغم من تعدد أشكالها وأصنافها، لا يمكن أن تعوض الأرشيفات الضائعة في ما يخص البحث في التاريخ الاقتصادي بصفة عامة، والتاريخ التجاري بصفة خاصة.

من جهة أخرى نعلم أنه لم يكن يوجد أي أثر لمؤسسات مغربية بالموانئ المسيحية، كما كان الشأن بالنسبة للتجار المسيحيين الذين كانوا يتوفرون على مؤسسات ترفع مصالحهم ببلاد المغرب، وعلى رأسها الفندق والقنصلية، الشهيرين في التاريخ التجاري المغربي- الأوربي خلال العصر الوسيط. فقد كانت السفريات التجارية المغربية لبلاد النصارى عبارة عن مبادرات شخصية. ولئن كانت كل الاتفاقيات المغربية- الأوروبية تنص على "المعاملة بالمثل فيما يخص الحماية والمعاملة الواجبة تجاه الرعايا التجار"¹⁷⁹، فإن السلطات المغربية لم تتدخل إلا نادراً بطريقة ملموسة لتسهيل هذه المبادرات أو لترسيمها.

Dufourcq, "Commerce du Maghreb" op. cit., 178. - 178

Mas-Latrie, *Relations*, 114. - 179

ومن الخطأ أن ننفي عن السلطات المغربية كل دور في هذا الميدان، كما يفعل "دوفورك". فنحن نعلم مثلاً أن بعض الاتفاقيات المغربية الأوروبية طرحت مشكلة تنقل المغاربة في البلدان المسيحية. فاتفاقية الصلح المبرمة سنة 684 هـ/1285 م بين قشتالة والمرينيين كان من بين شروطها التزام القشتاليين بضمان حرية تنقل المغاربة، وإعفائهم من ضرائب التجارة¹⁸⁰. وتشير الوثائق الإيطالية إلى سفارة مغربية كانت بميورقة سنة 1346 م، وقدمت من جنوة، برئاسة محمد الحزيري، يصحبه مترجم اسمه العباس، وأربعة أشخاص آخرين هم: علي (أو العلي) اسماي، ومرزوق بن عمر، عبد الله بن سالم، ومحمد بن عامر¹⁸¹. ومن المؤكد أن سفارات مغربية أخرى قد أرسلت إلى الجمهوريات الإيطالية خلال القرن السابع والثامن / 13 و 14 م.

ومع ذلك يجب الإشارة إلى الحرَج الذي كانت تسببه المعاملة التجارية مع النصارى. فبعض الفقهاء أفتوا بعدم جواز المتاجرة معهم، لأن ذلك سيساعدهم على تقوية قدراتهم، ومحاربة المسلمين¹⁸². هذه الممنوعات قد أعاقت التجارة السبئية، وإن كان يتم تخطيها والتحايل حولها بفضل مرونة التجار، وقدرتهم على لي الحظر الديني المفروض على ممارسة التجارة مع الكفار. مثلاً عن طريق شراء حصص في السفن المسيحية، أو الاشتراك في

180 - روض القرطاس، 359.

Jehel G., *Les Génois en Méditerranée*. 214. Dufourcq, "Aperçu sur le - 181 commerce entre Gênes et le Maghreb au XIIIe siècle", *Economies et Sociétés au Moyen-Age, Mélanges Edouard Perroy*, Paris, 1973, pp. 729-730. وهناك من الباحثين من "يرجح" تارة أن تكون السفارة زيانية (انظر قراءة ذ. مصطفى نشاط لكتاب سبئية الإسلامية، مجلة تاريخ المغرب، العدد 9، 1999، ص 43) وتارة أخرى أن تكون سفارة مرينية (نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية، م. س.، ص 132-133). ومهما كانت هوية السفارة، فإنها تؤشر على وجود مبادرات للسلطات "المركزية" المغربية لحفظ مصالح رعاياها المتعاملين تجارياً مع الشمالية للبحر المتوسط.

H. R. Idris, "Commerce maritime", ... , op. cit. 229. - 182

التجارة مع المسيحيين. فقد كان ابن خلاص، حاكم سبتة، شريكاً لتجار مدينة مرسيلىا¹⁸³. في سنة 702هـ/ 1302 م كان أبو طالب العزفي، أمير سبتة، يملك ربع سفينة قطلانية¹⁸⁴. كما أن السلاطين المغاربة أنفسهم استثمروا في التجارة المسيحية، كما هو الشأن بالنسبة لأبي عنان المريني، الذي كان شريكاً لأحد التجار الميورقيين¹⁸⁵. أما السفن التي كانت في ملكية التجار السبتيين، فقد كانت قادرة على التعاطي بنفسها للتجارة البعيدة. وتقنيات التجارة البحرية كانت متشابهة على العموم في العالمين المسيحي والإسلامي. وكمثلتها من السفن المسيحية، كان للسفن السبتية شركاء، أنشطتهم متعددة، ولا تتوقف. ولم يقتصر إبحارهم بين سبتة والأندلس وعلى الساحل الأطلسي فحسب، وإنما على امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط، بين سبتة والإسكندرية¹⁸⁶. ونعرف النشاط الذي كان يتمتع به الأسطول الحربي السبتي¹⁸⁷. ولا داعي للتذكير أنه لم يكن يوجد في هذه الفترة فرق بين الأسطول الحربي والأسطول التجاري.

نعقد أنه لا يجب مسايرة "برونشفيك" عندما يرد أسباب ضعف ارتياد السفن المغاربية للبلدان الأوربية، خلال العصر الوسيط إلى نقص في المقدرة البحرية الإسلامية، الراجع إلى "عامل الركود الاقتصادي، مضافاً إلى تقنية

Cherif. M., *Ceuta*, op. cit.. - 183

Dufourcq, *L'Espagne catalane*, 168, 357 ; Dufourcq, "*Chrétien et musulmans - 184*
durant les derniers siècles du Moyen-Age", op. cit., 223.

185 - نفسه، 223

Dufourcq, *L'Espagne catalane*, 57 et note 8. 171,357. Dufourcq, "*Commerce du Maghreb*", op. cit. 168.

186 - الأزموري، بهجة الناظرين، م. س.، ورقة 97 (وسق مركب كبير بسبتة العزفية مدة أيام- نحو الشهر- للإبحار نحو الإسكندرية)

Dufourcq, *L'Espagne catalane*, 57 et note 8. 171,357. Dufourcq, "*Commerce du Maghreb*", op. cit. 168.

187 - انظر : محمد الشريف، "الأسطول السبتي ودوره في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط"، ضمن كتاب : الغرب الإسلامي : نصوص دقينة ودراسات، م. س. ص 145- 161

متخلفة¹⁸⁸. إن هذا الحكم لا يمكن أن يكون مطلقاً. فأسطول سبته لم تكن تنقصه لا الحيوية ولا الوسائل التقنية، على الأقل بين القرن السادس والثامن الهجري/ 12- 14 م. وتقنياته لم تكن متخلفة بالنسبة للسفن المسيحية، كما يدل على ذلك نشاط عمليات القرصنة المتبادلة بين ضفتي حوض البحر المتوسط. وإن كان هناك ركود تقني، فإنه يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ 14 م. من جهة أخرى من المفروض أن السبتيين الذين كانوا دائماً على اتصال تجاري وثيق مع مجموع عالم حوض المتوسط، لا يمكن إلا أن يكونوا تجاراً دوليين. ففي الصين التقى ابن بطوطة بتاجر سبتي (هو قوام الدين السبتي)¹⁸⁹ قادم من دلهي صحبة خاله. وسيلتقي أيضاً بأخ لنفس التاجر في سجلماسة¹⁹⁰. هؤلاء التجار لم يحد من نشاطهم أي "ركود اقتصادي"، أو إهمال محتمل لأسطولهم التجاري. كما لا يمكننا مجازاة "دوفورك" وغيره ممن يفسرون ذلك بوجود "كابح روحي" *Frein spirituel* تعكسه بعض الكتب الفقهية، وعلى رأسها كتب النوازل، حيث نجد فتاوى لبعض الفقهاء تحرم التعامل التجاري مع دار الكفر. فقد رأينا كيف تفنن كبار التجار السبتيين في الالتفاف ببراعة حول المحظورات الدينية.

ومع ذلك فقسم كبير من التجارة السبتيية كان يتم بمبادرة التجار المسيحيين. والتجارة الخارجية التي كان يقوم بها السبتيون تبقى مجهولة لدينا في كليتها، ولا نستطيع أن نقدم سوى أمثلة محدودة، مستمدة من وثائق الأرشيات الأوربية عن الأنشطة التجارية السبتيية في بلاد النصارى. ففي سنة 618 هـ/ 1222 م سافر التاجر السبتي محمد بن المعلم إلى مدينة جنوة على

188 - Brunschvig R., *La Berbérie*, II, 97.

189 - يقول عنه ابن بطوطة أنه "عظم شأنه، واكتسب الأموال الطائلة" (رحلة ابن بطوطة، 637)

190 - رحلة ابن بطوطة، 637، 673.

ظهر سفينة جنوية، حاملاً معه عدة سلع من بينها : 105 قنطاراً من النحاس، وسبعة قناطر من القزدير، وستة قناطر من السكر...¹⁹¹. وفي سنة 1300 م- 1301 م أو 1302 م (700-702 هـ) نجد تاجراً سبتياً آخر يتجه إلى ميورقة على ظهر سفينة ميورقية، وبحوزته سلع مهمة، كلفه ببيعها سكان مدينته¹⁹²، كما أن طبيعة الأشياء التي تم جردها في عقد مؤرخ بسنة 1271م (669هـ) بعد وفاة أحد المغاربة بجنوة يدعى عزيز (Acigio)، والتي كان من بينها كثير من السلع، والأدوات النحاسية، وميزانين، واثنى عشر وزناً من الحديد، توحى أنه كان من التجار، ويتملك حانوتاً بجنوة. وفي نفس السنة (1302 م) نجد السلطات السبتية تحجز تاجراً ميورقياً كرد فعل على حجز تاجر سبتي بميورقة.

والواقع أن تواجد التجار السبتيين في الموانئ المسيحية كان من دون شك أكثر كثافة مما توحى به الوثائق المتوفرة حالياً. إن حقيقة التواجد المغاربي في الموانئ المسيحية الذي ارتبط بالأنشطة التجارية وأهميته، سيتقوى إذا أخذنا بعين الاعتبار الأهمية التي أولتها الجمهوريات الإيطالية للغة العربية، الضرورية في تعاملها التجاري مع بلدان المغرب. فقد وردت الإشارة إلى أستاذ للغة العربية *magister de lettris saracenis* مرتبط بالجمهورية الجنوبية

Dufourcq, "Commerce du Maghreb", op. cit., 177. - 191
Idem, "Aperçu sur le commerce entre Gênes et le Maghreb au XIIIe siècle",
Mélanges E. Perroy, Papis, 1973, pp. 729-733.
192 - نفسه. Dufourcq, *L'Espagne catalane*, 357.
Dufourcq, "Aspects internationaux de Majorque durant les derniers siècles du
Moyen-Age", *Nayurqa*, IX, 1949, p. 36.

سنة 665 هـ / 1267 م، كما أن هناك أدلة على حضور موظفين مغاربة بجنوة،
يزاولون مهمة الترجمة¹⁹³.

3 - سبته والتجارة مع العالم الخارجي

لعل إحدى مميزات الفترة الموحدية التي طبعت بعمق اقتصاد المغرب
تكمن في استقرار التجار المسيحيين في بعض نقط الساحل الإفريقي، حيث
أنشئوا مراكز ثابتة لهم. ومنذ منتصف القرن السادس / 12 م، أصبحت مدينة
سبته إحدى المحطات الرئيسية الأكثر ارتياداً من طرف الأوربيين، خاصة
الإيطاليين منهم.

أ - مع المدن الإيطالية : جمهورية جنوة¹⁹⁴

لقد كانت بيزة *Pise* أول المدن الإيطالية التي عقدت معاهدة تجارية مع
المرابطين (ابتداء من 1133 م¹⁹⁵)، وأصبح تجارها يترددون بانتظام على
سبته، رغم الصعوبات التي كانت لهم مع الخليفة الموحي، عبد المؤمن بن
علي. كما أن المعاهدة التجارية التي عقدتها جمهورية بيزة مع المنصور
الموحي سنة 581 هـ / 1186 م، لمدة عشرين سنة، تنص على أن الميناء
المغربي الوحيد المفتوح في وجه تجار بيزة هو ميناء سبته بالذات. ولا نعرف
إن كانت الاتفاقيات اللاحقة، وخاصة اتفاقية سنة 608 هـ / 1211 م، قد غيرت
من شروط معاهدة 1186 م. لكن من المؤكد أن دور تجارة بيزة في سبته،

Jehel G., "Gênes et le Maghreb au Moyen-age", *Studi Maghrebini*, (Napoli), - 193
vol. XXII, 1990, p. 84.

وقد نقلنا هذه الدراسة إلى اللغة العربية، وأصدرناها بمجلة كلية الآداب بتطوان (العدد 8،
1997، ص 97-126) تحت عنوان : "جنوة وبلاد المغرب في العصر الوسيط"

194 - انظر : Cherif M., "Notes sur les activités commerciales de Gênes à Ceuta aux :
XIIe et XIIIe siècles", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, VI, 1993, pp. 33-34
Mas-Latrie, *Introduction...* op. cit., 36. - 195

وغيرها من مناطق المغرب الكبير، قد عرفت فتورا، ليس فقط بسبب المنافسة الجنوبية والقطلانية، وإنما بسبب ضعف الجمهورية البيزية في القرن السابع/ 13 م، وخاصة بعد هزيمتها في معركة "ملوريا"، سنة 682 هـ/ 1284¹⁹⁶. ومع ذلك، يظهر أن العلاقات التجارية مع بيزة لم تتوقف كلياً. فمعاهدة السلم لسنة 759 هـ/ 1358 بين المغرب المريني وجمهورية بيزة¹⁹⁷ كانت لها بالتأكيد نتائج مشجعة للتجارة بين المدينتين، وعلى الأقل بواسطة مدينة فلورنسة.

كما أن مدينة سفونة *Savone* كانت تربطها علاقات تجارية منتظمة مع سبته، وخاصة في الثلث الأول من القرن السابع/ 13 م، كما تظهر ذلك بوضوح الوثائق العدلية للمدينة الإيطالية. ولكن هذه التجارة اضمحلت بعد ذلك بصفة شبه كلية لفائدة مدينة جنوة *Genes* التي ستلعب دور الوسيط في التجارة مع المغرب¹⁹⁸. أما تجار صقلية فإنهم ترددوا بدورهم على ميناء سبته. ولا تتوفر على معلومات دقيقة عن نشاطهم بالمدينة حتى القرن السابع/ 13.

أما بخصوص جمهورية البندقية، فمن المعلوم أنها قد طمحت دائما إلى مزاحمة منافستها جنوة بكل الفضاءات التجارية المتوسطية، بما في ذلك سبته. وبهذا الصدد يرى باحث مختص أن "الحوليات البندقية *Annali Veneziani* ودراسة شوب *Schaube* والقانون البحري لكمونة البندقية تؤكد أهمية الحضور التجاري للبنادقة بكل بلاد المغرب من طرابلس إلى سبته، خلال القرنين 13 و 14 م. فقد شكلت سبته آنذاك آخر نقطة وصلت إليها كثير من الرحلات

Renouard Y., *Les villes d'Italie*, op. cit., pp. 222-223. - 196

Mars-Latrie, *Traité...* op. cit., 66-69. - 197

Bautier. R. M., "Les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du - 198

Nord et l'équilibre méditerranéen du XIIe au XIVe siècle", *Bulletin philologique et historique*, 1953-1954, pp. 408-410.

التجارية للبندقية ببلاد المغرب"، ويشير إلى وجود "وثيقة محفوظة بأرشفيف البندقية تتحدث عن محاولة قام بها البنادقة لانتراع معاهدة سلم وتجارة من أبي عنان، كما تتحدث عن رغبة البنادقة في الحصول على نفس الامتيازات التي كانت للبيزيين والجنوبيين والقطلانيين بالمغرب الميريني"، ليخلص إلى أن "هذه القرائن تدل على أن بلاد المغرب - بما فيها سبتة باعتبارها ميناء هاماً- لم تكن لتتفقت من اهتمامات البنادقة الذين ظلوا دائماً يراقبون عن قرب أنشطة منافسيهم، وخاصة الجنوبيين في القرنين 13 و14م".¹⁹⁹ وكما هو واضح، يتعلق الأمر بـ"رغبات" و"محاولات" للجمهورية البندقية، لا ندرى إن كانت قد تحققت على أرض الواقع التجاري، فالوثائق ذات الارتباط المباشر بالتجارة، وبالعمليات التجارية (عقود الموثقين البنادقة الخاصة بعمليات الشراء، وبكراء سفن، وبالسلفات، وبالقراض...إلخ)، لا تشير إلى نشاط هام للبندقية في هذا الجزء من المغرب. فالجمهورية كانت- على ما يبدو- أكثر اهتماماً بالتجارة مع المشرق، بحكم موقعها على البحر الأدرياتيكي، وبفضل مستعمراتها المتعددة على الواجهة الشرقية للبحر المتوسط، بينما كانت إفريقية هي التي تجلب اهتمام البندقية، الأمر الذي ترسخ بصفة جلية في القرن التاسع/ 15 م، عندما أنشأت الجمهورية الإيطالية " قافلة البربر " رسمياً²⁰⁰.

كانت لجمهورية جنوة الأسبقية منذ بداية حياتها التجارية على البندقية فيما يخص التجارة مع السواحل المغاربية، ليس فقط بفضل موقعها الجغرافي القريب من إفريقيا، وإنما كذلك لأن جزيرة كورسيكا وسردينيا كانتا بمثابة

199- انظر عرض مصطفى نشاط حول كتاب "سبتة الإسلامية : دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" (الطبعة الأولى)، منشور في مجلة تاريخ المغرب، العدد 9، 1999، ص 40- 41

Doumerc B., "La crise structurelle de la marine vénitienne au XVe siècle. Le problème du retard des *mude*", *Annales ESC* .3, Mai-juin, 1985, pp. 605-623.

محطات ومخازن بالنسبة لتجارتها²⁰¹. وإذا كان البيزيون هم الإيطاليون الأوائل الذين عقدوا المعاهدات التجارية مع المغاربة، فإنه من المؤكد أن الجنوبيين قد حصلوا، في نفس الفترة تقريباً، على امتيازات ومراكز تجارية في بلاد المغرب، حتى أنه في أواخر القرن السادس/ 12 م أصبح الجنويون سادة التجارة مع سبتة بدون منازع. ولقد كانت الاهتمامات التجارية الجنوبية تغلب على طموحاتهم السياسية ببلاد المغرب، عكس الأرغونيين أو القشتاليين الذين ربطوا العلاقات التجارية بالعمل العسكري في أغلب الأحيان.

ففي النصف الأول من القرن السادس/ 12 م، عقدت جمهورية جنوة معاهدة سلام مع المرابطين²⁰². إلا أن علاقتهم التجارية مع المغرب عرفت ازدهاراً كبيراً مع الموحدين، وذلك على حساب منافسيهم البيزيين. فابتداءً من 548-547 هـ/ 1153 م أو 1154 م، ستعقد جمهورية جنوة معاهدة مع الخليفة عبد المؤمن الموحي. وفي سنة 555هـ/ 1161 م أبرم سفيرها Otto Bono de Alberici معاهدة تجارية مع نفس الخليفة الموحي لمدة 15 سنة، وبعد ذلك أتى وفد جنوي لسبتة سنة 564 هـ/ 1169 م، وسنة 565 هـ/ 1270 م على التوالي لتأكيد الاتفاقيات المبرمة سابقاً بين المغرب والجمهورية الجنوبية، وخاصة اتفاقية 555هـ/ 1161 م. وتم تجديد الاتفاقية بدون شك سنة 571هـ/ 1176 م، لمدة 15 سنة أخرى مع الخليفة يعقوب المنصور، عقب زيارة سفيرين من جمهورية جنوة للمغرب سنة 586هـ/ 1191 م، وهما Wiliam Zibinus و Obertus .de Nigro

Mascarello, A, "Quelques aspects des activités italiennes dans le Maghreb - 201 médiéval", *Revue d'Histoire et de la Civilisation du Maghreb*, Alger, V, 1968, p. 66.
Posac Mon C., "Relaciones entre Genova y Ceuta durante el siglo XII", *Tetuan*. VI. 1958, pp. 163-164.

Cherif M., "Notes sur les activités..." op. cit. 34. - 202

بفضل هذه الاتفاقيات أعطيت الضمانات لتجار جنوة للقدوم والاتجار على الأرض المغربية وفي البحر. ولتشجيعهم أكثر، تم تخفيض حقوق الديوانة بالنسبة لهم من 10% إلى 8% فقط بجميع موانئ المغرب، باستثناء ميناء مدينة بجاية.

وبفضل هذه الاتفاقيات والامتيازات الممنوحة لتجار جنوة، سرعان ما عرفت التجارة الجنوبية توسعاً كبيراً في مجمل المغرب، وبصفة خاصة بسببته. فنحن نتوفر على مجموعة من الوثائق الأصلية ذات الصلة بالعلاقات التجارية لجنوة مع المغرب الكبير. ولقد درس هذه الوثائق الباحث الأمريكي Krueger ، واستخلص محتوياتها، وأعطانا أرقاماً متعلقة بكثافة العمليات التجارية بالنسبة للسنوات المحصورة بين 1155 و 1200 م²⁰³. من جانبنا سننطلق من هذه الأرقام، ولكن عبر تأويلها وتقديمها بطريقة مختلفة.

فسجل المؤرخ الإيطالي "جيوفاني سكريبا"، المصدر الوحيد بالنسبة لسنوات 115-1164 م، لا يتضمن أي عقد تجاري مع أي ميناء غرب بجاية. ومن سنة 559 إلى 563 هـ/1155-1159، كانت العقود التجارية محصورة في بجاية وتونس وطرابلس، وأرقام تجارية ضعيفة.

بجاية	تونس	طرابلس	1155-1159
563 ليرة	240 ليرة	72 ليرة	

لنذكر أنه خلال هذه السنوات كانت الحروب المرابطية الموحدية قائمة داخل بلاد المغرب، ومصير سببته ما يزال يتأرجح بين الدولتين المتحاربتين؛ الأمر الذي

Krueger H. C., "Genoese Trade with Northwest Africa in the Twelfth - 203 Century", *Speculum*, VIII, 1933, pp. 377-395.

وانظر كذلك :

Krueger H. C., "The Wares of Exchange in the Genoese African Traffic of the Twelfth Century", *Speculum*, VII, 1932, pp. 57-71.

كان يحدّ من إمكانية التجارة في هذه المنطقة. أما الفترة الخماسية التي عرفت توطيد السلطة الموحدية، فإنها تميزت ببروز مدينتي سبتة وسلا، وتحقيقهما لأرقام هامة في المعاملات التجارية، بينما نلاحظ انتعاشاً موازياً لموانئ إفريقية.

سبتة	بجاية	سلا	تونس	قابس	طرابلس	-1164 1166م
1683	1166	390	353	88	70	
ليرة	ليرة	ليرة	ليرة	ليرة	ليرة	

لقد وردت سلا في خمسة عقود تجارية. العقد الأول في سنة 557 هـ / 1162 م، وهو راجع بالضبط إلى السفير "أوطبونو"، الذي كان قد وقع سنة قبل ذلك معاهدة سلم وتجارة باسم الجمهورية الجنوبية. أما العقود الأربعة الأخرى فتعود لسنة 558 هـ / 1163 م، السنة التي أرسلت فيها جنوة سفيرها Guglielmo Cibo إلى سبتة. ولكن يجب أن نتحفظ من إقرار بعض الباحثين الذين فسروا هذه الأهمية لمدينة سلا بكونها كانت "محطة مختارة عن قصد من طرف الجنوبيين، بهدف البحث عن الطريق المؤدية إلى ذهب النيجر"²⁰⁴. إن ازدهار سلا يمكن ربطه كذلك بالأهمية التي أصبحت تكتسيها الواجهة الأطلسية المغربية في هذه الفترة، ودور المنفذ الرئيسي للسهول الأطلسية التي أصبحت تلعبه تلك المدينة. بعد سنة 558 هـ / 1163 م، تختفي سلا من العقود التجارية الجنوبية، وتتركز التجارة أساساً بسبتة.

سبتة	بجاية	تونس	تلمسان	1179-1183
3250 ليرة	513 ليرة	33 ليرة	33 ليرة	

Bautier., "Les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du Nord et - 204 l'équilibre méditerranéen du XIIe au XIVe siècle", *Bulletin philosophique et historique*, 1953-54, p.40.

خلال هذه السنوات، وإلى سنة 596هـ/ 1200 م، لم يضعف تيار المبادلات مع المغرب. بل يُلاحظ تفوق سبتة الكبير على بجاية وتونس، على الرغم من موقعهما الجغرافي القريب من جنوة، وعلاقتهما التجارية التقليدية معها. إن أهمية بجاية بالمقارنة مع سبتة كانت تتراوح - حسب السنوات - بين نصف و سدس نشاط سبتة. ولا شيء يدل على أهمية التجارة الجنوبية بالمدينة من كون الرحالة ابن جبير قد سافر سنة 578هـ/ 1183 م حاجاً على ظهر سفينة جنوبية من ميناء سبتة.

1183-1189	1188-1184	
7293 ليرة	368 ليرة	سبتة
3735 ليرة	824 ليرة	بجاية
1901 ليرة	805 ليرة	تونس
1098 ليرة	5 ليرات	وهران

1200 م	1194-1198 م
سبتة 1703 ليرة	سبتة 2908 ليرة
بجاية 645 ليرة	بجاية 432 ليرة
تونس 20 ليرة	وهران 98 ليرة
	تونس 46 ليرة

هذه الأرقام توضح أن سبتة كانت متفوقة في عملياتها التجارية على تونس وبجاية، المدينتان اللتان ارتبطتا بعلاقات تجارية تقليدية مع الإيطاليين، على الرغم من بعدها الجغرافي. فبين 1179- 1200 م (574-596هـ)، استثمرت جنوة بمدينة سبتة 18472 ليرة، أي أكثر من نصف مجموع

استثماراتها في جميع موانئ شمال إفريقيا. إنها الفترة التي كتب فيها أحد الألمان المشاركين في الحملة الصليبية في صيف 1189 م (584هـ)، إن "سبته أغنى مدن المغرب، والأكثر شهرة بفضل تجارتها مع جنوة وبيزة، ومع جميع التجار المسيحيين المتوافدين على إفريقيا".

ولكن من الصعب فهم هذا الدور الأساسي الذي لعبته سبته في هذه الفترة. بالتأكيد إنه غير مرتبط بدخول الأسر الجنوبية الكبرى في علاقات تجارية مع سبته، واستثمارها لأموال ضخمة بها، كما يذهب الباحث "كرووغير". ولم تكن سبته كذلك "بوابة الذهب"، كما يؤكد البعض²⁰⁵، لأن موقعها يوجد على هامش هذا الطريق، واجتياز سلسلة جبال الريف من طرف القوافل يبقى افتراضياً. وإذا كانت دار الضرب بسبته قد اشتهرت بسكها للعملة الذهبية الجيدة، فإن النصوص التي تشير إلى أهميتها قليلة جداً. لقد كانت سبته من وجهة نظر اقتصادية، نقطة تمفصل الإمبراطورية الموحدية في فترة أوجها بين إسبانيا والمغرب، والمنفذ الرئيسي للمنتجات الداخلية للبلاد، وكانت كذلك تشكل نهاية خط ملاحى أساسي في التجارة المتوسطية²⁰⁶.

بعد سنة 596هـ/ 1200 م، لا تتوفر على إحصائيات "كرووغير" المبنية على مجموع الوثائق المتوفرة في وقته، وإنما تتوفر فقط على معطيات جزئية، تمتد على سبع سنوات (من 1200 م إلى 1226 م). وتمثل إفريقيا الشمالية ربع العقود التجارية (26%)، الأمر الذي يؤكد أن تجارة إفريقيا الشمالية بقيت أساسية بالنسبة لجمهورية جنوة. وإذا ما استثنينا عقدين بالنسبة لتونس، فإن باقي العقود كانت تهم مدينتين، هما: بجاية وسبته. يتفوق الميناء الأول هذه

²⁰⁵ - أحمد بوشرب، "المخططات البرتغالية خلال القرنين 15 و 16"، ضمن كتاب في

النهضة والتراكم، الدار البيضاء، 1986، ص 196

206 - Cherif M., "L'importance de Ceuta dans le réseau ...", op. cit., 91-92.

المرّة في ما يخص عدد العقود، وقيمتها (7000 ليرة، مقابل 4500). إنها الفترة التي كانت جمهورية جنوة تحاول خلالها الاحتفاظ بعلاقاتها المتميزة مع الموحدين. ففي سنة 604هـ / 1208 م، سترسل سفارة إلى المغرب لترجمة هذه الإرادة إلى واقع، وقد استقبل الخليفة الناصر الموحد تلك السفارة. وفي سنة 619هـ / 1223م، أرسلت سفارة أخرى، لنفس الغرض²⁰⁷.

وتفترض بعض الدراسات أن العلاقات الجنوبية المغربية عرفت خفوقاً ملحوظاً بعد هزيمة العقاب، سنة 609 هـ / 1212 م، وأن جمهورية جنوة أصبحت تولي اهتمامها لشرق بلاد المغرب (بجاية وتونس)، على حساب غربه (سلا وسبتة). لكن يظهر من الأبحاث التي قام بها "بوتيي" و"دوفورك" بالنسبة للفترة الممتدة من 1210 إلى 1226 م (606-622هـ)، اعتماداً على وثائق الأرشيف الجنوبي أن ميناء سبتة بقي يمثل أهم نقطة تجارية بالمغرب. واعتمدت المؤرخة الإيطالية باليطو Balletto على ذات الوثائق مدعمة إياها بعقود أخرى تعود للفترة ذاتها، وقامت بعملية إحصائية لمجموع رؤوس الأموال التي وظفها الجنوبيون في التجارة مع بلدان المغرب في المتروحة ما بين 1222 و 1226م، وخلصت إلى أن ميناء سبتة كان يتفوق من بعيد على باقي الموانئ المغربية، كما يتضح من الجدول التالي²⁰⁸.

1226-1222 م	
سبتة	4864 ليرة جنوية
تونس	1223 ليرة و 8 فلس و 6 دنانير
بجاية	779 ليرة و 16 فلسا

Jehel, 37. - 207

²⁰⁸ - مصطفى نشاط "الإيطاليون بسبتة بعيد معركة العقاب"، ضمن كتابه : نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية ... م. س. ص. 86

من المؤكد أنه حصل تراجع في تجارة جنوة بسببته بعد 1226 م-1235 م (622-632هـ)، عقب اضمحلال الإمبراطورية الموحدية. غير أنه كان تراجعاً نسبياً، ولا شك. ونميل إلى الاعتقاد بأن مصير الإمبراطورية الموحدية لم يكن عائقاً بالنسبة لتجارة سبته. فحتى سنة 621هـ/ 1225 م، كانت هذه الأخيرة المدينة المغربية الأكثر ازدياداً من طرف السفن التجارية. بينما تفتت الإمبراطورية الموحدية كان قد بدأ قبل ذلك بكثير. كما أنه جنوة أرسلت سفارة إلى سبته يوم 5 يونيو 1231 وعادت إلى جنوة في غشت من نفس السنة²⁰⁹. وفي سنة 633هـ/ 1236 م، سترسل جنوة سفارة أخرى يرأسها Sorleone Pevere لسبته. ومن المؤكد أن توطيد العلاقات التجارية بين البلدين كان من بين أهداف السفارتين. وفي سنة 639هـ/ 1242 م، أي عقب الحرب البيزية - الجنوبية، رست ثلاث قطع بحرية جنوبية بآنزو، قادمة من سبته وبجاية. وفي 6 سبتمبر 1262 م (14 شوال 660هـ)، وصلت سفارة أخرى إلى مدينة الزقاق لتأكيد الروابط السابقة. بل إن الوثائق العدلية لما بعد سنة 648هـ/ 1250 م، تسجل عدداً كبيراً من عقود التجارة التي تهم سبته. ولو أن كثافة هذه العقود تبدو أضعف من كثافة عقود نهاية القرن السادس/ 12 م، إلا أن قيمتها كانت مرتفعة، مما يدل على أن تيارات التبادل التجاري بين المدينتين ظلت قوية. بل إن الاستثمارات الجنوبية بسبته ما بين سنة 1155 م وسنة 1290 م (508-689هـ)، كانت تمثل 37.5 % من عدد العمليات التجارية، و42.3 % من الرساميل المستثمرة بشمال إفريقيا²¹⁰.

ويظهر أن انبعاث مملكة أرغون، وتوجهها نحو سبته، سيكون له دور كبير وراء التقلص التدريجي اللاحق لتجارة جنوة بسبته. فالمنافسة بين جنوة

²⁰⁹ G. Jehel, "La mer dans les relations entre Gènes et le Maghreb au Moyen Age", in, *Mesogeios*, 7, (La Maghreb et la mer à travers l'histoire), 2000, p. 191
Jehel, 71. - 210

وقطلونيا حول هذا السوق المغربي قد ظهرت جلية سنة 631 هـ/ 1234 م، عقب هجوم يُعتقد أنه "قطلاني"²¹¹ على المدينة المغربية. ويظهر أن حدة هذا الهجوم على مياه سبتة كان يستهدف السفن الجنوبية، وتخويف تجارها. ومع ذلك فمن المؤكد أن تجار جنوة لم ينقطعوا عن سبتة، لأننا نتابع نشاطهم وفنادقهم وقنصلياتهم وسفنهم في هذه المدينة سنة 639 هـ/ 1242 م، السنة التي كان فيها "براطو أوبيزيو" قنصلا. وكذلك خلال سنوات 1245-1246، 1248، 1250 م (642-643، 646، 647 هـ)... إلخ. وإذا كان الجرد الذي قام به "الوبيز" لجميع العقود التجارية التي أبرمت في مارس 1233 م (جمادى الأولى 630 هـ) أمام موثقي جنوة لا يظهر سوى إشارة لتسديد دين تم "قرب سبتة"، فإن الأنشطة التجارية الجنوبية ما لبثت أن استعادت حيويتها في صيف نفس السنة، والسنوات الموالية. ولا شيء يعكس لنا أحسن أهمية تجارة جنوة بالمدينة من كون الجمهورية الجنوبية قد نظمت سنة 1267 م (665 هـ) قنصلها وراء البحار في قنصليتين عامتين: إحداهما في صور، وتشرف على قنصليات سوريا ومصر، والأخرى لم يكن مقرها سوى مدينة سبتة، وتشرف على قنصليات المغرب الكبير والأندلس²¹².

وتميزت نهاية القرن السابع/ 13 م وبداية القرن الثامن/ 14 م بتراجع التجارة الجنوبية عن أسواق المغرب الكبير. وحسب المعطيات الحالية للوثائق، يظهر أن الحوض الغربي من البحر المتوسط قد أصبح ينفلت شيئا فشيئا من

211 - ترجع الباحثة الإسبانية موسكيرا مورينو أن المهاجمين على ميناء سبتة كانوا من البرتغاليين Mosquera Morino M., "Ceuta y Genova: incidencias bélicas siglo XIII, Actas del Congreso internacional "El Estrecho de Gibraltar", (Ceuta. 1987), Madrid, 1988, II, pp. 231-248.

وانظر كذلك أطروحتها *La señoría de Ceuta en el siglo XIII (historia política y económica)*, Ceuta, 1994., pp. 106-110

E. de la Primaudaie, "Les villes maritimes du Maroc", op. cit. , 206. - 212

أيدي جنوة لصالح قطلونيا. ولكن جمهورية جنوة كانت قد اندفعت باتجاه أسواق الشرق وخيراته، بما في ذلك القسطنطينية، وكافا والبحر الأسود، بل أبعد من ذلك، نحو الهند والشرق الأقصى.

ومع ذلك فإن العلاقات مع سبتة لم تنقطع كلياً. ففي بداية القرن الثامن/ 14 كان تجار جنوة يحتلون مكانة هامة في سوق سبتة، ولقد ساهموا في تثبيت سلطة النصرين بها سنة 705 هـ/ 1306 م²¹³. وإذا كانت وثائق العدول الموثقين تنقصنا بالنسبة لهذه الفترة، فإن "كتب التجارة" الإيطالية للقرن الثامن/ 14 م، تشهد على أهمية التجارة مع سبتة واستمرارها، كما هو الشأن بالنسبة لباقي المناطق المغاربية الأخرى. ولنتذكر أنه في بداية القرن الثامن/ 14 م، نجد شخصية كبيرة من جمهورية جنوة، هو "كريستيان دي سبينولا"، قد أقام طويلاً بالمنصورة، قرب السلطان المريني أبي يعقوب، وأن الجنويين كانوا يتوفرون على فندقهم بالمدينة. وحتى فترة سقوط المدينة بيد البرتغال سنة 818 هـ/ 1415 م، كان الجنويون يقيمون بكثافة بالمدينة²¹⁴. ورغم ما قيل عن دور تجار جنوة المستقرين بالبرتغال في التحريض على غزو المدينة²¹⁵ - باتفاق مع تجار جنوة المستقرين بسبتة-، وذلك بهدف إضعاف القرصنة السبتية "الصخرة الدائمة في وجه التجارة المتوسطية"، فإنه يظهر أن الجنويين المستقرين بالمغرب كانوا معارضين بطريقة صريحة لاحتلال البرتغال للمدينة المغربية، لأن ذلك الاحتلال كان سيفقدهم دورهم وأرباحهم التجارية²¹⁶.

Mascarillo A., "Quelque aspects des activités italiennes..." op. cit., p. 74. - 213
Ricard R., "Contribution à l'étude du commerce génois au Maroc durant la période portugaise", In *Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc*, Paris, 1955, p. 117.; Heers. J., *Gênes au XVe siècles*, Paris, 1961, p. 460.
215 - انظر : أحمد بوشرب، "المخططات البرتغالية خلال القرنين 15 و 16"، ضمن كتاب: *في النهضة والتراكم، الدار البيضاء، 1986، ص200*
Cherif. M., " Notes sur les activités des génois à Ceuta", op. cit., 44. - 216

التوزيع الجغرافي للاستثمارات الأجنبية ببلاد المغرب

الفترة (السنة)	المجموع العام			1290 - 1250			1249 - 1200			1199 - 1155			العدد	الفترة (السنة)						
	المتوسط (الرقم)	% (النسبة)	العدد	المتوسط (الرقم)	% (النسبة)	العدد	المتوسط (الرقم)	% (النسبة)	العدد	المتوسط (الرقم)	% (النسبة)	العدد								
55,2	77,2	34700	81,5	628	47	95,5	6261	92,5	133	48,3	84,5	16768	86,5	347	78,8	62,9	11671	65,5	148	قروض
112	16,7	7503	6,7	67						124,7	8,8	1746	3,5	14	108,6	31	5757	23,5	53	شركات
36,3	6,1	2763	9,8	76	27	4,5	298	7,7	11	33,3	6,7	1333	10	40	45,3	6,1	1132	11	25	سلطات
58,3	42,3	44966	37,5	771	45,5	26,7	6559	27,1	144	49,9	41,5	19847	36,4	401	82,1	54,8	18560	53,2	226	مجموع
41,8	78,2	23579	87,4	564	31,5	94,5	5886	97,4	187	42,4	86,7	13902	90,6	328	77,4	48,1	3791	53,3	49	بنية
104,9	14,3	4301	6,3	41						81,8	4	655	2,2	8	110,5	46,3	3646	35,9	33	قروض
55,4	7,5	2274	6,3	41	68	5,5	340	2,6	5	57,4	9,3	1494	7,2	26	44	5,6	440	10,8	10	شركات
46,7	28,3	30150	31,4	646	32,4	25,3	6226	36,1	192	44,3	33,6	16051	32,8	362	85,6	32,2	7877	21,6	92	مجموع
45,4	84,9	24599	90	541	60,7	93	10874	93,7	179	32,1	86,4	10211	95,2	318	81,6	64,5	3514	57,9	44	قروض
67,7	5,8	1692	4,1	25						67,7	31	1692	32,9	25	67,7	31	1692	32,9	25	شركات
76,4	9,3	2674	5,9	35	68,1	3,3	818	6,3	12	100,7	13,6	1612	4,8	16	34,8	4,5	244	9,2	7	سلطات
48,2	27,2	28965	29,2	601	61,2	47,6	11692	36	191	35,4	24,7	11823	30,3	334	71,7	16	5450	17,9	76	مجموع
45,8	41,3	778	47,2	17						96					4					قروض
92,9	44,3	836	25	9						15,6					5					شركات
27,1	14,4	271	27,8	10						6,2					5					سلطات
52,4		1885		36						43,4					5					مجموع
		106259		2054			24573		531			47799		1102			33887		425	المجموع العام

ب - مع الساحل الفرنسي: مرسيليا²¹⁷

ما تزال جذور العلاقات المغربية الفرنسية غامضة جداً. وحسب بعض الإشارات التاريخية غير الدقيقة، قد يكون سكان مدينة مرسيليا وصلوا إلى مياه سبتة، منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، لاصطياد المرجان. ولكن الجنوبيين هم الذين كانوا يشكلون الوسطاء بين السواحل الفرنسية من جهة، وإفريقيا الشمالية من جهة أخرى؛ كما كانوا وسطاء بينهم وبين الشرق. ولم تنجح مرسيليا في تحطى الحاجز الإيطالي إلا ابتداء من القرن السابع/ 13 م، لتبدأ في التعامل التجاري المباشر مع المغرب، وبالخصوص مع سبتة، وذلك على حساب الجمهوريتين الإيطاليتين المتنافستين: جنوة وبيزة. فالتحالف الذي وقعته مع جنوة في 18 دجمبر 1203 م (6 ربيع الأول 600هـ)، كرس احتكار التجارة المرسيلية لمنطقة المغرب على حساب الأقاليم الفرنسية الأخرى.

بالنسبة لتجارة مرسيليا مع سبتة طيلة القرن السابع/ 13 م، تتوفر على معلومات قيمة بفضل وثائق الشركة التجارية لأسرة "مندويل" Manduel المرسيلية، ووثائق الموثق "أمريك" Amalric من نفس المدينة، وقوانين المدينة نفسها.

ونجد شهادات وصول المرسيليين إلى سبتة في القرن السابع/ 13 م ابتداء من سنة 609 هـ/ 1212 م، أي بعد عقد اتفاقية 26 نوفمبر 1212 م (24

217 - حول العلاقات مع مرسيليا انظر P. De Genival, *Les relations anciennes de la France avec le Maroc*, Rabat, 1928, C. Chevin, "Les relations de la France avec le Maroc de origines a la fin du Moyen Age", *Hespéris Tamuda*, 44, 1957. G. Hardy. Le Maroc. In *Histoire des colonies françaises et de l'expansion française*, III, Paris, Pernoud. R., *Histoire du commerce de Marseille*, T. 1, Paris, 1949. Blancard I, *Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen Age*, t, 1 et 2, Marseille, 1884-1885. Caillé J. "Le rôle des commerçants marseillais à Ceuta au XIIIe siècle", *Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman*, Alger, II, 1957

جمادى الثانية 609)، بين مرسيليا وجنوة، ولكن يظهر أن الفترة الأكثر حيوية بالنسبة للتجارة المرسلية تقع في النصف الأول من القرن السابع/ 13 م. فاستناداً على وثائق "مندويل"، والموثق "أمريك"، تتوفر على أسماء 13 سفينة مرسلية أرسلت شراها بمياه المدينة المغربية بين 1212 م و1248 م (609-648 هـ)، وحققت زهاء ثلاثين عملية تجارية.

وإذا كانت هذه الأرقام لا تعطينا بطبيعة الحال سوى فكرة محددة عن العلاقة التجارية بين البلدين، فإنها تشير إلى انتظام العلاقات بين الميناءين طيلة النصف الأول من القرن السابع/ 13 م. ولا يعني ذلك أن تلك العلاقات قد انقطعت عند منتصف القرن. فنحن لا نعرف سوى السفن التي تذكرها وثائق "مندويل"، وسجلات العدل "أمريك"، حيث تقف الأولى سنة 1249 م (647 هـ)، والثانية سنة 1248 م (646 هـ). والواقع أن التجارة مع سبتة لم تنقطع فجأة سنة 647 هـ/ 1249 م، في وقت نجد فيه قوانين مدينة مرسيليا تنظم تعيين قناصلها في الميناء المغربي سنة 653 هـ/ 1255 م. من جهة أخرى، لم يكن لمندويل أن يحتكر التجارة مع سبتة. إذ من المحتمل جداً أن يكون هناك تجار آخرون قد توافدوا على المدينة دون أن يترك لنا نشاطهم وثائق تثبت ذلك.

إن التجارة المرسلية مع سبتة كان يقوم بها التجار المرسلون بالأساس. ومن الممكن أن التجار السبتيين قد توافدوا على الميناء الفرنسي، لكننا لا نتوفر على أي دليل يثبت هذا الافتراض. ومن بين المرسلين الذين كانت لهم علاقة تجارية مع سبتة، نشير بالخصوص إلى أسرة "مندويل"²¹⁸ التي تحتل مكانة

Sayous A. E., "L'activité de deux commerçants capitalistes marseillais vers le milieu du XIIIe siècle", *Revue d'histoire économique et sociale*, VII, 1929. Idem, "Les opérations du capitalistes et commerçant marseillais Etienne de Manduel entre 1200 et 1230", *Revue des Questions Historiques*, 1930.

مرموقة في تجارة مرسيليا خلال القرن السابع/ 13 م. فقد أولت هذه الأسرة اهتماماً خاصاً بالتجارة مع المدينة المغربية، حيث كان لها ممثلها التجاري الخاص، كما كان يوجد عدل موثق، وفندق لتجار مرسيليا.

بالإضافة إلى هذه الأسرة نجد أن الأشخاص الذين كانوا يتعاملون تجارياً مع سبتة يوصفون بـ "مواطني مرسيليا"، والآخرين كانوا كلهم تقريباً من جنوب فرنسا؛ من منبوليي ونيم، أو من كوندون، وهو الأمر الذي يوحي بكون تجارة الجنوب الفرنسي كانت تتم عن طريق الوساطة المرسلية، أو الوساطة الإيطالية أو القطلانية.

من جهة أخرى يجب الإشارة إلى دور اليهود في التجارة المرسلية بسبتة. فيهود سبتة كانت لهم علاقات وطيدة مع أبناء ديانتهم في مختلف مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط، ولقد ضمنوا للتجارة المرسلية أسواقاً داخل البلاد، كما كانوا يقومون بسفريات تجارية من سبتة لصالح كبار التجار.

يظهر لنا من خلال هذه المعطيات المنفرقة، أن العلاقات التجارية المرسلية السبتية قد توطدت خلال القرن السابع/ 13 م. فإبان القرن السادس/ 12 م، كانت أغلب السفن التجارية الجنوبية والسفونية التي تبحر باتجاه سبتة، والتي لم تكن تستطيع عبور البحر من الشمال إلى الجنوب؛ تذهب بمحاذاة الساحل، وتمر بالضرورة على مرسيليا، حيث كان يتم استكمال شحن حمولتها. وفي بداية القرن السابع/ 13 م، أصبحت مرسيليا هي التي تلعب دور الوسيط بين السواحل المغربية والسواحل الفرنسية الجنوبية. ولكن في منتصف القرن السابع/ 13 م، نلاحظ انتقالاً في النشاط التجاري لمرسيليا نحو الجهة الشرقية للمغرب، وخاصة نحو بجاية وتونس، كما نجد وثائق أخرى تؤكد أنه في نفس الفترة كانت مرسيليا تقوم بمجهودات في الشرق.

و الواقع أنه في نهاية القرن، عرفت العلاقة بين المدينتين خفوتاً عقب حروب "شارل الأنجواني" Charles d'Anjou، صاحب مرسيليا، ابتداء من سنة 650هـ/ 1252 م، وهو الذي عسّكر ميناء المدينة الفرنسية على حساب التجارة. إن قلة الوثائق المتعلقة بالعلاقات التجارية بين سبتة ومرسيليا في القرن الثامن/ 14 م يفسّر بتقلص حقيقي لهذه العلاقات. فابتداء من القرن الثامن/ 14 م، لم نعد نتوفر على أية إشارة لتجارة مرسيليا بسبتة، حيث لم يعد هناك أثر لفندقهم. ونتساءل إن لم يكن هذا التخلي عن سبتة قد تم لصالح مليلية وباس و طنجة وأصيلة.

بموازاة هذا الانحطاط في التجارة المرسيلية بسبتة، نلاحظ التأثير المتزايد للأرغونيين في المدينة. ويمكن القول أن هؤلاء قد أخذوا مكانة المرسيليين، وهو الأمر الذي يدفعنا إلى استبعاد فكرة التراجع المرسيلي عن أسواق سبتة بفعل مخاطر القرصنة البحرية.

ج - مع شبه الجزيرة الإيبيرية: مملكة أراغون

لقد كانت العلاقات التجارية بين سبتة والأندلس نشيطة جداً منذ زمن قديم، كما تدل على ذلك نتائج الحفريات الأثرية، ونتائج التنقيبات الأركيولوجية في أعماق البحر²¹⁹. ولقد ظلت هذه العلاقات متواصلة ودائمة بين ضفتي الزقاق، بغض النظر عن تبدل الأنظمة السياسية بهما²²⁰. إن إدماج قسم كبير من شبه الجزيرة الإيبيرية في الدولة المغربية قد سهل كثيراً، بفعل الوحدة السياسية، تنقل التجار بين القارتين، ووفر لهم مناخاً سياسياً وثقافياً وبشرياً

Bravo. P.J. y Monoz R., *Arqueologia submarina en Ceuta*, Madrid, 1965. - 219
220 - انظر مثلاً نمواً من العلاقات التجارية بين سبتة وإشبيلية في القرن الخامس الهجري/ 11م في : ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الدار العربية للكتاب، 1979، ج2/2، ص 658

مشجعاً لعملياتهم التجارية. ففي كتب التراجم نجد أسماء عدد من العلماء والفقهاء السبتيين الذين دخلوا الأندلس للتجارة، والعكس صحيح. يتعلق الأمر بنوع من العلاقات التجارية العادية المرتبطة بالسفر والعلم، بحيث لا داعي للوقوف عنده.

كان القشتاليون والبرتغاليون يتاجرون مع سبتة. لكن مصادرنا لا تمكننا من تتبع نشاطهم بدقة. وتوطدت العلاقات التجارية السبتية مع القطلانيين طيلة القرن السابع والثامن/ 13 و 14 م. ويرجع الفضل إلى "شارل إمنويل دوفورك" الذي درس بعمق هذه العلاقات وأظهر كثافتها اعتماداً على كم هائل من وثائق الأرشيفات القطلانية. فمن كتابه الرائد "إسبانيا القطلانية وبلاد المغرب في القرنين 13 و 14" نستمد أهم معلوماتنا حول موضوع العلاقات التجارية السبتية القطلانية²²¹.

فحسب المؤرخ الإسباني "كامباني" - الذي عاش في القرن 18 - يكون القطلانيون هم الأوروبيون الأوائل الذين توافدوا على سبتة خلال العصر الوسيط، وقد تبعهم الجنويون. ولكن من المؤكد أن القطلانيين كان يسبقهم منافسوهم الإيطاليون، والبروفسيون، على الأسواق السبتية في القرن السادس/ 12 م. إن الاستيلاء على جزر البليار سنة 627-628 هـ/ 1229-1230 م، كان الخطوة الأولى في تحول مملكة أراغون إلى قوة متوسطة. قبل هذا الاستيلاء نفسه، كانت أنشطة القطلانيين بسبتة قوية. فـ"وثيقة الملاحة" القطلانية لسنة 1227 م (624 هـ) تظهر بوضوح أهمية سبتة بالنسبة لبرشلونة. ففي إحدى الأوامر لهذه السنة حول التجارة القطلانية في بلاد المغرب، لا يتم ذكر سوى ميناء مغاربي واحد، هو ميناء سبتة. ونعرف كيف كانت العرقلة التي تتعرض

Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghreb...* op.cit. - 221

لها تجارة برشلونة مع سبتة، بسبب نشاط قراصنة جزر البليار المسلمين، إحدى دوافع استيلاء القطلانيين على ميورقة سنة 628 هـ / 1230 م.

والواقع أنه خلال هذه السنوات، وعلى الرغم من منافسة التجار المسيحيين الآخرين، فإن ميناء سبتة كان النقطة المغاربية التي تربطها علاقات منتظمة مع برشلونة. إن مدينة سبتة التي كانت تمثل بوابة المغرب، ستصبح المكان المفضل للرعايا الأروغونية الذين يتعاطون للتجارة. ولا شيء يثبت أنه كان يتواجد بها فندق أو قنصلية قطلانية، ولكن الأمر محتمل.

لم تكن العلاقات القطلانية السبتية تجارية فقط، وإنما ارتبطت أيضاً ارتباطاً وثيقاً بالعمل بالعمل السياسي والعسكري. فعلى خلاف الجاليات المسيحية الأخرى ذات الطابع التجاري، فإن القطلانيين - كالفشتاليين والبرتغاليين لاحقاً - تبينوا سياسة التدخل العسكري السافر. حتى إن أحد الدارسين المحدثين يتحدث عن "الإمبراطورية الأروغونية"²²²، خصوصاً وأن منطقة الزقاق كانت من أسخن مناطق الصراع المغربي الإيبيري. وقد كان الجنويون - منافسي القطلانيين الأقوياء - يسيطرون على السوق السبتي. ولم يكن من السهل إزاحتهم عن هذا السوق، وانتزاع زعامتهم التي ترجع إلى القرن السادس / 12 م. ولجأ القطلانيون إلى القوة العسكرية. فتدخلهم البحري السافر في صيف 1234 م (محرم - ذو القعدة 628 هـ) في مياه سبتة، كان يكتسي طابعاً عدائياً واضحاً للجنوبيين. لقد أراد التجار القطلانيون اغتنام فرصة استقلال المدينة المغربية الحديث عن السلطة الموحدية، وانعزالها، لإزاحة الجنويين، منافسيهم الرئيسيين، أو على الأقل إضعاف وجودهم بسبتة. لهذا السبب أحرق القطلانيون سفن جنوة التي كانت راسية بمياه سبتة.

R. Brunshvig , *La Berbèrie orientale...*, II, 432.- 222

لكن هذه الأزمة لم يكن لها مخلفات تذكر، وموقف الملك الأرغوني كان بصفة عامة لصالح سبتة خلال القرن السابع/ 13 م. فعندما منع رعاياه من مزاولة القرصنة سنة 1250 م(648 هـ)، فإنه تخلى عن استعمال القوة تجاه سبتة. كذلك لم يكن الملك "جاك الغازي" Jacques le Conquérant، ولا رعاياه التجار، متحمسين لفكرة الحرب الصليبية ضد إفريقيا، التي كان يدعو إليها كل من البابا "ألفونسو العاشر"، والكنيسة سنة 1260 م(658 هـ)، والتي كان من أهدافها الرئيسية الاستيلاء على مدينة سبتة. إنهم كانوا يفضلون الاتجار بسلام مع سبتة، ومع باقي الموانئ المغربية، عوض الارتقاء في حرب صليبية غير مضمونة النتائج. ولم تخفت أنشطة القطلانيين بسبتة بعد سنة 660 هـ/ 1262 م. إن التجارة وأرباحها كانت أهم الجسور التي تختفي معهما الصراعات السياسية والاختلافات الدينية، أو على الأقل تحدُّ من غلوانها.

وتوطدت الأنشطة التجارية بين السبتيين والقطلانيين بعد توقيع اتفاقية "السلم والهدنة" سنة 667 هـ/ 1269، بين أبي القاسم العزفي، حاكم سبتة، وملك أرغون "جاك الغازي". والواقع أنه ليتمكن التجار القطلانيون من التعامل التجاري بحرية، وفي ظروف مواتية بسبتة، لم تكن هناك طريقة أفضل من عقد اتفاقية مع العزفيين، حكام المدينة. وفي السنوات اللاحقة، نجد القطلانيين يتاجرون بكل حرية، ليس في مدينة سبتة وحدها، وإنما مع الموانئ المجاورة لها كذلك مثل: الكدية، والمزمة، وغساسة.

عند نهاية القرن السابع/ 13 م، كان الأرغونيون، وخاصة تجار برشلونة وميورقة، يترددون بانتظام على ميناء سبتة. ولم يطرح إدماج مدينة سبتة في مشروع السلم المقترح سنة 686 هـ/ 1287 م بين المرينيين والقطلانيين أية مشكلة. وعلى الرغم من فشل السفراء القطلانيين في عقد هذا السلم، فإن

مفاوضاتهم كانت لها انعكاسات إيجابية على الأنشطة التجارية القطلانية بسببها. فلنا شهادات تواجدهم بالمدينة سنة 687 هـ/ 1288 سنة 695 هـ/ 1296 م.

في بداية القرن الثامن/ 14 م، وبينما نشاهد تراخ في الأنشطة الجنوبية بسببها، فإن العلاقات الاقتصادية بين الموانئ المرينية وموانئ أرغون كانت مستمرة. وعلى الرغم من غياب أية اتفاقية، فإن التجارة لم تتوقف، ولو أنها كانت تتم في جو محفوف بالأخطار. ويؤكد محضر برشلوني لسنة 1302م (702هـ)، أصدره مجلس المائة للمدينة القطلانية، أن العلاقات التجارية بين أرغون وسببها والكديفة قد حافظت على انتظامها لمدة ثلاثين سنة تقريباً، قبل إصدار هذا المحضر²²³. ويرجع بعض الباحثين هذا الانتظام إلى ما خلفته اتفاقية السلم التي وقعتها مملكة أرغون مع إمارة سببها العزفية سنة 667 هـ/ 1269م²²⁴.

لم تكن الحروب، ولا القرصنة البحرية، ولا عدم الاستقرار السياسي بالمغرب، يكبل كلياً تجارة سببها. ففي أعقاب إعلان العزفيين استقلالهم في سببها سنة 704 هـ/ 1304 م، لم يتسرع ملك أرغون في إرسال أسطوله للتعاون مع المرينيين لإخضاع المدينة، على الرغم من الثمن الضخم الذي اقترحه عليه السلطان المريني مقابل مساعدته إياه. فهو لم يكن يريد أن يعرقل تجارة رعاياه بالمدينة. وعلى الرغم من تغيير حكام سببها، فإن طابع المدينة التجاري، والأرباح التي كانت تقدمها للتجار المسيحيين، بقيت قائمة. إن القطلانيين ظلوا يتوافدون عليها وقد صارت مؤقتاً بيد النصرين. ففي هذه السنوات من القرن الثامن/ 14 م، كما كان الحال خلال سنوات القرن السابع/ 13 م، كان

Dufourcq, *L'Espagne catalane*..op. cit.,. 163. - 223

224 - نشاط مصطفى، التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول، م. س. ص 293.

للقطلانيين نشاط كبير ومثمر بالمدينة التي كانت تستقطب ما يقرب من ثلثي الاستثمارات القطلانية بالمغرب في مطلع القرن الثامن/ 14 م²²⁵. مثلاً نعرف على الأقل عشر سفن ميورقية كانت قد اتجهت إلى ميناء سبتة بين أبريل 1314 م، ومارس 1315 م (محرم- ذو الحجة 714هـ)، وإحداها على الأقل كانت تكمل طريقها نحو المحيط الأطلسي، باتجاه أصيلة.

إن موقع ميورقة ومكانة مينائها ساهمتا في إعطاء دفعة قوية للدور القطلاني في البحر، وفي العلاقات مع سبتة²²⁶. لقد كان الإيطاليون، مثل الفرنسيين، يتخذون في أكثر الأحيان، ميورقة محطة في طريقهم إلى المغرب. فالمعلومات التي تتوفر عليها حول السفريات التي كانت تتم شهرياً من ميورقة نحو بلاد المغرب تسمح لنا بالتأكيد على أن سبتة كانت لها مكانة متميزة في الأنشطة الميورقية خلال النصف الأول من القرن الثامن/ 14 م. إنها الميناء المغربي الأكثر ارتياداً من طرف التجار الميورقيين، والذي كان يتفوق على موانئ المغرب الأوسط. وحدهما بجاية وتونس كانتا أكثر ارتياداً من سبتة. ونعرف على الأقل إسم 33 ميورقياً كانت لهم علاقات تجارية مع سبتة بين سنة 710 و 731 هـ/ 1311 - 1331 م.

لم تتوقف أنشطة التجار المسيحيين عن التطور بسبتة طيلة العصر الوسيط. فقد أعطت المنافسة الأسبقية لبعضهم على البعض، حسب مكانتهم وإشعاعهم بالبحر الأبيض المتوسط: جنوة طيلة القرن 12 م وبداية القرن 13 م، مرسليليا في النصف الثاني من القرن السابع/ 13 م، والقطلانيين في القرن

Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne Catalane*, op. cit., 555. - 225
Ch. E. Dufourcq, "La place du Maghreb dans l'expansion de la couronne d'Aragon: La route maghrébine par rapport à celle des îles et des épices", II
Congreso his. Culuras mediterraneo Occ., 276-277.

السابع والثامن/ 13- 14م. هذا التحقيب، كما يظهر لنا في الوضعية الحالية للوثائق ولمعارفنا التاريخية، قابل لأن يُراجع على ضوء اكتشاف وثائق جديدة، أو على ضوء نتائج أبحاث في طور الإنجاز. ولكن يمكننا القول إن سببته لم تفقد أبداً أهميتها التجارية، على الرغم من تغير "جنسية" زبائنها، وظلت مكاناً مفضلاً لدى التجار المسيحيين طيلة العصر الوسيط.

إن "زرارا" الذي ألف كتابه في منتصف القرن الخامس عشر (1449- 1450م) يصف مدينة سبته بكونها "زهرة مدائن القارة الإفريقية كلها... حيث نجد المسلمين الأجانب القادمين من إثيوبيا، ومن الإسكندرية، ومن أرض الشام، ومن باقي بلاد المغرب، ومن الأناضول حيث ممالك الترك، وكذا مسلمي باقي مناطق الشرق الذين يعيشون على الجانب الآخر من الفرات، ومن الهند، ومن باقي الأراضي الأخرى الكثيرة البعيدة... كلهم يأتون إلى سبته محملين بكثير من السلع الثمينة"²²⁷. وظلت هذه الأهمية يرن صداها في أذهان الأوربيين عامة، والإيبيريين خاصة، حتى بعد سقوط المدينة بقرنين من الزمن، كما نستشف من شهادة البرتغالي "فالنتين فرنانديس" (ت 911 هـ/ 1506م) الذي كتب يقول: "لقد كانت هذه المدينة، في أيام المسلمين من أهم مدنها، سواء بشموخ بناءاتها، أو بثروتها، أو بأهلها، أو بتجارها. وفي هذا المكان بالذات، كان يوجد الميناء الرئيسي لاستيراد المواد لفائدة داخل البلاد بأسرها. ولقد بلغت المدينة من السطوة ما جعل كل سفن الشرق والغرب المارة بالمضيق تنزع أشرعتها"²²⁸.

Zurara, E. G. *Crónica da tomada de Ceuta por el rei D. Joao I*, éd. F.M. - 227

Esteves Pereira, Lisbonne, 1915, p. 268- 269

V. Fernandes, *Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal*, op. cit., - 228

4 - الصادرات والواردات

كانت سبّنة، الميناء المغربي الأساسي على الواجهة المتوسطية، تشكل المنفذ الرئيس للإنتاج المغربي الداخلي الموجه للتصدير. وليس مفاجئاً إن كان الإنتاج الفلاحي أو الصناعي للمدينة، لا يكفي بالكاد لتلبية الاستهلاك الداخلي المتزايد، الناتج عن التوسع العمراني والديمغرافي السريع، وتحسين مستوى عيش السبّنيين.

فالصادرات الآتية من الإنتاج المحلي كانت تنحصر في مواد قليلة، وبكميات متواضعة: فواكه، سكر، ورق، أدوات الطبخ، أدوات نسيج مصنعة، سمك ومرجان خاصة.

إن السلع المستوردة لم تكن موجهة للاستهلاك المحلي إلا بنسبة ضعيفة. لأن أغلبها كان موجهاً للمراكز الحضرية داخل البلاد. من هنا يظهر أن دور سبّنة في تيارات المبادلات التجارية المتوسطية كان قبل كل شيء دور سوق هام لإعادة التوزيع، وهو الدور الذي حمل معه دينامية في الحياة الاقتصادية بالمدينة. ومن الواضح أن ما سنقله عن السلع المتبادلة بين سبّنة والعالم الخارجي، قد ينطبق عموماً على صادرات المغرب كلها.

كانت سبّنة مثل باقي بلاد المغرب في العصر الوسيط، تصدر أساساً المواد الأولية الحيوانية والنباتية. إن إفريقيّا الشمالية كانت مصدر 89 % من واردات جنوة من الصوف، ما بين 634 و 692 هـ / 1237 و 1293 م²²⁹، لقد كانت الصوف المغربية تأتي من القطيع الضخم بالمناطق الرعوية. وكان التجار المسيحيون يشترونها، مغسولة أو مشحمة، بكميات هائلة. وكانت بعض

G. Jehel, *Les génois...* 345. - 229

الأكباش المغربية تعطي صوفاً لينة، سماها الجنويون باسم "المرينوس" - *Mirini* نسبة إلى المرينيين. وكان تصدير هذه المادة يتم أساساً عن طريق سبتة والكدية وأصيلة وأنفا.

وبنفس الأهمية كانت تصدر الجلود الخضراء أو المدبوغة. إنها أساساً جلود البقر والغنم والماعز. لقد كان الإيطاليون يبحثون كذلك عن جلود أو فراء الأرانب. أما تصدير الشمع فكان عاماً ببلاد المغرب. وكانت سبتة تبيع كذلك مرجانها الأحمر المفضل لدى التجار المسيحيين. وشكلت الفواكه والحبوب مواد تجارية رائجة. فجزء كبير من الحبوب المغربية كان يتم تصديره من ميناء سبتة باتجاه الأسواق المتوسطية، وحتى الشرقية. إن بناء الفندق الكبير في القرن السابع/ 13 م بالمدينة، وتعميره بحمولات القوافل من الحبوب المعدة للتصدير، لشهادة على الأهمية الكبرى لهذه التجارة بالمدينة. وأخيراً يجب أن نضيف إلى هذه اللائحة بعض مواد الصناعة التقليدية المغربية؛ كالزرايبي، وبعض الألبسة، وفي أغلب الأحيان المصنوعات الجلدية.

إن "السلعة البشرية"، أي العبيد، لم تكن تشكل عنصراً تجارياً بالمعنى الدقيق للكلمة، ولا شيء يثبت أن العبيد شكلوا عنصراً تجارياً ذا أهمية بين سبتة وأوربا. فقليلة هي الوثائق المتعلقة بهذا العنصر²³⁰. والواقع أن هذا التيار التبادلي كانت تطعمه باستمرار الغارات المتبادلة بين المسلمين

230 - حقق التاجر الجنوي Punco Michele de Niza ثلاث عمليات تجارية في العبيد بسبتة في ثلاثة أيام في نهاية سنة 1190 وجمع خمسة عبيد بثمن يتراوح بين نصف ليرة وست ليرات. Posac Mon, "Relaciones...", op. cit., 16.
Verlenden Ch., *L'esclavage dans l'Europe médiévale*, Bruges, 1955, t. 1. p.610
وفي سنة 1322 بيعت أسيرة قطلانية بسبتة بـ 65 ديناراً ذهبياً، وكان مالكاها قد اشتراها بـ 15 ديناراً أو أقل من ذلك. Verlenden, *l'esclavage...* op. cit. p. 503
ثم هناك فتوى حول تاجر ذهب يبيع الزيت بالجزائر «واشترى سلماً ورقيقاً وبعث بذلك للمرية وسبتة» المعيار، ج 76/9.

والمسيحيين على السواحل، والقرصنة في البحر، وما يستتبعها من مظاهر الأسر والعبودية²³¹. أما ما يتعلق بالعبيد السود، فمن الثابت أن استفادهم من السودان لبيعهم في شمال إفريقيا كان يجد كماله الضروري في بيعهم لمسيحيي شبه الجزيرة الإيبيرية.

في تيار الواردات المسيحية نحو سبتة، نجد أن الكمية الكبرى والمهمة والمنتظمة كانت تتكون من التوابل، والمواد النسيجية.

لقد كانت التوابل، وكذلك العطور و مواد الصباغة، من بين السلع الغالية، وذات الحجم الصغير التي تدر أرباحاً طائلة على المسيحيين الذين كانوا يحتكرونها ويمثلون الوسطاء الضروريين بين البلدان الشرقية المنتجة، وبلاد المغرب. وجزء مهم من هذه السلع كان موجهاً للتجارة الكمالية بالحواضر الكبرى. وتلفت انتباهنا الكميات الكبيرة من التوابل المرسلّة إلى سبتة، أكبر مستورد للتوابل ببلاد المغرب²³². فقد كانت تصل في بعض الأحيان إلى عشرة مثاقيل من القرفة، وأربعين قنطاراً من الإبزار. إن الثمن المرتفع لهذه السلع دفع بعض التجار السبتيين إلى الذهاب لاقتنائها مباشرة من الشرق. لكن السوق السبتية ظلت خاضعة للوساطة المسيحية في هذا المجال.

أما السلع النسيجية، المصنّعة أو على شكل ألياف، فكانت تمثل أكثر الصادرات المسيحية لسبتة. لقد كانت أنسجة "أراس"، و"شالون"، ومناديل باريس الساطعة، ومثيلتها من "بيربينيان"، وملابس "بيزيي"، و"لانكودوك"،

²³¹ - حول بعض الأسرى السبتيين انظر :

Cossio J.M., " Cautivos de moros en el siglo XIII", *Al Andalus*, N° 7, 1942, 97,105
حيث يذكر أسيرين سبتيين وإثنين آخرين من أصيلا وإثنين من طنجة.
232 - استوردت سبتة من جنوة ما قيمته 522 ليرة من التوابل ما بين 1164 و1280م، بينما لم تستورد بجاية سوى 207 ليرة وتونس 193 ليرة.

وألياف "بورغون"، وفساتين "لومباردي"، وثياب الملف من "فلاندر"، و"شامبانيا"، تصل بانتظام إلى سبّنة لإعادة توزيعها على الحواضر المغربية.

وكانت المواد الزجاجية والجواهر والمواد الحديدية المسيحية تباع كذلك بسبّنة. فالمعادن، مثل الرصاص والقردير، وخاصة النحاس، كانت مطلوبة لدى المغاربة، مثلها مثل الخشب. ويسترعى انتباهنا الكميات الكبيرة للفضة التي كانت ترسلها مرسيليا في القرن السابع/ 13 م لسبّنة، مسكومة أو على شكل قطع. وينضاف لذلك الأحجار الكريمة والجواهر. فمنذ نهاية القرن السادس/ 12م، أصبحت مجوهرات جنوة ترسل بانتظام إلى سبّنة²³³.

إن كميات كبيرة من الخمر كانت تأتي كذلك من الخارج. وكانت سبّنة تحصل عليه من جميع أنحاء البحر المتوسط، وخاصة من مرسيليا. ويظهر أنه كان من أهم صادراتها إلى المدينة، لأن قوانين المدينة الفرنسية قننت بيع هذه المادة بسبّنة. إذ نجد فصلاً كاملاً من القوانين المرسيلية لسنة 1228 (625 هـ) مخصصاً لمقتضيات بيع الخمر المرسيلي في بجاية وسبّنة. أما الخمر الجنوبي، فكان يصل بكميات كبيرة إلى المدينة كذلك. وتوفر على سلسلة من 22 عملية تصدير للخمر، بين سنة 579 و 689 هـ/ 1184 م و1290م، يظهر سبّنة كأكبر مستورد للخمر بـ116 ليرة، بينما لم تستورد تونس وبجاية في نفس الفترة سوى 14 و37 ليرة على التوالي²³⁴. وكان الخمر موجهاً إلى الجاليات المسيحية بفنادق المدينة. لكن المغاربة كانوا يستهلكونه كذلك، لأن القوانين المرسيلية تفرق ما بين الحوانيت التي تباع الخمر للمسيحيين، وتلك التي تباع لسواهم.

11

G. Jehel. *Les Génois*, op. cit., p. 353. - 233
Idem, 344. - 234

إن المبادلات التجارية لسبّنة كانت جد معقدة لدرجة أننا نجد تيارات التبادل، الذي أوضحنا خطوطها العريضة، تنعكس في بعض الأحيان. فيحدث أن تستورد سبّنة الباكور مثلاً من جنوة، أو أن يصدر التجار السبّتيون المواد المعدنية لإيطاليا، أو يتم إرسال الطحين من مرسيليا إلى المدينة، أو من جنوة إلى سبّنة²³⁵. وكانت سبّنة مركزاً لتصدير الكتان لكنها كانت تستورده كذلك من جنوة. وهذه الحركة في المواد الغذائية تبين غياب تخصص جغرافي للتجارة في المواد الأولية الغذائية.

5 - المسالك والطرق التجارية²³⁶

كانت سبّنة كباقي الموانئ، تقع في ملتقى الطرق البرية والبحرية. وكان اتصالها بالداخل، يتم عبر المحور الأكثر ارتياداً، وهو محور سبّنة - فاس (أو فاس - سبّنة)، مروراً بطنجة وأصيلة والبصرة وكورت. والتحمت المنطقة الداخلية بالواجهة المتوسطية أكثر مما مضى في القرنين الخامس والسادس/ 11 و12 م. فالطريق الأول أصبح مضاعفاً بطريق يربط سبّنة بفاس عبر "أزجان"، دون المرور بأصيلة. ويعطي الإدريسي سبعة أيام لقطع الطريق الأول، وثمانية لقطع الطريق الثاني. من هذين الطريقين كانت تعبر غالبية منتجات مراكش وفاس، ومنتجات داخل البلاد، باتجاه سبّنة؛ ومنها نحو عالم حوض البحر المتوسط. وعبرها كذلك كانت تصل سلع السودان الغربي لسبّنة، في طريقها إلى العالم المسيحي.

235- نفسه 355.

236 - Cherif M., "L'importance de Ceuta dans le réseau du commerce méditerranéen", *Revue de la faculté des Tétouan* والهوامش المثبتة في هذا المقال.

وبذلك لعبت سبتة دور المنفذ الرئيسي للمناطق الداخلية الغنية. لقد حظيت بهذا الدور لأن الموانئ المتوسطة الأخرى مثل باديس، وغساسة، ومليبية، أو المزمة... لم تستطع أبداً - نظراً لموقعها الجغرافي - الوصول إلى أهمية سبتة، ومزاحمة جاذبيتها التجارية التي كانت قد أصبحت ثابتة.

من سبتة كانت تمر الطرق التجارية التي تربط فاس بجزر البليار²³⁷، ولا يظهر أن أهمية محور فاس - سبتة قد تضرر من النشاط الذي طبع طريق فاس - تلمسان عبر تازة. بالمقابل، عرف نوعاً من التقلص بموازاة الأهمية التي اكتسبتها الطرق المتعددة التي ربطت الواجهة الأطلسية، والأهمية التي ستأخذها هذه الواجهة ابتداء من الفترة الموحدية، وخاصة المنطقة المحصورة بين سلا وأسفي (فضالة، أنفا، مازغان)²³⁸. وهذا التغيير لم يؤثر بتاتاً على الحياة التجارية السبتية. فسفن المدينة وتجارها كانوا قد تعودوا على اجتياز مياه الزقاق للإبحار في مياه الأطلسي، بحثاً عن السلع والمنتجات الفلاحية بهذه الواجهة، التي ربطوا معها علاقات تجارية متينة منذ فترة مبكرة. إذ في القرن الرابع/ 10 م، يخبرنا ابن حوقل بأن سكان البصرة كانوا يبحرون في نهر سفند، وفيه "يحملون تجاراتهم في المراكب، ثم يخرجون إلى البحر المحيط، ويعودون إلى البحر الغربي، فيسيرون منه حيث شاؤوا"²³⁹. في القرن السادس/ 12 م كانت حبوب السهول الأطلسية تسوق بسبتة، حيث تجد رواجاً كبيراً. ولدينا فتوى على قدر كبير من الأهمية تبين تسويق القمح والشعير من مازغان إلى سبتة، وبيعه بأثمان جيدة²⁴⁰. وفي القرن السابع/ 13 م،

Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne catalane...* op. cit. 164. - 237

238 - محمد زنيير، «محور فاس - سبتة وأهميته في العصر الوسيط»، ضمن كتاب، *المدينة في تاريخ المغرب العربي*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - ابن مسيك، البيضاء، سلا، 1990، ص 321 - 327.

239 - ابن حوقل، *صورة الأرض*، 80.

240 - *مذاهب الحكام*، 128-129.

كانت هذه العلاقات متينة. فابن سعيد يكتب قائلاً: "مازغان وهي فرضة مشهورة تحمل منها المراكب القمح إلى سبتة وغيرها"²⁴¹.

والواقع أن المساحلة بين سبتة ومدن الواجهة الأطلسية كانت نشيطة، وغير منقطعة. وكان يمارسها المسلمون والتجار المسيحيون على حد سواء، على الرغم من مخاطر كثافة الضباب، والتيارات البحرية القوية، وتغير اتجاهات هبوب الرياح... وعلى الرغم من أن الاتصال بين سبتة والواجهة الأطلسية كان يتم عن طريق البر أحياناً، فإن المساحلة ظلت الأكثر استعمالاً. إن السفن المسيحية الذاهبة أو القادمة من الأطلسي كانت تجعل في أغلب الأحيان من ميناء سبتة محطة إجبارية في طريقها²⁴².

مع مناطق الواجهة المتوسطية والشرقية، كانت سبتة مرتبطة بطريق بحري، وآخر بري. فالطريق البحري كان الأكثر ارتياداً بفضل المساحلة النشيطة جداً التي كان يلجأ إليها سواء التجار والمتصوفة، أو المسافرين العاديون. إن تضرس المنطقة الشديد شجع الاتصال البحري بين سبتة وبادس ومليلية، وبينها وبين مدن المغرب الأوسط وإفريقيا وشرق البحر الأبيض المتوسط. إن ابن سعيد يؤكد أن المراكب كانت ترد على المدينة "من البحر المحيط، ومن ريف غمارة".

مع السواحل الأندلسية، كانت الاتصالات كثيفة ومستمرة منذ زمن بعيد. بل إن مضيق جبل طارق شكل قنطرة رابطة بين القارتين، أكثر من كونه حداً

241 - ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، 137

²⁴² - Christophe Picard, *L'Océan atlantique musulman de la Conquête arabe à l'époque almohade. Navigation et mises en valeur des côtes d'Al - Andalus et du Maghreb occidental (Portugal - Espagne - Maroc)*, Maisonneuve - Larose (éd. Unesco), 1997

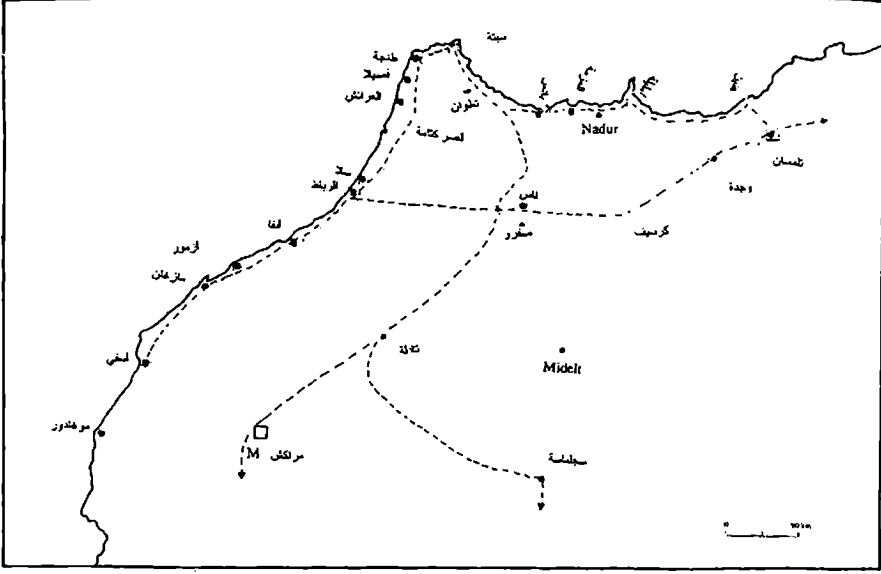
طبيعياً فاصلاً بينهما. إن المضيق الذي كان نقطة مرور تقليدية بين سبتة والأندلس، كان يتم اجتيازها، مع رياح مساعدة، في أقل من ثلاث ساعات فقط²⁴³.

وأخيراً كانت سبتة تلعب دور نقطة نهاية (أو بداية) خط ملاحي وتجاري هام على خارطة المبادلات المتوسطية. فالمدينة لم تكن فقط "محطة للسفن القادمة من إسبانيا"، وإنما كانت نهاية خط ملاحي وتجاري مُثلث يربط بين جنوة وفرنسا وإسبانيا، ونقطة انطلاق (أو نهاية) للرحلات التي تجوب الساحل الشمالي لإفريقيا نحو الشرق. إن وثائق الأرشيفات الأوروبية توضح هذا الدور في شبكة الملاحة المتوسطية²⁴⁴. ثم إن المدينة ستصبح نقطة ركوب البحر بالنسبة للحجاج المغاربة والأندلسيين على حد سواء.

هذا الدور المضاعف لسبتة كمنفذ رئيسي على الواجهة المتوسطية لتسويق الإنتاج الداخلي للمغرب، وكنقطة نهاية وبداية طريق تجارية وملاحية متوسطية، يفسر أهمية العلاقات التجارية للمدينة مع العالم المتوسطي. وإذا كانت شبكة الطرق البحرية تعاني من مخاطر نشاط القرصنة البحرية المتبادلة بين المغاربة والأوربيين، فإن اللصوصية وانعدام الأمن على طول المسالك البرية كان هو الخطر الكبير الذي أعاق التجارة السبتية، خاصة في القرن الثامن / 14 م، رغم المحاولات التي قام بها بعض السلاطين المرينيين²⁴⁵.

Lévi-Provençal, E., *Histoire de l'Espagne musulmane*, T.3, Paris, 1950, p. 324. - 243
Krueger H. C., "The Wares of Echange in the Genoese African Traffic of the - 244
twelfth Century", op. cit., p. 70.; Idem, "Genoese Trade with Northwest Africa ", op.
cit. p. 382-392-394.; Posac Mon C., "Relaciones entre Génova y Ceuta durante el
siglo XII", *Tamuda*, 1959, pp. 165.

245 - مثل السلطان أبي الحسن الذي عمل على تعمير «طرق المسافرين من حضرته بفاس إلى
مراكش وإلى تلمسان وإلى سبتة وغيرها من البلاد بالرتب، (وهي خيام) يسكنها أهل الوطن،
ويجري لهم على ذلك إقطاع من الأرض يعمرونها على قدر الكفاية، ثواباً على سكنى المواضع
المذكورة، يلزمون فيها ببيع الشعير والطعام وما يحتاج إليه المسافرون من الأدم على اختلافها،
والمرافق التي يضطرون إليها، هم وبهائمهم، وتحرسونهم ويحوطنون أمتعتهم، فإن ضاع بينهم



6- ضرائب التجارة البحرية

إن اتفاقيات السلم والتجارة المبرمة بين السلطات المغربية والدول الأوربية، والتي كانت تشكل الإطار القانوني للتواجد التجاري المسيحي بالموانئ المغربية، غالباً ما كانت تضم قسمين أساسيين :

- الضمانات المعطاة للتجار المسيحيين.

- الواجبات الملقاة على عاتقهم، مقابل تلك الضمانات.

ومن أهم الضمانات التي كرستها تلك الاتفاقيات، هناك حماية التجار المسيحيين، وحرية المبادلات التجارية، وضمان ملكية الفنادق ومرافقها،

شيء تضمنوه، فلا يزال المسافر كأنه في بيته وبين أهله في ذهابه وإقباله»، ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، تحقيق ماريا خيسوس فيغيرا، الجزائر، 1981، 429.

و ضمان نقل وحراسة وبيع وتسديد قيمة البضائع، بالإضافة إلى إعفاء السلع غير المباعة من واجبات الديوانة، ومبدأ المسؤولية الشخصية²⁴⁶. أما الواجبات فنجد على رأسها : التزام التجار النصارى بارتياح الموائى المفتوحة في وجههم، وأداء واجب الديوانة، والمعاملة بالمثل فيما يخص بعض التجار المسلمين²⁴⁷.

إن التحديد الأول لم يكن نابغاً من اعتبارات عسكرية أو سياسية، بقدر ما كانت تتحكم فيه الضوابط التجارية والمالية. فقد كان يجب تركيز نقط استخلاص حقوق الديوانة، للحد من عملية التهريب والانفلات من الضرائب الجمركية. ولم يلبث البند الذي ينص على ضرورة مزاولة التجار لنشاطهم في الموائى التي تتواجد بها الديوانة المغربية، أن أصبح البند الأول في كل الاتفاقيات التجارية المغربية الأوروبية. فما هي تلك الحقوق التي كانت تجيها الديوانة المغربية على سلع التجار المسيحيين؟

نشير في البداية إلى أن عمليات البيع والشراء كانت تتم داخل الديوانة وتحت إشرافها؛ سواء عن طريق البيع بالمزاد العلني، وذلك بمساعدة دلال تعينه الدولة المعنية وبحضور مفتشين وشهود²⁴⁸، أو تتم بدون مزاد علني. والعملتان كانتا خاضعتين لرقابة الديوانة، وهي المسؤولة عنهما. أما العمليات

246 - تراجع المرينيون عن هذه الضمانة في معاهدتهم مع جمهورية بيزة لسنة 1359/759 إذ ينص أحد بنودها على أنه «إن وقعت من واحد منهم [تجار بيزة] خيانة للمسلمين أو غدر في نفس أو مال فيتوقف جميع من يكون ببلادنا، حرسها الله تعالى، من تجارهم، ويكونون محوظين محفوظين في نفوسهم وأموالهم إلى أن يقع الخلاص في ذلك، ويحصل الإنصاف منهم». انظر نص المعاهدة في *Amari (M), I Diplomi Arabi del R. Archivio fiorentino*, Florence, 1863. Appendice Alla prima Serie. P. 7.

247 - انظر 84-115 Mas-Latrie, op. cit., على أن اتفاقية 1184 /580 بين الموحدين وجمهورية بيزة لم تسمح لتجار هذه الجمهورية بارتياح سوى أربعة موائى مغربية وهي : سبتة، وهران، بجاية وتونس.

248 - في الوثائق اللاتينية تسمى عملية البيع بالمزاد العلني *La Galiga* أو *Calga* وهي مشتقة كما هو واضح من «الحلقة». 193. Mas-Latrie, op. cit.

التجارية التي كانت تتم خارج الديوانة (في الفندق مثلاً)، فإن الديوانة لم تكن مسؤولة في حالة وقوع سوء تفاهم بين التجار. وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن يصل إلى الفندق من السلع إلا ما تمّ وزنه، ومراقبته، وقياسه، وكيّله، واستخلاص ضرائبه من طرف سلطات الديوانة المغربية.

ويمكن التمييز بين نوعين من واجبات الديوانة، نجدها في جميع موانئ بلاد المغرب المفتوحة للتجارة المسيحية : الواجبات الرئيسية، والواجبات الثانوية، (أو الإضافية).

أ- الواجبات الرئيسية

كانت هذه الواجبات تُجْبى على الصادرات والواردات. ولقد كانت الرسوم الضريبية المفروضة على المستوردات الأوربية تحدد بصفة عامة في 10% من قيمة السلعة. ولقد أصبحت هذه النسبة، أي العُشر، عُرفاً، حتى أنه لم يعد يتم التنصيص عليه في المعاهدات²⁴⁹. ولم تحد عن هذه القاعدة سوى مقتضيات اتفاقية السلم والتجارة المبرمة بين الموحديين وجمهورية جنوة سنة 1160/555 م، إذ تم تخفيض العشر إلى 8 % فقط في جميع بلاد المغرب، باستثناء مدينة بجاية حيث تم الاحتفاظ بالعُشر. لكن حتى في هذه الحالة، كان رُبع مداخل ديوانة المدينة يذهب رأساً إلى جمهورية جنوة. وسرعاً ما تمت العودة إلى قاعدة 10 % ، وأصبحت سارية المفعول على التجار الجنوبيين.

249 - في الوثائق اللاتينية تسمى هذه الضريبة في بعض الأحيان «الواجب» *Dricum*. وفي بعض اتفاقية السلم والتجارة بين المنصور الموحد وحكومة بيزة لسنة 1186/582، تم التنصيص على أن البيزيين «عليهم أن يودوا ما جرت العادة بأخذه منهم من العشر على العادات المعروفة والشرائط المعلومة». انظر Amari, 399

على أن هذه القاعدة العامة لم تكن تنطبق على جميع السلع. فقد كانت هناك إعفاءات تامة تخص مثلاً المجوهرات، والأحجار الكريمة، والحلي، التي تُباع رأساً إلى القصر²⁵⁰، أو تُشترى لصالحه في الديوانة مباشرة. كما أن الذهب والفضة التي تباع للسلطان في الديوانة، أو التي تباع لدار السكة، كانت معفاة من الضرائب؛ كذلك أعفيت السفن التي تباع للمغاربة أو لحلفائهم، وجميع المبيعات التي تتم بين نصراني وآخر. كما أعفيت الحبوب من واجبات الديوانة. أما نصف الإعفاءات، فكان يستفيد منها الذهب والفضة غير المسكوكين، والمجوهرات والحلي بصفة عامة التي لم تكن تؤدي للديوانة سوى 5 % فقط.

وفيما يخص ضرائب السلع المصدرة من بلاد المغرب فإنها كانت تحدد في 5 % من قيمة السلعة. وهذه النسبة كانت مبدئياً تؤدي على جميع أنواع السلع، وفي الواقع كانت هذه الضريبة تخضع للكثير من الاستثناءات الرامية إلى تشجيع التجارة. فقد كانت تعفى الصادرات من الرسوم الجمركية كلية حتى تتساوى قيمتها مع قيمة الواردات. كما كان يتم إعفاء السلع الغذائية الخاصة بتموين البحارة. أضف إلى هذا أن كراء سفينة مسيحية في ميناء مغربي كان يعطي لصاحب السفينة الحق في تصدير قيمة سلعية معفاة من الضرائب تساوي قيمة كراء السفينة.

250 - تجدر الإشارة إلى أن اتفاقية السلم والتجارة المبرمة بين السلطان أبي عنان المريني وجمهورية بيزة سنة 1359/759 م لا تقصر هذه الإعفاءات على السلع المشار إليها في المتن فقط، وإنما تسحبها على جميع السلع. فالبنند الثامن من الاتفاقية ينص على أنه «إن ساق أحد من تجارهم يرسم الباب العالي أسماء الله تعالى فلا يكون لأحد سبيل إلى حلها ولا نظرها حتى يبلغ الباب العالي [...] فإن اشتريت منه بالباب العالي فلا يغرم عليها شيئاً، وإن لم تشتتر فيغرم عليها الغرم المعتاد». انظر: Amari, 1 *Diplomi*, Appendice, p. 4

ب- الواجبات الإضافية

أما فيما يخص الضرائب الإضافية (أو الثانوية) فقد كانت طبيعتها غير محددة بدقة، وغالباً ما كانت تخضع للعرف، ويجهل عددها بالضبط. وحسبنا أن "ماس لاطري" قد أحصى إحدى عشر ضريبة إضافية، تتراوح قيمتها ما بين 0.25% و 5% من قيمة السلعة، وترجع كلها إلى واجبات الرسو، والإقلاع، وواجبات الخزن، والوزن، وأجرة عمال وموظفي الديوانة²⁵¹.

فالمترجمون الرسميون كانت أجرتهم تصل إلى 0.5% من قيمة السلعة. أما الواجبات الإضافية الأخرى فلم يكن مقدارها محددًا في الاتفاقيات، ونجد من بينها :

- ضريبة الرطل *Roll* التي كانت تؤدي على وزن البضائع.

- ضريبة البراءة *Albara* التي كانت عبارة عن إيصال من السلطات المغربية بالديوانة يشهد للتاجر المسيحي بأنه قد أدى الواجبات الجمركية.

- ضريبة يطلق عليها اسم "منغونة" *Mangona*، وكانت تجبي بصفة خاصة في أسفي وأنفا وسبتة²⁵².

- ضريبة الانطلاقة *Intalaca* التي كانت تؤدي عند الخروج من الميناء، وبمقتضاها كان للتاجر الحق في "حمل سلعته إلى أين يشاء بمناطق المملكة، دون أن يؤدي ضريبة أخرى عنها"، ما عدا بمراكش ومكناس وفاس والرباط،

251 - 198-208 Mas-Latrie, إن الاتفاقية البيزية المغربية لسنة 1359 م تشترط على سفن بيزة أن «تعطي سرياقاً أو مخطافاً من الحديد في كل مرة تصل بالتجارة إلى المغرب»
Amari, p. 7

Pegolotti (B.), *La pratica della mercatura*, op. cit., p. 275. - 252

حيث وجب عليه دفع الضرائب المعتادة الأخرى²⁵³، وهذا الاستثناء هو الذي يميز ضريبة الانطلاقة عن ضريبة البراءة التي كانت تخول للتاجر إعفاء تاماً من دفع ضرائب أخرى، بكل مناطق الدولة المرينية، بدون استثناء. وكانت ضريبة الانطلاقة تصل إلى 1.5 % من قيمة السلعة بأنفا²⁵⁴، لكنها ترتفع إلى 5 % بمدينة سبتة²⁵⁵.

إن ديوانة سبتة كانت تجبي - كباقي الديوانات المغربية - ما بين 17 % و 18 % على سلع التجار المسيحيين، عيناً ونقداً. وأغلب هذه الواجبات كان يعود إلى الديوانة رأساً، والبقية تذهب إلى العاملين والموظفين بها وبالميناء.

ويمكن القول إن الديوانة كانت هي المؤسسة المركزية في العلاقات التجارية المغربية الأوربية. إنها الوساطة بين التجار المسيحيين والمغاربة والسلطة المحلية. لقد كانت تمثل، بحق، الحلقة الأساسية في سلسلة الإدارة المالية للدولة المغربية، والمراقبة عن قرب، والمنظمة بدقة.

وتجمع الدراسات الحديثة²⁵⁶ على أن التجارة البحرية وضرائرها كانت حيوية بالنسبة للجهاز المخزني، المستفيد الأول من تلك الضرائب. لقد كانت هذه التجارة تساعد على تقوية الجانب المالي للمخزن واستقلالته عن طريق تزويده بمداخيل شبه قارة، عكس الضرائب المستخلصة من القبائل، أو من

Idem, p. 276.- 253

254 - نفسه.

Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne catalane*, p. 524. - 255

Ch. E. Dufourcq, "Commerce du Magreb médiéval avec l'Europe chrétienne" - 256
op. cit., p. 169., Idem, *L'Espagne Catalane*, op. cit. 563; Dhina (A.), *Les Etats de l'Occident musulman aux XIIIe et XV siècles*, Alger, 1984., p. 396.

Rosenberger (B.), "L'histoire économique du Maghreb", op. cit., 215-2

الإنتاج الفلاحي، الخاضع للتقلبات المناخية. كما كان يستفيد منها عن طريق ممارسة الاحتكار التجاري في بعض الأحيان²⁵⁷. مثلاً كانت تجارة قطلونيا بمفردها توفر للخزينة المرينية ما يقرب من ستة آلاف دينار في بضعة أشهر من السنة²⁵⁸. وتتوفر على معطى رقمي هام يوضح أهمية التجارة البحرية وضرائبها في الاقتصاد المغربي : ففي القرن التاسع/ 15 م، كانت الجمارك الحفصية بمدينة تونس تحصل حوالي 170 ألف دينار سنوياً، وهو ما يقارب ثلث مداخيل الدولة الحفصية²⁵⁹.

أما بالنسبة لديوانة سبّنة، فإننا لا نتوفر على أي معطى إحصائي حول مداخيلها، باستثناء تلك الإشارة الوحيدة المتعلقة بمداخيل الخزينة الموحدية على عهد أبي يعقوب الموحد، نفيده بأن سبّنة كانت من المناطق المغربية التي تقدم مداخيل هائلة لخزينة الدولة²⁶⁰. ويجب انتظار عهد السلطان أبي سعيد المريني (توفي سنة 731 هـ / 1331 م) ليزودنا العمري بأول رقم حول مداخيل المدينة. فحسب شهادة هذا الأخير، كانت سبّنة تؤدي ما قدره 50 ألف مثقال، وراء كل من فاس ومراكش بـ150 ألف، ومكناس بـ60 ألف، وسجلماسة ودرعة بـ150 ألف²⁶¹. ونحن لا نعرف إن كانت هذه المقادير تتعلق بجباية المدينة وحدها، أو بالمدينة و"أعمالها". ولكن إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن تلك المقادير لم تكن تشمل مداخيل الضرائب على الماشية، ولا تلك المضروبة على غلات المجاشر

257 - بالإضافة إلى تلميحات مقدمة ابن خلدون إلى هذه الظاهرة، فإن وثائق أرشيفات قطلونيا تؤكد احتكار السلطة المرينية لتصدير القمح خلال القرن 14. انظر:

Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne catalane*.. 359.

258 - نفسه، 563.

Brunschvig R., *La Berbérie orientale sans les Hafsides*, t.2, Paris, 1947, p 243 - 259

260 - المراكشي (عبد الواحد)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق العريان والعلمي، ط 1، 1949، ص 255.

261 - العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص 123- 124.

والحصون والقلاع، كما لا تتدرج فيها الجزية والأعشار²⁶²، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار كذلك ما يقره ابن البلد، محمد بن القاسم الأنصاري، من كون نواحي سبتة كانت "مغفأة من الوظيف، ومحركة من المغرب"²⁶³، فإنه يمكن الجزم بأن غالبية مداخل المدينة كانت تأتي عن طريق الرسوم الجمركية التي تستخلصها ديوانة المدينة. يكفي أن نذكر بهذا الصدد أن "أعشار الزيت" التي جبتها المدينة من "مستفادها بالديوان" سنة 1250 م، كانت كافية لوحدها لتسديد حوالي سبعين ألف دينار لمملكة قشتالة نظير تجديد معاهدة صلح بين الطرفين، برغم أن موارد سبتة الجبائية هذه السنة كانت قد "تقلصت، ونضبت وانقطعت أسباب مرافقه بانقطاع أسفار النصاري له"، حسبما يستشف من رسالة ديوانية من العهد العزفي²⁶⁴.

والواقع أن مدينة سبتة كانت هي المنفذ الرئيسي لسلع المغرب على الواجهة المتوسطية، ومحط أغلب السلع المسيحية الموجهة لأسواق المغرب. فبفضل موقعها الجغرافي المتميز، ومكانتها الرئيسية داخل شبكة الطرق التجارية البحرية المتوسطية، ستمكن لمدينة من احتكار غالبية التجارة الخارجية المغربية. وتفيد وثائق الأرشيفات القطلانية مثلاً أن المدينة كانت تستقطب أكثر من ثلثي الاستثمارات القطلانية بالمغرب في مطلع القرن الثامن/ 14 م، والتي قدرها "شارل أيمانويل دوفورك"، الباحث المختص، بـ 200 ألف ديناراً سنوياً²⁶⁵. إلا أن الجرد الدقيق الذي قام به مؤخراً "جورج جيهال" حول الاستثمارات الجنوبية ببلاد المغرب خلال القرن السابع/ 13 م،

262 - نفسه، 123.

263 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 52.

264 - خلف الغافقي القبتوري، رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي، م.س.، ص 120-121

265 - Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne catalane*. 555. - 265

يظهر لنا بدقة مكانة سبتة في العلاقات التجارية المتوسطية²⁶⁶. فمن خلال الإحصائيات التي أوردها، يتبين لنا أن سبتة وبجاية وتونس كانت تمثل 98% من العمليات التجارية والرساميل الجنوبية المستثمرة ببلاد المغرب ما بين سنة 1155 م وسنة 1290 م (550-689هـ). أما 2% الباقية، فكانت تتوزع على مناطق أخرى غير واضحة، أطلق عليها أسماء غير مضبوطة مثل: "إفريقيا"، أو "بلاد البربر". ومن بين الموانئ المغاربية الثلاثة التي كانت تتركز بها تجارة جنوة، والتجارة المتوسطية بصفة عامة، يظهر أن سبتة كانت هي المركز التجاري الدولي الذي يحتل من بينها مكانة السبق. فعلى مجمل الفترة كانت الاستثمارات الجنوبية بها تمثل 37.5% من عدد العمليات التجارية، و42.3% من الرساميل المستثمرة. بينما تأتي بجاية - رغم قربها الجغرافي من إيطاليا - في المرتبة الثانية بالنسبة لعدد العمليات (30.4%)، أمام تونس (29.2%). بل إن الإحصائيات تفند آراء بعض الباحثين التي تفترض تراجع دور سبتة التجاري بعد سنة 647هـ/ 1250 م. إن هذه الإحصائيات تفيد بأن سبتة كانت تمثل 26-27% من مجموع وقيمة العمليات الجنوبية في المغرب الكبير كله. وبذلك تكون جمهورية جنوة وحدها قد استثمرت ما يقرب من 45 ألف ليرة في سبتة خلال القرن السابع/ 13 م، وهو رقم ضخم يوضح بلا شك أهمية المقادير الضريبية التي كانت تستخلصها ديوانة المدينة.

ومن المؤكد الآن أن الديوانة كانت أهم مؤسسة حكومية بالمدينة. بل إن سبتة هي المدينة المغاربية الوحيدة التي كانت تتوفر على أربع هيئات مالية، تسمى "دار الإشراف"، ثلاث منها مرتبطة بالتجارة الخارجية وبالبحر. فهناك "دار الإشراف على عمالة الديوان"، وكانت توجد أمام فنادق التجار النصارى،

G. Jehel, op. cit., 332. - 266

و"دار الإشراف على سكة المسلمين بقصبة المدينة"، و"دار الإشراف على سد الأمتعة وحلها"، و"دار الإشراف على البناء والنجارة وما يرجع إليها"²⁶⁷. إن وجود هذه الهيئات المالية الأربعة، ومكانة صاحب الديوانة المتميزة، قد أعطت للمدينة وضعية خاصة. فمداخيل الديوانة المرتفعة ستعطي الغلبة للإدارة المالية بالمدينة. فصاحب الديوانة كان يتمتع بصلاحيات واسعة. حتى أن البعض نعته بـ"ملك سبتة"²⁶⁸. واتخذ بعض مديري الديوانة مجالس تضاوي مجالس الأمراء بحاشيتها وبشعرائها²⁶⁹. بل إن رئيس ديوانة المدينة كانت له من الصلاحيات ما يلامس حتى مجال السياسة الخارجية. فرئيس الديوانة بسبتة كان يلعب في بعض الأحيان دور السفير المكلف بالعلاقات مع البلدان المسيحية. إن "ناصح"، رئيس ديوانة المدينة على عهد الخليفة الناصر الموحي، هو الذي راسل حكومة جمهورية بيزة في موضوع تجديد اتفاقية مراكش²⁷⁰. كما تولى صاحب الديوانة حتى مهمة سك العملة بالمدينة²⁷¹، وهو الأمر الذي يُرجح أنه لم يكن يخضع دائماً لصاحب الأشغال، أو مشرف المدينة²⁷². بل إن الإدارة المالية للمدينة وأعمالها كانت تنضاف إلى مهمة إدارة الديوانة، وقد يتولاها شخص

267 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س.، م. س. 41-42.
 268 - ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج. 2، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1955، ص 316.

269 - رفع الأديب النحوي أبو عمران موسى الطرياني قصيدة مدحية إلى القائد أبي السرور «صاحب ديوان سبتة»، فأنعم عليه بذلك، «ثم أتبعه بتحف مما يكون في الديوان مما يجلبه الإفرنج إلى سبتة»، المقري، أحمد، نفح الطيب، ج. 4، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1988، ص 131.

Amari. op. cit, 46-53. - 270

271 - عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، م. س. ص 278.

272 - عن هذه الوظيفة، انظر عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، 177-179.

واحد، كما هو الشأن بالنسبة لابن همشك التنملي، الذي تولى "أشغال سبتة براً وبحراً"، في عهد الناصر الموحدي²⁷³.

وإذا كانت رئاسة الديوانة غالباً ما أسندت إلى الشخصيات الهامة في الدولة وإلى الأمراء وأفراد الأسرة الحاكمة، فإن الوظيفة ذاتها سيتولاها بسبتة بعض الموالي ذوي الخبرة في الشؤون المالية، مثل ناصح، "صاحب ديوان سبتة"، و"مملوك" الخليفة الموحدي الناصر²⁷⁴، كما تولاها كبار تجار المدينة وأغنيائها. لقد كانت الديوانة هي الخطوة الأولى والأساسية نحو تسلم السلطة بالمدينة. فأبو العباس اليانشتي كان "من كبار التجار وذوي المروءة واليسار"²⁷⁵، وقد "تدرج من كاتب في الديوان إلى أن ولي الديوان، وظهر وصار له حديث مع أصحاب الدولة"²⁷⁶. كما أن ابن خلاص، الذي خلفه على رأس سبتة، كان قد تولى نفس الوظيفة، وأصبح من كبار أغنياء المدينة بفضل شراسته التجارية مع تجار مرسليليا²⁷⁷. والواقع أن مقاليد المدينة كانت قد استقلت بيد كبار تجارها الذين كانوا "يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة"²⁷⁸.

273 - ابن سعيد (أبو حسن علي)، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلي، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة - بيروت، ط 2، 1980، ص 98.

274 - التجاني، رحلة التجاني، م. س، 1957، ص 359.

275 - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب. قسم الموحدين، بيروت 1985، ص 294.

276 - الصفدي (صلاح الدين)، الوافي بالوفيات، الجزء 7، ط 2 باعتناء إحسان عباس، 1981، ص 290

277 - Cherif (M.), *Ceuta aux époques almohade et mérinide*, op.cit., 1995. - 277

278 - ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط. 2 الجزائر، 1982، ص 139.

خلاصة مؤقتة

التجارة الخارجية والاستقلال الذاتي: أية علاقة؟

إذا كانت الدراسات الحديثة تؤكد أن التجارة البحرية وضرائها قد وفرت مداخيل قارة ومضمونة للسلطين، وتعتبرها من أبرز علامات الازدهار الاقتصادي لمغرب العصر الوسيط، فإن هذه الأهمية لا يجب أن تحجب عنا أن التجارة البحرية، المختلفة عن التجارة الصحراوية "في اتجاهها، وتنظيمها، وموادها، وجنس أصحابها"، لم تكن "تفيد إلا الأمير وبطانته"²⁷⁹، خصوصاً في فترات الاضطراب السياسي. وإذا سلمنا بأنها كانت موجهة للتصدير أكثر منها للإيراد، وأن الميزان التجاري كان في صالح المغرب بصفة عامة²⁸⁰، فإن المداخيل السهلة التي كانت توفرها للسلطين وحاشيتهم لم تساهم في الدفع بالقوى الإنتاجية الداخلية للتطور. هذا ما أصبح جزءاً من معطيات البحث التاريخي المغربي، وأشار إليه باحثون كثر²⁸¹. لكن التجارة البحرية كانت من العوامل الهامة التي شجعت ظاهرة الاستقلالات السياسية إبان ضعف السلطة

279 - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، 2، الدار البيضاء، 1994، ص 166-167.
280 - والواقع أن هذا الميزان لم يكن دائماً لصالح بلاد المغرب. ولقد تفتن السلطان العبدلواذي، أبو حمو، إلى عدم تكافؤ الميزان التجاري بين بلده والبلدان الأوربية. وكان يفكر في الإبقاء على التجار المتعاملين مع السودان فقط، لأن «من سواهم يحمل منها الذهب، ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب، ومنه ما يغير من العوائد ويجر السفهاء إلى المفاسد»، نفع الطيب، 206/5.

281 - إيف لاكوست، العلامة ابن خلدون، ترجمة ميشال سليمان، بيروت، ط. 2، 1978، ص 22.

Kably (M.), *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age*, Paris, 1986, p. 96.

Vidiasion (Maria F.), "Le Maghreb médiéval: "mercantilisme parasitaire" ou société productrice", *Anaquel de Estudios árabes*, N°3, 1993, pp: 241-246.

المركزية. بل إننا نلاحظ أن هناك توافقاً تاماً بين نمو التجارة البحرية وتغلغلها بسببته، وتعميق ظاهرة الحكم الذاتي بالمدينة²⁸².

فالازدهار التجاري للمدينة الذي نتحدث عنه النصوص العربية، وتدعمه إحصائيات الوثائق اللاتينية، وهو الازدهار الذي يمتد على طول القرن السابع/ 13 م، قد تزامن مع انفلات قبضة السلطة المركزية عن سببته، وظهور "منتزين" ورؤساء مستقلين، وعلى رأسهم رؤساء ديوانة المدينة. فأبو العباس اليانشتي أعلن استقلاله بالمدينة وتلقب بالموفق، واستمر على رأس سببته ما بين سنة 630 و 633 هـ / 1233 - 1236 م. وابن خلاص رئيس الديوانة الآخر نحى نفس المنحى؛ إذ انتزى بالمدينة ما بين 635 و 639 هـ / 1238 م و 1242 م. أما بنو العزفي الذين استقلوا بالمدينة وحكموها بطريقة وراثية لمدة تزيد عن سبعين سنة (ابتداء من سنة 647 هـ / 1250 م)، فإنهم ارتبطوا بالتجارة البحرية ارتباطاً عضوياً، وكانوا شركاء للتجار القطلانيين²⁸³. بل إنهم دافعوا عن مبدأ التعايش السلمي المبني على التعامل التجاري مع العالم المسيحي²⁸⁴. ولم يستطيعوا الاحتفاظ باستقلالهم الذاتي إلا بفضل القاعدة المادية (أو العسكرية) التي وفرتها لهم التجارة البحرية وضرائبها²⁸⁵.

إن ظاهرة الاستقلال الذاتي نجدها كذلك بالمناطق المرتبطة بالتجارة البحرية من ساحل المغرب الأوسط، حيث ظهرت "مدن مستقلة" بمنطقة مليانة مثل: شرشل، والجزائر، وبرشك²⁸⁶، وكذلك بإفريقية حيث برزت "سلطنات" مستقلة،

Cherif M., "Taxes maritimes et autonomie politique à Ceuta", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, VII, 1995. - 282

Dufourcq (Ch. E.), *L'Espagne catalane*, 57. Cherif M., *Ceuta*. op. cit. - 283

284 - خلف الغافقي القبتوري، رسائل ديوانية، م. س. 118-120.

Cherif M., *Ceuta*. op. cit. - 285

Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne catalane*, 268. 452. 476. 563. - 286

كجاية، والمهدية، وتونس؛ وهي السلطنات التي شجعتها الدول الأوربية بالدعم المادي الذي كانت توفره لها عن طريق التجارة²⁸⁷. لقد كتب "دوفورك" بخصوص هذا الترابط بين الانتزاع والتجارة البحرية قائلاً: "عندما يكون 'سيد' سبتة أو 'سيد' برشك أو 'سيد' الجزائر مستقلاً فعلياً إن لم يكن قانونياً، وعندما يصبح منتزع عبد الوادي سلطاناً بمليانة أو بشرشل، فإنه يكون مستعداً دائماً للتفاهم مع الأوربيين الذين يكون منافسهم على علاقة حسنة مع خصمه الرئيسي"²⁸⁸، بل إن زعماء المناطق المستقلة كانوا - كزعماء سبتة - من كبار التجار²⁸⁹.

إن التاريخ السياسي لمدينة سبتة يقدم مثلاً واضحاً عن توافق التغلغل التجاري البحري المسيحي وسيرورة ظاهرة الاستقلال عن السلطة المركزية، ليس فقط عند ضعف هذه الأخيرة، وإنما حتى في فترات قوتها، كما تشهد بذلك تجربة بني العزفي، الذين حافظوا على استقلالهم الذاتي رغم محاولات المرينيين المتكررة لإخضاعهم، ولو عن طريق اللجوء إلى طلب مساندة القوى البحرية القطلانية في بعض الأحيان. إن ما افترضه الأستاذ عبد الله العروي في معرض مقارنته بين التجارة الصحراوية والتجارة البحرية من كون "الأولى توحد، في حين أن الثانية تمزق المجتمع إن كان في حالة ضعف وانحطاط"²⁹⁰، قد يجد إثباته في الدراسة المعمقة لتاريخ المدن المغربية الساحلية؛ وهي المدن التي قد يفصح تاريخها السياسي عن نفس الظاهرة التي لمسناها في التاريخ السياسي لمدينة سبتة. وهذا الموضوع ما يزال مفتوحاً أمام الباحثين الذين عليهم أن يتوفروا على معرفة كافية باللغة اللاتينية لاستنطاق وثائقها حول هذه الظاهرة.

287 - انظر Dhina, op. cit., 267-283 (وهو لا يربط ظاهرة الاستقلالات بالتجارة البحرية)

288 - Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne catalane*, 452.

Idem, 367.

289 - Laroui A., *L'histoire du Maghreb*, I, Paris, 1970, p. 201.

المبحث الثاني :

السكان والبنية الاجتماعية

أولا : عناصر السكان

1 - المسلمون

إن أول من سكن سبتة، حسب التقليد الذي كان سائداً بالمدينة حتى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، هم بربر ينحدرون من سبط ابن نوح الذي نزل سبتة بعد الطوفان²⁹¹. إلا أن المدينة سيعمرها أفراد قبيلة غمارة التي تقع سبتة ضمن مجالها الجغرافي. وفي بداية القرن الثاني/ الثامن الميلادي، عرفت المدينة وصول الموجة العربية الأولى إليها، والمشكلة أساساً من جحافل الجنود العرب الفاتحين. ولكن مع ثورة الخوارج بزعامة ميسرة، سيقوم بربر طنجة بمهاجمة المدينة، وطردهم منها وتخريبها، و"بقيت خراباً يعمرها الوحش مدة"²⁹² حتى أعاد إعمارها ماجكس، أحد زعماء البربر. ونجح ابنه، عصام الغماري، في إنشاء إمارة بها، حملت اسمه، واستمرت حتى القرن الرابع/ العاشر الميلادي. وعرفت المدينة تحت حكم هذه الدولة، وفود هجرة عربية ثانية، شكلتها عناصر قبيلة قلشانة من منطقة شريش بالأندلس، الذين أجبرتهم المجاعة و"أيام المحل" على مغادرة الجزيرة، والتوجه نحو سبتة، حيث ساهموا في إعادة تعميرها، ببناء منازلهم على المساحات التي اشتروها من بربر المدينة.

291 - أزهار الرياض، ج 1، 29-30 (نقلا عن الحجاري).
292 - البكري، 204؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، 203؛ ابن خلدون، العبر، ج 6، 211.

ويبدو أن البكري يشير إلى هذه التركيبة السكانية عندما يخبرنا في القرن الخامس/ 11 م بأن سكان سبتة يتشكلون من العرب والبربر؛ " فعربها تنسب إلى صدف، وبربرها من ناحية أصيلة والبصرة"²⁹³.

وعرفت المدينة وصول عناصر أخرى ساهمت في تزايد عدد سكانها، فالعناصر الأندلسية هي التي شكلت العنصر الإثني الأكثر أهمية، والذي كان له تأثير كبير في تطور المدينة على جميع الأصعدة. وإذا كانت الاتصالات البشرية لم تنقطع تاريخياً بين العدوتين²⁹⁴، فإن وتيرة الهجرة الأندلسية إلى سبتة قد عرفت تسارعاً كبيراً نتيجة لحركة الاسترداد المسيحية، وخصوصاً بعد سقوط المراكز الحضرية الأندلسية المهمة، كبلنسية وقرطبة وإشبيلية، في النصف الأول من القرن السابع/ 13 م. لقد أدت حركة الاسترداد إلى جلاء عدد كبير من المسلمين الذين لم يكونوا يتصورون البقاء على أرض أندلسية أصبحت بيد النصارى. فبعد سقوط إشبيلية مثلاً، عرفت سبتة وصول موجة كبيرة من المهاجرين الإشبيليين، قدرها المؤرخ البرتغالي "ماسكارينة" - الذي عاش في بداية القرن العاشر/ 16 - بمائة ألف نسمة²⁹⁵. وعلى الرغم من طابع المبالغة في تقديره، فإنه يؤشر مع ذلك على أهمية سبتة كمركز لاستقبال

293 - البكري، 204. لكن تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من التفاخر بالأصول العربية (انظر مثلاً ابن خميس، (شارك في تأليفه) أعلام مالقة، مخطوط خاص، ورقة 14) فإن «التضامن المدني» هو الذي كان له دور كبير في العلاقات الاجتماعية بالمدينة وليست العصبية القبلية.

Romero C., *Emigradores andalusies al Norte de Africa y al Oriente Medio*, - 294 siglos VIII-XV, Tesis doctoral, Granada, 1989.

Mascarenhas G. De, *Historia de la ciudad de Ceuta*, Ed. Dornellas. Lisbonne, - 295 1918, p. 58

وانظر كذلك :

Valencia. R., "La emigración sevillana a través de Ceuta en la alta Edad Media, *Actas del Congreso Internacional del Estrecho de Gibraltar*, II, 1988, pp. 221-230.

الأندلسيين النازحين عن ديارهم، خصوصاً وأنها كانت الميناء الأول في طريقهم إلى الحواضر المغربية والمغاربية الأخرى. ومن المستحيل معرفة الأهمية العددية للعنصر الأندلسي الذي استقر بسببته مؤقتاً، أو بصفة دائمة. فكتب التراجم، على أهميتها، لا تكفي وحدها لإعطاء تقديرات عددية عن الأندلسيين المهاجرين في فترة من الفترات التاريخية نحو بلاد المغرب.

لا شيء يؤكد لنا أن هؤلاء الأندلسيين شكلوا مجموعة متميزة، أو سكنوا أحياء خاصة بهم، أو أعطيت لهم امتيازات رسمية معينة، كما كان شأنهم في تونس الحفصية مثلاً، والتي توافدوا عليها بكثرة كذلك²⁹⁶. فالقادمون الجدد لم يكونوا يختلفون عن السبتيين، لا في اللغة، ولا في اللباس، ولا في التقاليد الغذائية، ولا حتى في الأعراف. لقد كانوا قريبين جداً من السبتيين، واندماجهم في المجتمع السبتي لم يكن يطرح أية صعوبة. إذ كانت المدينة قد عرفت التأثيرات الأندلسية منذ زمن بعيد، وكانت على المستوى الحضاري العام، قريبة جداً إلى المدن الأندلسية الأخرى.

إن مصادرنا تلقي الأضواء على النشاط العلمي لهؤلاء الأندلسيين، وتظهر دورهم الكبير في تنشيط الحركة العلمية بسببته، وإشعاع الثقافة العربية الإسلامية بها²⁹⁷. كما تبرز بوضوح كيف كانوا قد شكلوا مجالس أمرائها الذين كانوا هم أنفسهم أندلسيين، مثل اليانشتي وابن خلاص. ومع ذلك فمن المؤكد أن هؤلاء الأندلسيين قد زاولوا الحرف اليدوية، واشتغلوا بالتجارة²⁹⁸.

Brunschvig, *La Berbérie Orientale sous les Hafssides*, op.cit., II, , p. 155. - 296
Daroua M., *Les oulemas andalous au Maroc aux époques almoravide et almohade*, Thèse de 3^e cycle, Paris 1, 1988. - 297
298 - تجدر الإشارة إلى أن أهمية العنصر الأندلسي لم تغب عن بال المعاصرين. وشهادة ابن غالب واضحة في هذا الموضوع، رغم طابع «المنافرة بين العدوتين» التي يطبعها،

بالنسبة لباقي البلاد الإسلامية، كان للتيار القادم من المغرب الأوسط (وخاصة من تلمسان)، ومن إفريقية تأثيراً اجتماعياً معيناً، في حين يكاد يكون أثر تيار الهجرة المشرقية منعدماً بالمدينة²⁹⁹. بل على العكس من ذلك، ساهم السبتيون المتوجهون إلى الشرق للحج، أو للدراسة، أو للتجارة في تزايد عدد المغاربة في المدن المشرقية. وأخيراً لم يلعب الزنوج القادمون والمستقدمون من السودان إلا دوراً محدوداً في تشكيل التركيبة السكانية السبتية.

2 - اليهود

لا تتوفر إلا على معلومات هزيلة بخصوص تاريخ اليهود بمدينة سبتة. فبعض الباحثين يذهب إلى أن استقرارهم بالمدينة يعود إلى أزمنة بعيدة، وأن سبتة كانت "المركز الرئيسي للعلاقات بين اليهود الإسبانيين واليهود الفلسطينيين - الرومانيين من جهة، وبين القبائل الداخلية شبه البربرية من جهة

يقول: «لما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المبيدة، تفرقوا بلاد المغرب الأقصى من بر العدو مع بلاد إفريقية. فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها فاستنبتوا المياه، وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحى الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرفت بلادهم وصلحت أمورهم، وكثرت مستغلاتهم وعمت خيراتهم... وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال والمستعملون في أمور المملكة. ولا يُستعمل بلدي ما وجد أندلسي. وأما أهل الصنائع فإتبعهم فاقوا أهل البلاد، وقطعوا معاشهم، وأخملوا أعمالهم، وصيروهم أتباعاً لهم، ومتصرفين بين أيديهم»، المقري، أحمد، نفح الطيب، الجزء الثالث، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ص 152.

299 - من الإشارات النادرة التي وقفنا عليها بهذا الصدد إشارة في نوازل القاضي عياض إلى "رجل من أهل الشرق المستوطنين عندنا"، مذاهب الحكام ص 230

أخرى³⁰⁰؛ وأن اليهود السبتيين قد اعتبروا دائماً مدينة سبته "إحدى أقدم مدن العالم اليهودي"³⁰¹.

ويظهر أن هذا التواجد اليهودي القديم لم يستمر، لأسباب مجهولة³⁰²، لأن أول الإشارات التاريخية المؤكدة³⁰³ عن الحضور اليهودي بسبته تعود إلى نهاية القرن الخامس/11م فقط؛ ونجدها في الاستفسار الفقهي الموجه إلى يوسف بن مكاش³⁰⁴، وفي وثائق الجنيزة³⁰⁵. أما خلال القرن السادس الهجري/12م، فقد أصبحت الجالية اليهودية في سبته واحدة من أكبر وأقوى الجاليات اليهودية بالغرب الإسلامي³⁰⁶.

-
- Slouschz, "Histoire des Juifs du Maroc", *Archives Marocaines*, 1906, p. 408. - 300
301 - نفسه، 399؛ ويرجع الباحث الإسباني غوزالبيس غرابيوطو هذا الادعاء إلى كون "يهود سبته، مثلهم مثل باقي يهود الغرب المسيحي، حاولوا التخلص من تهمة أنهم ينحدرون من فلسطين، بالتأكيد على أن أجدادهم استوطنوا هذه المدينة قبل وفاة المسيح، وهذا ما وجدناه- يقول الباحث الإسباني- على سبيل المثال عند الجماعة اليهودية بطليطلة التي عثر بها على رسالة قديمة تقول أن يهود طليطلة طلبوا من يهود فلسطين العفو عن شخص المسيح عليه السلام. ليس هناك شك أن نصوصاً من هذا القبيل عرفت رواجاً في أماكن متعددة، لأنها تستعمل على تخليص أجدادهم من تهمة قتل المسيح، ووجدنا ذلك لدى يهود إسبانيا والبرتغال والمغرب. وبهذه المعتقدات كانوا يحاولون التصدي للانتقادات التي يوجهها لهم المسيحيون والمسلمون الذين كانوا يعتبرونهم أجنباً عن هذه الأراضي". Gosalbes Cravioto E., *Notas para la historia de los Judios en Ceuta*, Ceuta, 1989, p. 7 (وقد أعدنا ترجمة عربية لهذا الكتاب ستصدر مستقبلاً)
- 302 - قد يكون احتلال البيزنطيين لسبته سنة 636 م قضي على اليهودية، إذا كان لها فعلاً أي وجود بسبته (Gosalbes Cravioto, E., *Los Bizantinos en Ceuta (siglos VI-VII)* Ceuta, 1986)
- 303 - حسب «سلوش» (ص 78 والذي لا يقدم أي دليل مصدري) تواجدت مدارس عبرية منذ القرن العاشر الميلادي بسبته.
- 304 - Chouraqui A., *Histoire des Juifs en Afrique du Nord*, Paris, 1985, p. 158.
- 305 - حوالي سنة 1100 سمح أبراهام، أحد اليهود ليهودي آخر بمصاحبته في سفرية تجارية إلى سبته. Goitien., *A Mediterranean Society, The Jewish Communities in the Arab World*, Berkly, Los Angeles... 1967. II. 307 (ومن سبته سترسل نسخة من ساروخ «إلى تاجر في القسطنطينية» (نفسه، ج 1، ص 64).
- Gosalbes Cravioto E., *Notas*, op. cit., p. 21- 306

ومن المؤكد أن تكوين هذه الجالية اليهودية بالمدينة وأهميتها قد أربطها بنشاطها التجاري، وبالعلاقات التي نسجتها مع الجاليات اليهودية الأخرى بحوض البحر الأبيض المتوسط. فقد كانت العلاقات التي تربط يهود المدينة بأبناء ديانتهم في مختلف بلدان الحوض المتوسطي تسهل العلاقات التجارية إلى حد كبير. إن تجانس الجالية اليهودية المتوسطية ودورها في سيولة الحركة التجارية والرساميل وتوزيع السلع، ليس بحاجة إلى توضيح. فهناك دراسات متخصصة عديدة أوضحت أهمية العنصر اليهودي في شبكة التجارة العالمية في العصر الوسيط. "بفضل حركيته، ووضعيته القانونية غير الثابتة، وقدرته الكبيرة على التكيف، وبفضل موقعه على حدود الثقافات الغربية والشرقية، سيساهم العنصر اليهودي بسرية إن قليلاً أو كثيراً، في خلق شبكات من العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية بين أوروبا وإفريقيا الصحراوية، عن طريق سبتة أو تلمسان أو تونس"³⁰⁷. ونعرف مثلاً اليهود السبتيين الذين كانت لهم علاقات تجارية مع الجاليات اليهودية المصرية، والقطلانية، والمرسيلية، والجنوية³⁰⁸.

بالإضافة إلى التجار والحرفيين، وُجد بين يهود سبتة علماء في القانون التلمودي، وفي اللغة العربية وفي الطب. فنحن نعلم وجود طبيب يهودي إسمه "يوسف السبتي" كان صديقاً حميماً لابن ميمون، وكان يعتبر نفسه تلميذاً له³⁰⁹. وتلقي المصادر العبرانية الأضواء على المكانة الثقافية لليهود بسبتة خلال القرن السادس / 12 م. فأحد يهود المدينة الذي كان يشتغل صائغاً كتب في

Jehel G., *Les Génois en Méditerranée occidentale*, op. cit., 210. - 307
Amran Cohen R., *Ceuta y el mundo cristiano mediterráneo durante los siglos XII y XIII*, Ceuta, 1986, p. 19.
Lerido, A.I., *Les noms des juifs au Maroc. Essai d'onomastique* - 309
judéomarocaine, Madrid, 1978, p. 378

آخر أيامه، بعد فشله في حرفته، "طلب مساعدة بالعبرية وبالعربية، بأسلوب جيد وخط جميل، يشهدان على تمكنه من اللغتين"³¹⁰. وقد ظل هذا اليهودي يعتبر نفسه مغربياً بعد أن عاش بمصر أكثر من سبعة عشر سنة³¹¹. وشهدت سبته في سنة 1179م سجالاتاً دينياً بين أحد التجار الجنوبيين، واسمه Guclielme Alfaquino الذي كان يتردد باستمرار على مدينة سبته، مع الربّي اليهودي بها، وإسمه موسى أبرايين "Moïses Abrayn"³¹². كما وصلنا نص آخر حول مجادلة دينية بين أحد السبتيين، وإسمه أبو طالب، ويهودي إسمه صامويل، من طليطلة، وذلك سنة 1340م. ولقد ترجم نص هذه المجادلة، ألفونسو بونومي، أسقف المغرب، سنة 1350م³¹³، مما يؤشر على أهمية سبته كمركز للجدل الديني في العصر الوسيط.

وفي سبته ولد، سنة 555هـ / 1160م، يوسف بن أقنين، الملقب بأبي الحجاج يوسف بن شمعون السبتى المغربي. وتلقى تعليمه بالمدرسة الجديدة التي بناها السلطان أبي الحسن المريني. لقد كان من أشهر تلامذة ابن ميمون، وإليه أهدى هذا الأخير كتابه "دلالة الحائرين"³¹⁴.

ويعتقد بعض الباحثين - دون تقديم حجة- أن يهود سبته قد تجمعوا منذ القرن الخامس الهجري / 11م بالمنطقة الشمالية للمدينة، عند سفح جبل المينا

Chouraqi, op. cit 158. - 310

Goitien, *A Mediterranean Society*, I, 63. - 311

Gosalbes Cravioto E., *Notas*, op. cit., p. 29- 312

A. Lopez, *Obespos en el Africa septentrional desde el siglo XIII*, Tanger, - 313
1941, p. 77 والجدير بالذكر أن هذه المجادلة التي تمت بين مسلم ويهودي تخلص إلى أن

الدين الحق هو الدين المسيحي. ولذلك شكك الباحثون في حقيقة هذا الجدل الديني. انظر :

Gosalbes Cravioto E., *Notas*, op. cit., p.41

314 - توجد رسالة ابن ميمون إلى يوسف بن أقنين في كتاب «دلالة الحائرين» Maïmonide,

Guide des égarés, éd. Verdier, Paris, 1979, p. 179-180

Hacho، نظرا لميلهم ورغبتهم في العيش بحرية في تجمعات سكنية بمناطق محددة، وأن حيا يهوديا خاصا قد وجد بسببة منذ بداية سنة 1328م³¹⁵، وأن العبريين سيخلون منذ هذا التاريخ، عن منازلهم المتفرقة عبر المدينة للاستقرار والتجمع في منطقة بعيدة عن المسلمين³¹⁶.

والواقع أننا لم نقف على أية إشارة إلى المؤسسات اليهودية الخاصة، كالمقبرة أو الحي، التي كانت ستؤكد أهمية التواجد اليهودي بالمنطقة. فالأنصاري الذي أشار إلى فنادق النصاري، لم يشر إلى أي تواجد مادي لليهود. إنه يشير إلى ربح "الحارة" الذي حاول بعض الباحثين تشبيهه - دون دليل مقنع - بالملاح³¹⁷. كما أن تأليف يهودي سبتي أعلن إسلامه لرسالة جدالية ضد اليهودية لا يمكنه أن يبرز أهمية ذلك الحضور اليهودي³¹⁸؛ كما لا يمكن أن يبرزها مرسوم السلطان أبي الحسن المريني لسنة 739 هـ/ 1338 م الذي يحدد

315 - في شعبان من عام 726 هـ/1325م أمر السلطان أبي سعيد عثمان المريني ببناء حي خاص باليهود في مدينة فاس الجديدة (ابن أبي زرع، روض القرطاس، الرباط، 1982، ص 414) ولعل غوزالبيس كرافيوطو أسقط هذا الأمر على سببة.

Gosalbes Cravioto E., *Notas*, op. cit., p. 38- 316

Gosalbes Cravioto C., "La judiria y los judios en la Ceuta medieval", *Boletín - 317 de la Asociación Española de Orientalistas*, XVIII, 1982, p. 268-269.

318 - أما الرسالة فقد كتبها عبد الحق الإسلامي وتحمل عنوان «السيف الممدود في الرد على أحبار اليهود» (انظر محمد المنوني، ورفقات، 219) وكذلك :

Perlmann M., "Abdal Haqq al Islami, a jewish convert", *Jewish Quaterly Review*, XXXI, 1940, pp. 171-191

كما عرفت المدينة جدلاً دينياً آخر حوالي سنة 1340 بين أبي طالب السبتي واليهودي صمويل الطليطلي. انظر:

Reinhardt Klaus, "Un musulman y un judio prueban la verdad de la fe cristiana: La disputa entre Abutalib de Ceuta y Samuel de Toledo". In, *Dialogo Filosofico-religioso entre cristianismo, judaismo e Islamo durante la Edad Media en la peninsula Iberica*, BREPOLs, 1994, pp. 191-212

المناطق التي يجب على اليهود أداء الضرائب بها، وعلى رأسها سبتة وما والاها من البلاد³¹⁹.

في سنة 1391م دق ناقوس الخطر في إسبانيا معلنا انتهاء التعايش بين اليهود والمسيحيين، حيث عرفت هذه السنة هجوم المسيحيين على الأحياء اليهودية في كثير من المدن الإسبانية، وأرغم اليهود على اعتناق المسيحية، مما دفع بكثير منهم إلى الهجرة نحو بلاد المغرب. ويستند (سلوتش) على رواية يهودية ليؤكد لجوء يهود ميورقة إلى مدينة سبتة وتكوين جماعة منعزلة بها منذ هذا التاريخ³²⁰. لكن هذه الحادثة لا يمكن التسليم بها، لأن يهود ميورقة كانوا يمارسون التجارة في ميناء مدينة الزقاق منذ زمن بعيد. صحيح أن أكثرية يهود ميورقة الفارين من القمع المسيحي لسنة 1391م، لجأوا إلى الجزائر وتونس والمدن المجاورة، كما توضح ذلك الوثائق التي نشرها الباحث (بونس)³²¹. ومن المؤكد أن نسبة كبيرة من أولئك اليهود، وغيرهم من يهود المدن الأندلسية، قد توجهوا إلى مدن المغرب الأقصى، وعلى رأسها مدينة سبتة، نظرا لوجود جالية يهودية بها منذ زمن بعيد، وكذا لتوفر الأمن بالمدينة.

ومما له دلالة بهذا الصدد أن مؤرخا يهوديا (هو أبراهام زاكوطو) ربط احتلال البرتغاليين لسبتة، باستقبالها لجميع اليهود الذين فروا من مملكة قشتالة، وكانوا قد تحولوا مرغمين إلى الدين المسيحي، موضحا أن هذا الأمر قد

319 - المرسوم، يوجد بـ«الدوحة المشتبكة» لأبي الحسن علي المديوني، ص 179-180.
N. Slousch, "Etude sur l'histoire des juifs au Maroc. II: Les juifs marocaines - 320 de l'invasion arabe à la persécution des almohades", *Archives Marocaines*, V, 1906, p. 156
A. Pons, *Los judios del Reino de Mallorca durante los siglos XIII y XIV*, 2 - 321 tomos, Palma de Mallorca, 1984

استفز الملك البرتغالي جواو الأول وأغضبه، مما دفعه لاحتلال المدينة³²².
والمؤكد أنه عندما احتل البرتغاليون مدينة سبتة سنة 1415م، وجدوا بها جالية
يهودية مهمة، إلا أنها كانت تمر بأزمة اقتصادية، مرتبطة بأزمات المدينة في
مطلع القرن التاسع هـ/15م. وتتحدث المصادر التاريخية عن فرار يهود المدينة
إلى المناطق المجاورة عقب احتلالها، خوفا من البرتغاليين³²³. أما يهود
البرتغال فقد كانوا من المؤيدين للاحتلال البرتغالي للمدينة، بل شاركوا في
غزوها، وابتهجوا لسقوطها³²⁴.

3 - الجالية النصرانية: التجارة والتبشير

بخصوص الإطار المؤسسي للجالية المسيحية بسبتة، والشروط العامة
لاستقرارها وأنشطتها، لم نعثر على ما يفيد بأنها كانت تختلف عن ظروف
غيرها من الجاليات المسيحية بباقي مناطق المغرب في نفس الفترة. وإذا كانت
المسيحية السابقة للعصر الإسلامي بالمغرب قد ظلت قائمة إلى حدود القرن
السادس/ 12 م في مناطق المغرب الأوسط والأدنى (أفريقية)، فإن المسيحية
"الأهلية" السبتية قد اضمحلت بسرعة، على ما يعتقد. فالعناصر الفيزيقوطية
القليلية التي تم استقدامها من الأندلس إلى المغرب في القرن الثاني/ 8 م عقب
فتح العرب للأندلس، قد ذابت بسرعة داخل العناصر المحلية المغربية³²⁵.

322 - انظر عن هذا المؤرخ : H.Z. Hirschberg, *A History of the Jews in North Africa*,
2th ed. t 1, Leiden 1974, p. 384

وعن الدوافع الموضوعية للاحتلال البرتغالي لمدينة سبتة انظر كتابنا : *المغرب وحروب
الاسترداد*، م. س.

Gosalbes Cravioto E., *Notas*, op. cit., p. 46- 323

Carlos Gosalbes Cravioto, *La juderia y los judios en la Ceuta medieval*, - 324
Boletín de la Asociación Española de Orientalistas, año XVIII, 1982, p. 271;

Slousch, op. cit, 156; Mascarenhas, *Historia de Ceuta*, op. cit., p. 108;
Mesnage, *L'Afrique chrétienne*, 512. Koehler, *L'Eglise chrétienne de Maroc*, XIV - 325

ونعرف أنه إلى حدود سنة 270هـ/ 883 م، كان ما يزال يوجد بسببته قس نصراني³²⁶. أما مستعربو مالقة الذين تم ترحيلهم على يد المرابطين إلى الشمال المغربي سنة 499 هـ/ 1106 م، فيظهر أنه ليست لهم علاقة مع المسيحيين الذين سنلتقي بهم في سببته ابتداء من القرن السادس/ 12 م. فهؤلاء ليس لهم أي قاسم مشترك مع المسيحية المحلية القديمة، سواء على مستوى الأصل، أو على مستوى الوضعية القانونية. إنهم مسيحيون قدموا إليها في تاريخ قريب، وبقوا "أجانب" في المدينة. إنهم التجار والعبيد (الأسرى) ورجال الدين الذين ارتبط تاريخ وجودهم ارتباطاً وثيقاً بتطور التجارة المتوسطية.

لقد كان التجار المسيحيون يشكلون الجاليات التجارية. ووضعهم القانوني كان ينبنى "على أساس تعاقدى محدد باتفاقيات لمدة زمنية معينة"³²⁷، عقدتها القوى المسيحية مع سلاطين الدولة، أو مع أمراء المدينة، لتسهيل العلاقات التجارية. إنها اتفاقيات متعلقة بشروط استقرار المسيحيين بأرض المغرب على المستوى القانوني، بحيث تحدد :

- المجالات والبنائيات الخاصة وأماكن العبادة (مقتضيات وقوانين مرتبطة بمؤسسة الفنادق).

- شروط التنقل البري والبحري على المستوى التجاري.

- واجبات الديوانة عند الاستيراد والتصدير، وإجراءات منع التهريب والقرصنة.

Mesnage, 511-512 - 326

Cf. Brunschvig, *La Berbérie orientale...* op. cit., I. 432 - 327

لم يكن عدد التجار المسيحيين كبيراً جداً في أغلب الأحوال، وأغلبهم كان يستقر بصفة مؤقتة بسببته حتى ينتهي من عمليات البيع والشراء. ومع ذلك فإننا لا نعدم وجود أدلة تثبت أن بعض التجار المسيحيين كانوا يستقرون لفترات طويلة بالمدينة، وبعضهم قد يكون استقر بها بصفة نهائية. فبعض الوثائق المتعلقة بمؤسسة "المعونة" *Mahona* الجنوبية³²⁸ التي أنشئت لتعويض المتضررين من الهجوم الذي شنته القبائل المجاورة لسببته على السفن الجنوبية بميناء المدينة سنة 631 هـ/ 1234 م، تترك الانطباع أن هناك استقراراً دائماً للتجار الجنوبيين بالمدينة. ففي بداية القرن السابع/ 13 م تم استدعاء عدد كبير منهم للإدلاء بشهادتهم في مختلف القضايا بمدينة سافونة الإيطالية. وكان يجب إعطاؤهم مهلة ستة أشهر ليتمكنوا من القدوم من سببته مكان إقامتهم. فهذه المدة الطويلة الممنوحة لهم، لا ترتبط بمدة السفر من سببته إلى جنوة فقط، وإنما كانت ترمي كذلك إلى السماح للمستقرين بالمدينة من تسوية مختلف أوضاعهم، قبل القدوم إلى جنوة³²⁹. وهناك إشارات أخرى مباشرة عن هذا التواجد الدائم للتجار المسيحيين بالمدينة، مثل امتلاك الحوانيت والمنازل بالمدينة، وكرائها لبعضهم البعض³³⁰.

إن هذا الاستقرار المسيحي بالمدينة يطرح المشكلة الشائكة لحضور المرأة في الوسط التجاري المسيحي. فالنصوص العربية واللاتينية تبقى صامتة بخصوص هذا الموضوع. ومن المرجح أن تكون بيوت للدعارة قد أقيمت في فنادق التجار النصارى. تدل على ذلك صيغة المنع الشديدة التي واجهت بها

Di Tucci R., "Documenti inediti sulla spedizione e sulla mahona dei Genovesi - 328 a Ceuta", *Atti della Societa Ligure di Storia*, (Gênes), t. 44, 1935
 Jehel, *Les Genoïis*, 396 - 329
 Idem, 383-395 - 330

قوانين مرسيليا قضية الدعارة في فنادقها. فقد كان القنصل الفرنسي بسببته يقسم بالإنجيل بعدم فتح بيوت للدعارة في الفندق الذي يشرف عليه. من جهة أخرى، لدينا إشارات إلى وجود دور مخصصة للدعارة بسببته، كباقي المدن - الموانئ المتوسطية، ويبدو أن سلطات المدينة كانت تشرف عليها. وكانت توجد بهذه الدور أو الفنادق نساء عاهرات، عُرفن بالخرجيرات (أو خراجيات)³³¹.

لقد كان التجار المسيحيون يسكنون خارج المدينة، موزعين حسب جنسياتهم على مراكز سكاهاهم التي عرفت في جميع المناطق باسمها الإغريقي المعرب: الفندق. لن نقف عند أصول هذه المؤسسة التي انتشرت على سواحل البحر الأبيض المتوسط. فالوثائق المتوفرة تسمح بتتبع جيد لتاريخها. ولا داعي لوصف هذه البناية الواسعة، نوعاً ما، والتي كانت عبارة عن مدينة يحوطها سور، وتتوسطها ساحة مركزية، وتحتوي على جميع المرافق الضرورية للحياة اليومية؛ من حمام وخمارة وفرن ومقبرة ومحلات للنوم وأخرى للبيع والشراء، وبالتالي كانت عبارة عن سوق، وكانت تتمتع نظرياً بامتياز "الحصانة"، فحسبنا الإشارة أنه كان يقيم بها راهب للإشراف على الحياة الروحية للمسيحيين، وموثق لتحرير عقودهم التجارية وتوثيق قرارات القنصل المشرف على البناية كلها. ومن الجدير بالذكر أن فنادق التجار النصارى بمدينة سببته كانت سبعة، تقع كلها قبالة الديوانة، في الركن الشمالي الشرقي من المدينة.

331 - عبد العزيز الأهواني، ألفاظ مغربية، م. س. 155. من جهته سيلقي البيانشتي، حاكم المدينة، القبض على الشاعر ابن طلحة وهو بصحبة عاهرات. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، الجزء الثاني، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1955، ص 364.

ثلاثة منها على الأقل كانت متلاصقة، وشكلت ما كان يسمى بـ"حي الجنويين والبيزيين والمرسيليين"³³².

لكن خارج الفنادق *extra fundicum*، كان بعض التجار النصارى يتوفرون على منازل وحوانيت مكتراة، مثل التاجر الجنوي "فيكولوسو نيبيليليا"، الذي كان يتوفر على منزل بقرب باب دار الصناعة، و"أوبيزو دي كاستيلو"، الذي كان يملك حانوتاً خارج أسوار الفندق³³³.

لقد كان القنصل هو ممثل السلطة "المركزية" ومدير الفندق والمسؤول عن النظام داخله، وله سلطات على جميع التجار من بني جلدته. ومهما كانت الاختلافات التي عرفتها وظيفة القنصل، فإن جوهرها ظل ثابتاً. لقد كان القنصل هو المدافع عن مصالح التجار من جنسيته، سواء تجاه سلطات المدينة أو التجار الآخرين من جنسيات أخرى. كما كان يفصل في المنازعات بين رعايا بلده، ويصدر الأحكام، وكان الواسطة بين بلدييه والسلطات المغربية، وبينهم وبين سلطات "الميتروبول"، وكان له مقر خاص لكتابته ومراسلاته يسمى في الوثائق اللاتينية "scribania"³³⁴.

332 - 52 - 51 p. cit. Mascarenhas, op. من جهته يؤكد الأنصاري أن فنادق تجار النصارى كانت سبعة، «أربعة على صف واحد وثلاثة متفرقة»، (اختصار الأخبار، م. س، ص 42)

Jehel, *Les Génois*, 396. Dufourcq, "Aperçu...", 727. note 45 - 333

Brunschvig, *La Berbérie*, I. 437. Caille, "Le rôle des commerçants marseillais - 334 à Ceuta", op. cit., 25-26

أول إشارة إلى scibania الجنويين بسببة تعود إلى سنة 1214، وأولى الإشارات إلى فندقهم هناك تعود إلى سنة 1228م. إلا أن المؤسستين كانتا توجدان في عين المكان من قبل ذلك بزمان طويل ولا شك، إذا ما استحضرننا قدم علاقات جنوة مع سببة التي ترجع إلى القرن 12م.

أما العبيد الذين كانوا يشكلون مادة "التجارة أساسية وممقوتة" في العلاقات المغربية الأوربية، فإنهم كانوا يتشكلون من ضحايا الغزوات وعمليات القرصنة البحرية المتبادلة بين النصارى والمسلمين. وكان عددهم يعرف تباينات كبيرة. إن وجودهم باعتبارهم يداً عاملة بالمدينة وخدماء وإماء أساساً، يجعل منهم عنصراً له أهميته في المجتمع السبتي. وفي بعض الأحيان كانت الاختلافات في العقليات والعادات بين المسيحيين والمسلمين تطفو على السطح على نحو واضح، كما هو الشأن بخصوص "علج أسير"، كان يشتغل بالمدينة في كوشة مع مجموعة من الخبازين السبتيين الذين سيسبّون أحد متصوفة المدينة المار أمامهم مع مجموعة من الفقراء، فصاح فيهم العليج الأسير قائلاً: "ما هجن دينكم. هكذا تصنعون مع العباد؟ نحن خير منكم، الذين نطعم رهباننا والقسيسين الذين لنا"³³⁵. والجدير بالذكر أن متصوفة المدينة كان لهم دور في اقناع بعض النصارى لاعتناق الدين الإسلامي³³⁶.

إن وجود الجاليات التجارية بالمدينة قد جعل تدخل البعثات الدينية والإرساليات التبشيرية أمراً ضرورياً. فبيوت العبادة المنتظمة حول الفنادق استدعت حضور الرهبان والقساوسة بالمدينة. وفي سنة 624 هـ / 1227 م، كان يتولى أعلى سلطة دينية مسيحية بحي فنادق التجار النصارى بالمدينة أسقف إيطالي يسمى هوغو، "راهب الجنوبيين"، و"الأسقف الأعلى"³³⁷. وللوصول

335 - تحفة المغرب، 113

336 - نفسه، 43 (يتعلق الأمر بإسلام أحد نصارى الكرد على يد الولي عبد المالك اليجانسي

سنة 665هـ، 1267م، وذلك برباطه بحجار السودان من خارج سبتة)

Mascarenhas, *Historia de la ciudad de Ceuta*, op.cit .p. 51-52 - 337

إلى مركز الأبرشية المغربي، أي كنيسة مراكش، كان الأساقفة الذين يتولون إدارتها، والرهبان التابعين لها، يمرون بدون شك على سبته أكثر من مرة³³⁸.

وإلى جانب هؤلاء الرهبان، ظهرت بسرعة جماعات من المبشرين المسيحيين، كانوا يعملون على الاعتناء بالأسرى المسيحيين، وتزويدهم بالتحاليم المسيحية، والعمل على إطلاق سراحهم، إن أمكن ذلك. ففي نهاية القرن السادس/ 12 م، في 8 مارس 1198 (21 ربيع الثاني 594 هـ)، كتب البابا إنوسان الثالث إلى الخليفة الموحد أبي يوسف يعقوب، ليوصيه بـ"المثلثين" *Trinitaires*، وهو التنظيم الذي كان قد أنشأه قبل ذلك بقليل في مدينة مرسيليا³³⁹.

بل سيفكر رجال الدين النصارى في تمسيح المسلمين عن طريق نشاطهم التبشيري. ففي 609هـ/ 1212 م، تم إعدام خمسة عشر مبشراً مسيحياً، لمحاولتهم الدعوة للديانة المسيحية بالمغرب³⁴⁰. وفي يناير 1220 م (شوال 616 هـ)، أعدم أربعة من رجال الدين المسيحيين من "الإخوان الصغار" (*Frères Mineurs*) بمدينة مراكش، لنفس السبب³⁴¹. وبعد ذلك بسبع سنوات، في عاشر أكتوبر 1227 م (شوال 624 هـ)، تم إعدام سبعة فرانسيسكانيين إيطاليين بساحة عمومية بمدينة سبته، حيث كانوا يقومون بالدعوة للمسيحية علانية، حاملين الصليب بأيديهم³⁴². وقد دُفِنوا في فندق "الجنوبيين والبيزيين والمرسيليين"، ويوجد من بينهم "الأخ" الذي تقدسه الكنيسة تحت اسم "قديس

Dufourcq, "La question de Ceuta au XIII siècle", *Hespéris*, XLII, 1955, 78 - 338

Mars-Latrie (L. De), *Traité de paix*, 8 - 339

Dufourcq, "Les relations du Maroc et de la Castille pendant la première moitié du XIIIe siècle", *Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb*, V, 1968, p. 48

P. De Cénival, "L'Eglise chrétienne de Marrakech", *Hespéris*, VII, 1927, 70 - 341

Lopez R., *Genovesi in Africa occidentale nel Medio Evo*. p. 9 - 342

سبته دانييل³⁴³. إنها الفترة التي كان فيها القديس "هوغو" يقوم بوظيفته الدينية دون قيود بالمدينة. وعرف القرن السابع/ 13 م محاولات عديدة لإدخال المسيحية إلى المدينة. وقد وصلتنا نسخة من الزابور تم نسخه بمدينة سبته في سنة 637 هـ/ 1239 م، صاحبه (أو ناسخه) يسمى "مارتن الفرخاني، راهب من عبيد مريم المقدسة"³⁴⁴. وهذا المعطى قد يدل على وجود دير رهبان بالمدينة. كما أن سياسة الكنيسة الرومانية وفكرة الاستيلاء على سبته وتمسيحها التي صاغها الساسة المسيحيون في شبه الجزيرة الإيبيرية، ستلتقي مع بعضها البعض. ولم يقتصر العالم النصراني "رامون لول" في نظريته التوسعية المسيحية ذات البعد المتوسطي على البلاد الحفصية التي كان يتردد عليها بكثرة فقط، بل جعل من سبته الهدف الأول عندما اختمرت في ذهنه فكرة غزو المسيحيين لبلاد المغرب³⁴⁵. وحوالي سنة 658 هـ/ 1260 م تمت ترقية "الأخ" لورنزو البرتغالي، وهو من جماعة الفرانسيسكانيين، وأحد المتحمسين للحملة الصليبية ضد الشمال الإفريقي، إلى مرتبة عليا في التراتبية الكنسية، وأعطى له مقر كنيسي في أرض *in patribus* يجب انتزاعها من المسلمين، ولم تكن تلك الأرض سوى مدينة سبته³⁴⁶.

Carrière, "Les martyrs de Ceuta", in, *Le Maroc catholique*, 1924, 133. - 343
 Koehler, *L'Eglise chrétienne du Maroc (1221-1790)*, Paris, 1934, XIV.
 Mascarenhas, *Historia de la ciudad de Ceuta*, op.cit. p 50-51. Tisserant Wiet, "Une lettre de l'almohade al Murtada au Pape Innocent IV", *Hespéris*, VI, 1926. 47
 P. S. Van Koningsveld, "Christian-Arabic manuscripts from the Iberian Peninsula and North Africa: a historical interpretation", *Al Quntara*, Vol, XV, 1994, 432-433
 Dufourcq, " La question de Ceuta", 74. Dufourcq (Ch. E.), *L'Espagne catalane*, 47 - 345
 Dufourcq, "Un projet castillan du XIIIe siècle: "La croisade d'Afrique", *Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb*, I, 1966. 34 - 346

في نهاية التحليل، يظهر أن اهتمام الكنيسة كان منصباً على التجار المسيحيين الذين كانت تعمل على تطهيرهم. ففي 25 أكتوبر 1246 م (7 جمادى الثانية 644 هـ)، كتب الباب إنوسان الرابع إلى "أمرء" تونس وبجاية وسبتة - أي إلى أمرء المدن التجارية الرئيسية مع العالم المسيحي - ليذكرهم بأن أغلبية المسيحيين المستقرين في مدنهم يتعاطون التجارة³⁴⁷.

* * *

بعد أن وقفنا على العناصر المشكلة للسكانة السبتية، تطرح قضية عدد سكانها. إن فقر الوثائق بخصوص هذه النقطة لا يوازيه سوى ضعف الدراسات في الديموغرافية المغربية الوسيطية. فالإشارات التي يقدمها الأنصاري حول مختلف المؤسسات الدينية والمدنية للمدينة (حمامات، أفرنه، مساجد، مقابر، توسيع الجامع، ظهور أرباض جديدة... إلخ)، والتي تشهد على ازدياد مطرد في عدد سكان المدينة، لا تستطيع لوحدها إزالة الضبابية التي تخيم على التاريخ الديموغرافي للمدينة. إن بعض الدراسات التي تقدر عدد سكان سبتة في العصر الوسيط بثلاثين ألف نسمة، وتجعلها تفوق تقديرات سكان حواضر أندلسية هامة، مثل: ألمرية وميورقة ومالقة وغرناطة قبل النصرين، تبقى مجرد

Mars-Latrie, *Traité*s, 13. Tissrant et Wiet, "Une lettre...", op. cit., 47 - 347 في الحقيقة هناك سلسلة من الرسائل البابوية لـ(إنوسان الثالث) سنة 1198 و(هونوريوس الثالث) سنة 1226 و(غريغوا التاسع) سنة 1233 و 1237 و(إنوسان الرابع) سنة 1246 و 1251 كان من بين أهدافها كلها "استمرار المسيحية، ومساعدة الأسرى المسيحيين وحتى التحريض على عمل المبشرين الفرنسيين الذين كانوا يجوبون البلدان الإسلامية". ولقد شارك الجنويون في هذا النشاط نظراً لتداخل المصالح الاقتصادية والدوافع الدينية في سياسة الجمهورية الجنوبية. وليس جزافاً أن تضم حملة الأخوين فيفالدي Vivaldi- التي انطلقت من جنوة سنة 1292م للوصول إلى خليج غينيا عبر مضيق جبل طارق- فرنسيسكيين من بين أعضائها. (انظر: جورج جيهال، "جنوة وبلاد المغرب"، م. س. ص 108)

افتراض³⁴⁸. والمؤلفون الذين يحكون قصة استيلاء البرتغاليين على المدينة، ونزوح أهلها عنها لا يعطون أية تقديرات لعدد سكانها. ولم يحدد الحسن الوزان عدد كاتونات المدينة، كما كان يفعل بخصوص الحواضر الأخرى. ومع ذلك، فإنه يقرّ أن المدينة ظلت مذكّرة فتحها الإسلامي "تنمو باستمرار، سواء فيما يتعلق بعدد السكان أو بشرف أرومتهم، إلى أن صارت أجمل مدن موريطانيا، وأكثرها سكاناً"³⁴⁹. وراء هذه المبالغة يمكننا القول إن المدينة كانت تعرف في بعض الفترات التاريخية مشاكل مرتبطة بالتزايد السريع لعدد سكانها. فأحد متصوفتها في العصر الموحي لاحظ أن المدينة "لا تحتل الزحام، ولا تعين على ما يجب من صلة الأرحام"³⁵⁰. إن الاستقرار السياسي النسبي الذي تمتعت به المدينة خلال العصر الوسيط جعل منها مركز احتضان للأندلسيين الذين طردتهم حركة الاسترداد المسيحية، ومكان جلب للمغاربة بصفة عامة.

Gozalbes Cravioto C., " El agua en la Ceuta medieval", *Transfretana*, 5, 1993, - 348 p. 61; Idem, "La demografía de la Ceuta medieval", II *Congreso Internacional El Estrecho de Gibraltar*, (Ceuta, Novembre, 1990), Vol. III

349 - وصف إفريقيا، 317

350 - تحفة المغرب، 176

التراتبية الاجتماعية

إننا لا نتوفر على معلومات دقيقة حول مسألة توزيع الخيرات واقتنائها بسببته في العصر الوسيط. ويصعب تحديد المكانة التي تحتلها كل فئة اجتماعية في صيرورة الإنتاج. وإن كنا نستطيع التمييز بين درجات متعددة وأصناف مختلفة داخل البنية الاجتماعية المحلية، فإنه لا يمكننا الكلام إلا عن "تراتبية اجتماعية"، نميز داخلها بسهولة بين كبار التجار وصغارهم، والحرفيين، والعييد والعمامة؛ فضلاً عن فئات كانت مكانتها لا تُحدد بالمعايير المادية الصرفة، كفئة الشرفاء والعلماء والمتصوفة. أما أصحاب الأراضي والمستفيدين من ريعها، فنكاد لا نجد لهم ذكراً في مصادرنا التاريخية. إن الاقتصاد السبتي كان يركز على النشاط التجاري والحرفي، وليس على المضاربات العقارية والاستغلال الزراعي.

1 - كبار التجار والحرفيين

من المؤكد أن مكانة خاصة يجب أن تُفرد لكبار التجار المتخصصين في التجارة الخارجية التي كانت أهم نشاط اقتصادي بسببته يسمح بالأرباح، وتراكمها الضروري لخلق "بورجوازية".

إن القوة الاقتصادية لهذه الفئة من التجار، ووزنها، وتأثيرها السياسي، ومكانتها الاجتماعية، كانت بالغة الأهمية. وقد كان حكام المدينة أنفسهم جزءاً من هذه الفئة. فاليناشتي وابن خلاص كانا من بين أكبر وأغنى تجار سببته، قبل أن يتوليا مقاليد السلطة بالمدينة. وأبو طالب العزفي كانت له علاقات تجارية خاصة مع القوى المتوسطة، وكان يملك الربع في سفينة قطلانية. وإذا كانت هذه الفئة لا تملك أية وضعية قانونية خاصة معترف بها رسمياً، أو تستفيد من

امتيازات معينة، فإنها شكلت "بورجوازية" عليا فعلية وقادرة على التأثير بصفة حاسمة في مقاليد المدينة وقراراتها السياسية، وتوجيهها حسب مصالحها الخاصة. فالحركة التي أتت بالعزفي إلى السلطة بسبب سنة 647 هـ/ 1250 م، كانت تتمتع بدعم تجار المدينة، لأن السياسة المالية الحفصية بها - والتي كان يطبقها صاحب الأشغال الحفصي - كانت قد أضرت بمصالح تجار المدينة. وعندما وصل العزفي إلى السلطة، أدار شؤون المدينة بمراعاة تامة لمصالح الفئة المتنفذة بها، أي كبار التجار. ذلك ما يظهر واضحاً من خلال المقارنة التي أقامها ابن عذاري بين صاحب الأشغال الحفصي الذي "كان قد أضر بهم [سكان سببته] بظلمه وجوره"، وبين أبي القاسم العزفي الذي "ضبط المدينة لنفسه باشتداده وجده في مصالح أهلها بغاية جده واجتهاده"³⁵¹.

في القرن السابع/ 13 م، أي في فترة كانت المدينة تعرف أوج ازدهارها التجاري، وارتباطها مع بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، ستثير درجة غنى هذه الفئة انتباه ابن سعيد المغربي، المتردد على المدينة وعلى أهلها، ويؤكد لنا أنها "ركاب البحرين، شبه الاسكندرية في كثرة الحط والإقلاع، وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة"³⁵².

إن الأرباح التي راکمتها هذه الفئة من التجار المرتبطين بالعالم المتوسطي وبلاد السودان، مكنتها من إنشاء بعض المؤسسات، والمعالم المعمارية الدينية والمدنية بالمدينة التي تشهد على سخائها، ولكن على قوتها المالية قبل كل شيء. وهناك كثير من الأمثلة التي توضح لنا ذلك. فوالد القاضي

351 - ابن عذاري، 398

352 - ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، م. س، 139

عياض بنى مسجداً وحبس أرضاً للدفن بالمنارة. وبعد وفاته ترك سبعة عشر ألف دينار³⁵³. وأنشأ أبو الحسن الشاري (ت. 650 هـ / 1252)، الذي كان على درجة كبيرة من الغنى، على الرغم من أنه "لم يباشر قد ديناراً ولا درهماً، إنما كان يتصرف له في ذلك وكلاؤه واللاندون بجانبه"³⁵⁴، أنشأ أول مدرسة في تاريخ المغرب، حملت إسمه (المدرسة الشاربية)، مع خزانتها الكبيرة المحبسة عليها، والمكان المخصص لدفن طلبتها. كما أن أمراء المدينة أنفسهم، والعزفيين منهم بصفة خاصة، أعطوا للمدينة بعض أجمل وأضخم معالمها العمرانية التي ظلت مرتبة باسمهم حتى سقوط المدينة سنة 1415 / 818م³⁵⁵. إن آثارهم تعكس درجة إشعاعهم ومكانتهم داخل الأوساط الحاكمة وكذا المثقفة. ويشير المقري إلى ذلك في معرض حديثه عن مآثر الشريف أبي العباس الحسني، حيث يقول: "وله بسبته آثار تحكي الآثار العزفية"³⁵⁶. وكانت هذه الفئة تعمل على التميز عن بقية الفئات الاجتماعية الأخرى. فقد كان لها أحيائها الخاصة، وأماكن لعبها المخصصة لها، بل حتى مقابرها كانت خاصة³⁵⁷.

وبعد ذلك نجد التجار المتوسطين والصغار، وأهل الحرف، وأهل الأسواق، وبائع التقيط المزاولين لنشاطهم في الأسواق والحوانيت، بمفردهم أو بمساعدة أفراد آخرين. ومن الراجح أن التجار الكبار هم الذين كانوا يزودونهم بمواد الاستهلاك اليومية التي يبيعونها في حوانيتهم أو حوانيت

353 - التعريف بالقاضي عياض، 112

354 - الذيل والتكملة، ج 8، ص 201

355 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 30، 34، 38، 39، 40، ...

356 - أزهار الرياض، الجزء الأول، 39-40

357 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 33 الزقاق الأعظم هو «زقاق الأكابر عند أهل سبتة»، بخصوص المرامي، كانت جلسة الحفير «مخصوصة بالقاضي وصدور الفقهاء من العدول»، ص 47

الأحباس المنتشرة بأسواق المدينة. ويمكن افتراض أن وضعية هذه الفئات قد عرفت تحسناً ملموساً في القرن السادس والسابع/ 12 و 13 م. ومن بين المؤشرات على ذلك، امتلاك عدد كبير من التجار الصغار لمنازلهم، وحتى لحمام خاص، وهو أحد رموز اليُسْر في المدن الإسلامية في العصر الوسيط³⁵⁸.

ضمن هذه الفئة نجد كثيراً من العلماء والفقهاء، لارتباط التجارة والعلم في سببته الإسلامية. فالفقيه عدي بن علي القيسي كان "يتعيش من بضاعة له يديرها في تجارة كان شديد الاحتياط فيها، والتحرز من موقعة خلل يدخل عليه بسببها"³⁵⁹. أما علي بن محمد الحضرمي فقد جمع بين مزاولة التجارة والتدريس، حيث كان "يدير بضاعة له في تجارة أكثرها في إقامة أواني الخشب المخروطة، وأكثر ما كان يتردد بين رندة وإشبيلية وسببته وفاس ومراكش"، وكان "ينتصب لتدريس ما كان لديه من المعارف، ريثما يتم غرضه في البيع والإقامة"³⁶⁰. بينما كان علي بن أحمد الأزدي عطاراً بالمدينة، ومؤذناً بجامعها³⁶¹. في حين كان ابن الخراز الجذامي الذي كان يقرئ بزقاق الخشابين "يتحرف بالقرائين ببيع القرق"³⁶²، وقد اغتنى محمد بن جوهر الأنصاري وأصبح من "ذوي اليسار" من "تجارة يديرها بقيسارية سببته"، وتبضيع مساعديه وأفراد عائلته للقيام بعمليات تجارية خارج سببته، مع الإقراء

Hernandez Diaz J., "Los baños arabes de Ceuta", *Academia*, 1978 - 358
كان منزل الأنصاري يتوفر على حمامين، (ص 35)
359 - الذيل والتكملة، ج 5، ص 141
360 - نفسه، ج 8، ص 182
361 - نفسه، 182
362 - ابن الزبير، الصلة، قسم الغرباء، في الذيل والتكملة، ج 8، ص 539

بمسجد سويقة سردينية³⁶³. في وقت لزم فيه محمد الأنجري، الأستاذ بمسجد القفال، "حانوته بـ[سوق] الموثقين، فكان بها في عيش رغد، ونعمة تامة"³⁶⁴. ويمكننا أن نسوق أمثلة أخرى تؤكد التزاوج التام والتداخل العميق بين الأعمال التجارية والنشاط العلمي لسكان سبتة.

2 - العبيد والعامّة

في أسفل السلم الاجتماعي نجد العبيد، بيضاً وسوداً. وقد عرف عددهم - كما رأينا- تبايناً كبيراً. فمن جهة كان يميل نحو الارتفاع، بسبب التجارة والقرصنة والحروب، ومن جهة أخرى كان يميل نحو التقلص، بفعل الوفيات والعنق أو الشراء.

إن عدد العبيد السود لم يكن قليلاً بسبتة. ولدينا فتوى تشير إلى تجمّع السود والسودانيات بمناسبة الزواج، وإقامة الحفلات الليلية بالمدينة، وما يصاحبها من موسيقى ورقص وصخب، اعتبرت كبدع بالمدينة³⁶⁵. وفي القرن التاسع/ 15 م يشير الأنصاري إلى مقبرة "أحجار السودان" خارج المدينة³⁶⁶ التي ربما كانت في أصلها سوقاً للعبيد. وفي سبتة دُفن "ريحان الأسود"، أحد كبار الأوجه الصوفية المحلية الذي كان عدد كبير من أفراد النخبة السبتية

363 - الذيل والتكملة، ج 6، ص 341

364 - بلغة الأمنية، 46

365 - مذاهب الحكام، 87

366 - يشير ابن هشام اللخمي (ألفاظ مغربية، 318)، أن السبتيين كانوا «يقولون للموضع الذي يباع فيه الرقيق معرض». وكان لفظ العجم يدل عندهم على السودان خاصة. بينما يرى أن العجم هم «الروم والفرس والبربر وجميع الناس سوى العرب» (ألفاظ، 297).

يودون أن يدفنوا بجانب قبره³⁶⁷. من جهته، استطاع "زورارا" أن يشاهد العبيد السود بعد سقوط المدينة بيد البرتغال³⁶⁸.

ولم تلعب العبودية سوى دور ثانوي في الاقتصاد السبتي. فاليد العاملة المستعبدة لم تكن ضرورية في مجالات الإنتاج التي يقوم عليها الاقتصاد المحلي. صحيح أننا نجد العبيد في بعض مجالات الحرف التقليدية³⁶⁹، ويمكننا أن نفترض وجودهم في مزارع قصب السكر، أو نجدهم مجدفين على السفن³⁷⁰. لكن يبدو أن العبيد كانوا يُستخدمون أساساً في الأعمال المنزلية كخدم، وجوار،³⁷¹ وامتلاكهم كان من رموز التفاوت الطبقي³⁷².

قليل من العبيد البيض كانوا يبقون في وضعية العبودية إن هم اعتنقوا الإسلام. فالعق الذي توصي به الديانة الإسلامية، مُورس بسببته، وخصوصاً لصالح الموالى والجواري. فنجد إشارات إلى "الموالى العلوج" الذين كانوا يشغلون مناصب إدارية مهمة في سببته، كإدارة المصائد، التي كان يتولاها في منتصف القرن الثامن/ 14 م، العليج المولى "فرح"، الذي كان يأتي إلى ميناء

367 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س.، 19؛ التثوف، 158-159

368 - لقد تقدم عامل المدينة «أمام سببته مصحوباً بعبدَيْن أسودين يلبسان لباس أحمر...»

Robert Ricard, "Le Maroc septentrional...", op. cit., 26

369 - في المخيزات مثلاً، انظر، تحفة المغترب، 113

370 - مذاهب الحكام، 235-240 حيث نجد نقاشات فقهية حول «عبيد المراكب»

371 - تشير إحدى فتاوى القاضي عياض إلى «العلجة مرية» التي كانت قد حازت ثقة أسرة سببته، (مذاهب الحكام، 247) وأخرى تشير إلى ابتياع «ربع وخادم» لأحد المحاجر (نفسه، 250)

372 - كان صدق الأمير أبو الوفاء العزفي لزوجته الخلدونية 600 دينار وثلاثة إماء، اثنتان من السودان وواحدة من بنات الروم (انظر عقد صداقه الذي نظمه شاعر سببته والمغرب ابن المرحل، في؛ أحمد بن القاضي، جذوة الاقتباس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1974، 330-332

المدينة على حصانه، محفوفاً بأعوانه، لمراقبة مداخل الميناء³⁷³. بعض المعتوقين الآخرين كان لهم الحق في ميراث أسيادهم³⁷⁴.

أما أولئك الذين تسميهم المصادر بـ"العامّة"، والذين كانوا يشكلون خليطاً غير متجانس من الأفراد الأحرار، فإننا نلمحهم بصعوبة في ثنايا الكتابات التاريخية. فهي تضع العوام على هامش المجتمع، وعلى هامش التاريخ، بما أنها لا تتحدث عنهم إلا بمناسبة حدوث انتفاضة ضد ظلم أو طغيان، أو في فترات القحط والمجاعة، أو عندما ينهضون لطردهم عامل جائر، أو ممثل لسلطان³⁷⁵، أو عندما يُستعملون لفرض سلطة دون غيرها³⁷⁶.

هذه الفئة "المُتجاهلة" - لأنها دائماً ضحية الأحكام المسبقة للمؤرخين، وكتاب التراجم المنتمين في غالب الأحيان إلى النخبة الحضريّة - ستجد المتحدث باسمها في كتب المناقب التي تلقي بعض الأضواء على هؤلاء المعذبين في الأرض، والذين كانوا يلتفون حول من يعتني بهم من الأولياء والمتصوفة.

يتعلق الأمر أساساً بساكنة محرومة من وسائل الإنتاج الاقتصادية: متسكعين، حمالة، سقائين، طالبي الصدقة، عمال ميأومين... الخ. إن توزيع بعض شخصيات المدينة الإدارية³⁷⁷ والمتصوفة خاصة للطعام على هؤلاء، لم

373 - أزهار الرياض في أخبار عياض، الجزء الأول، 1939، ص 33

374 - انظر مثلاً: مذاهب الحكام، ص 260، 88-263

375 - البيان المغرب، القسم الموحد، 350؛ بلغة الأمنية، 54؛ نفح الطيب، ج 131/3

376 - لقد تم طرد السلطة النصرية من المدينة وافتتحها الجيش المريني «عنوة بامر أشياخها وموافقة عامتها»، روض القرطاس، 393

377 - كان الشريف أبو العباس الحسيني يصنع أنواع المطاعم الرفيعة، ويتبسط في ألوانها ويطعمها الغني والفقير، والقوي والضعيف ممن يحضر مجلسه أو يأتي إليه، (أزهار الرياض، ج 1، 14)

يكن ليخفف عنهم وضعيتهم الهشة، ولو أن تلك التوزيع كان يعبر عن نوع من التضامن بين السكان، ويعكس روح الخير والإحسان، كما تدل على ذلك بعض المؤشرات الأخرى؛ مثل وجود "جنان المساكين" و"حانوت أحباس المساكين" بالمدينة، أو كما يدل على ذلك التقليد الذي كان قد ترسخ عند السبتيين، والمتمثل في شيوع الوصية بالثلث على المساكين، وتحبيس بعض المنافع، مثل الحوانيت، على المحتاجين³⁷⁸.

3 - الشرفاء : فئة مغلقة وامتيازات مفتوحة

نعلم أن الإسلام لم يعرف إلا فئة شرفاء واحدة وراثية تنحدر من نسل الرسول (ص). وانتشر الشرفاء الإدريسيون بسرعة في المغرب. وتبعهم تاريخياً الشرفاء الحسينيون الذين سيعرفون كذلك باسم السبتيين، أو الصقليين، لأنهم كانوا قد استقروا لفترة بصقلية في خدمة الفاطميين. وبعد سقوط الجزيرة بيد النورمانديين رحلوا إلى الأندلس قبل أن ينزحوا إلى سبتة في بداية السيطرة الموحدية، على ما يرجح³⁷⁹.

تمتع هؤلاء الشرفاء الحسينيون حتى نهاية القرن الثامن/ 14 م بامتيازات خاصة في المدينة. ولتقوية استقلالهم عمل العزفيون على الارتباط بالشرفاء

378 - مسائل أبي الوليد بن رشد، ج2/918-919

379 - حول الشرفاء بالمغرب المريني، انظر الدراسات القيمة للأستاذ محمد القبلي، «مساهمة في تاريخ التمهد لظهور السعديين» ضمن كتابه مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الرباط، 1987، 79-126 وكذلك كتابه :

Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age, Paris, 1986

وقارنه بدراسة :

Beck. Herman L., *L'image d'Idris II. Ses descendants de Fâs et la politique sharifienne des sultans mérinides (656-896\1258-1465)*, Leiden, 1989

ومصاهرتهم³⁸⁰. وعرفت المكانة الرمزية للشرفاء بسببته إشعاعاً خاصاً بعد إقامة العزفيين الاحتفال بعيد المولد النبوي، وتعميم المرينيين الاحتفال به بسائر بلاد المغرب³⁸¹. كما أن الدور السياسي الذي لعبه الشرفاء بالمدينة لم يكن أقل تأثيراً. فعندما استولى النصريون على المدينة سنة 706 هـ/1306 م، لم يتردد سلطان غرناطة في إجلاء العزفيين، حكام المدينة، بينما لم يجرؤ على إبعاد الشرفاء الحسينيين "المتعاونين"، لأن "أهل البلد مطبقون على تعظيمهم"³⁸². فهؤلاء الشرفاء كانوا قد أصبحوا "سياسياً قابلين لاستخلاف العزفيين" في حكم المدينة³⁸³. بل أصبح من المؤكد الآن أنهم كانوا من بين الأسباب التي أدت إلى الاختفاء السريع للعزفيين من المسرح السياسي السبتي في بداية القرن الثامن/14م. والواقع أن الأهمية التي أصبحت لهؤلاء الشرفاء، ومزاحمتهم للعزفيين المتأخرين، هي التي استدفع الأمير العزفي يحيى إلى إبعادهم عن المدينة، وتغريبهم إلى الجزيرة الخضراء سنة 720 هـ/1319-20 م؛ "فاعترضتهم مراكب النصارى في الزقاق وأسروهم". وعمل السلطان أبو سعيد المريني على اقتنائهم، "رعاية لشرفهم، وفدى كبيرهم وأباه على ثلاثة آلاف دينار"، واقتدى الجميع "بحمل مال"³⁸⁴. ولم يلبث هؤلاء الشرفاء بعد اقتنائهم أن أبعدها الأسرة الغزفية عن حكم المدينة.

أما السلطان أبو الحسن المريني فقد أجرى على الشرفاء الحسينيين بسببته "جرايات كافية، ومرتبات شهرية على قدرهم، ذكورهم وإناثهم، مع الكسوة

380 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته... 81

381 - انظر الفقرة المخصصة للأعياد بسببته

382 - ابن السكاك، نصح الملوك، ص 30 (ذكره القبلي، مساهمة، 86)

383 - Kably, Société, 294

384 - القبلي، مساهمة، 90

الجارية في سابع المولد"³⁸⁵. وازدادت أهمية هذه الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها بالمدينة على عهد السلطان أبي عنان، حسبما تؤكد ذلك الشهادات الثمينة التي احتفظ لنا بها المقري بخصوص مكانة الشريف أبي العباس أحمد، رئيس البيت الحسيني بسبته، والذي كان قد خلف أباه على رأس مجلس الشورى بالمدينة، والذي أصبح ابنه، أبو عبد الله، مزوار شرفاء سبته³⁸⁶.

إن شهادة المقري التي استقاها على ما يبدو من الكتاب الضائع "الكواكب الوقادة في ذكر من دفن في سبته من العلماء والصلحاء القادة"، شهادة فريدة، لا نجد مثيلاً لها في المؤلفات المغربية الأخرى. يقول: "وقدمه السلطان أبو عنان ناظراً على بلده سبته، وأمر صاحب قصبته ألا يقطع أمراً إلا بمشورته، فكان العمال يخالفونه ويشاورونه، فإذا رأى من أحدهم خروجاً عن العادة، أو حيفاً على الرعية، كتب إلى السلطان في شأنه، فيعزله من فوره، ويعوضه بغيره [...] وكان يأتي إليه في الموضع الذي أعده لجلوسه برياضه الذي بالصفارين صبيحة كل يوم، صاحب القصبه، كائناً من كان مسلماً عليه ثم ينصرف، ثم يأتي الوالي على قباضة الجباية مسلماً ثم ينصرف بعد تقبيل قدميه، ثم يأتي صاحب الشرطة، وكذا جميع أمراء سبته، إلا القاضي، لمكان خطته".

وكان السلطان أبو عنان "يعطيه العطاء الجزل [...] وكان يستدعيه كل سنة إلى حضرته فاس، لحضور المولد السعيد [...] ويخلع عليه الخلع الملوكية، ويعد له ديناراً مسكوكاً يصنع بمدينة مراكش، زنته مائة دينار ذهباً، يدفع له ذلك مع جائزته [...] ويصحبه في وجهته تلك من الضعفاء والتجار ما لا

385 - ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن... م، س، 152
386 - Prémare (A. L. De), *Maghreb et Andalousie au XIVe siècle, Les notes des voyage d'un Andalou au Maghreb (1344-1345)*, Lyon, 1981, p. 100

يحصى كثرة، ويتولى هو الإنفاق على الجميع من ماله، ويرفع عنهم اللوازم المخزنية، فكان التجار لأجل ذلك يرصدون وقت سفره وقفوله".

من جهة أخرى "كان عطاء هذا السيد الشريف المرسوم له من بيت المال، ثلاثين ديناراً من الذهب العين في رأس كل شهر [...] وكان فائد مضرب الميناء لهذا الشريف أبي العباس الحسيني دون أن يشركه غيره، وكان له بمضرب أويات يوم يضرب فيه ويومان لبيت المال [...] ويتصل بيده من فائد يومه خمس مئة الدينار وسبع المئة [...] وقد انتهى في بعض الأحيان إلى ألفي دينار في اليوم"³⁸⁷.

لقد شغل أغلب الشرفاء الحسينيين مناصب إدارية وتعليمية بالمدينة³⁸⁸. ومن الجدير بالذكر أنه وُجد منهم من كان يحترف العمل اليدوي بالمدينة، مثل النجارة³⁸⁹، التي كانت مهنة محترمة جداً بسببته.

ويصعب تحديد عدد الشرفاء بالمدينة في القرن الثامن/ 14م. فالأنصاري يؤكد أن قبور الشرفاء الحسينيين بمقبرة الشبكة البراني، خارج الباب الأحمر "عدد كثير، جمعتهم روضة واحدة"³⁹⁰، كما أن مقبرة الولجة كانت تضم نحو اثني عشر قبراً من قبورهم. من جهته يخبرنا المقرئ أنه كان لهؤلاء الشرفاء "نحو الثلاثين قبراً في روضتهم المنسوبة إليهم، بالجانب الشرقي من رابطة

387 - أزهار الرياض، ج 1 ص 39-43

388 - حول الشرفاء القضاة بسببته انظر بلغة الأمنية، 49-50؛ الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 24-25؛ أزهار الرياض، ج 1، ص 24، ج 8، ص 290؛ وحول الشرفاء المدرسون، انظر النباهي، المرقبة العليا، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، 1948، 141؛ الإحاطة، ج 2 ص 179؛ بلغة الأمنية، 40

389 - الأنصاري (37-38) يشير إلى شريفين يشتغلان بالنجارة

390 - نفسه، 24-25

الفصال"³⁹¹. ويبدو أن التباين الطبقي والتمايز الاجتماعي كان يُراد له أن يستمر بادياً للعيان في أرض الواقع، ولو في أماكن العبرة، وتذكر الآخرة.

وهناك أرستقراطية بالمولد والنسب، قوية بطريقة أخرى، كانت قد ولدت مع الموحدين، وزالت بزوالهم من سببة : إنها الأرستقراطية التي كان يشكلها "السادة"، أمراء الموحدين وشيوخهم وولاة المدينة منهم. وبعدها يجب أن نعطي أهمية خاصة للعائلات الكبيرة بالمدينة: أي "البيوتات"، مثل بني الحضرمي، بني خلدون، بني عياض، بني الرنداحي... الذين كانوا قد ربطوا مصالحهم بمصالح حكام المدينة في أغلب الأحيان، عن طريق المصاهرة³⁹²، وكأنهم كانوا يعملون بحكمة ابن خلدون³⁹³. ويمكننا افتراض أن مجلس "الشورى" بالمدينة، والوفود التي كانت تمثل المدينة في المناسبات الرسمية لدى السلطات المركزية كانت تتشكل من أفراد هذه الأسر الأرستقراطية التي غالباً ما نجد ذكرها متبوعاً بأوصاف ذات أبعاد أدبية وأخلاقية مثل : "الفضلاء"، أو "الكبراء"، أو "الأعيان"، أو "الوجهاء"... إلخ

391 - أزهار الرياض، ج 1، 42
392 - مصاهرة العزفيين لبني خلدون (التعريف بابن خلدون، 41)، مصاهرة بني جمر لولاة المدينة، الإحاطة، ج 3، ص 415؛ مصاهرة العزفيين للحضرميين (الإحاطة، ج 4، ص 12؛ جذوة الاقتباس، 332) بالإضافة إلى مصاهرة العزفيين للحسينيين والرنداحيين...
393 - إنها الحكمة القائلة «لا بد لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تزدود عنه، وجاه ينسحب عليه من ذوي قرابة للملك أو خالصة له أو عصبية يتحاماها السلطان فيستظل هو بظلمها ويرتع في أمنها من طوارق التعدي، وإن لم يكن له ذلك، أصبح مهياً بوجوه التحيلات وأسباب الحكام»، المقدمة، 392

4 - العلماء والمتصوفة

لم يمثل العلماء الذين كانوا يتولون، تقليداً، المهام الدينية والثقافية بالمدينة، فئة اجتماعية متجانسة. وإذا أضفنا إليهم المتصوفة والطلبة، و"جميع مديري الضمير"، فإننا سنحصل على مجموعة واسعة جداً، متنافرة بالضرورة، ولا تجد وحدتها إلا في أنشطتها العلمية والتربوية التي لم تكن تنفصل عن عالم التجارة في سببته خلال العصر المسيط. لذلك لا يمكننا أن نصفهم بـ"الطبقة"، وإنما بـ"هياة" توجد داخلها مختلف الأصول السوسيو-اقتصادية. وإلى حد كبير كانت هياة العلماء - عكس هياة الشرفاء - تبدو كنسق مفتوح، يسمح بالحركة الاجتماعية، ويقدم للمجتمع إمكانات واسعة للتسلق والارتقاء الاجتماعي، للتقرب من البورجوازية المحلية وأرستقراطية المدينة³⁹⁴، خصوصاً أن مدينة سببته اشتهرت بالعلاقة الوطيدة بين العلم والتجارة والسياسة³⁹⁵.

إن العلماء والمتصوفة كانوا الوسطاء الطبيعيين بين السكان والسلطات. فالتأثير الذي كانوا يمارسونه إما بشكل مباشر - عن طريق الفتاوى والأحكام بين المتخاصمين - أو بشكل غير مباشر عن طريق "النصيحة" التي يقدمونها للسلطات، وكذلك بواسطة السلوك الأخلاقي والثقافي النموذجي الذي يقدمونه بسيرتهم الذاتية³⁹⁶، كان تأثيراً كبيراً داخل المجتمع السبتي.

394 - أمثلة في بلغة الأمنية، 32، 33، 40، 41، 55

395 - Ferhat, H., "Le pouvoir des fuqaha dans la cité: Sabta du XII au XIVe siècle", - 395
In, *Saber religioso y poder politico en el Islam*, Madrid, 1994, pp. 53-70

396 - محمد الشريف، جوانب من الحياة اليومية لمتصوفة الأندلس من خلال السر المصون لظاهر الصديقي، ضمن كتاب الغرب الإسلامي : نصوص دفيئة ودراسات، م. س...
Berque, J. *Les Ulama, fondateurs insurgés du Maghreb*, Paris, 1982, 227

ويمكننا القول إن أهمية العلماء لا يجب أن نبحث عنها في وضعيتهم السوسيو - اقتصادية المتباينة، وإنما في المكانة التي يحتلونها في الضمير والممارسة الجماعية. إن الولاة الذين كانوا يملكون القدرة على الأمر بالعقاب والسجن، لم يكونوا يشغلون في ضمير السكان نفس المكانة التي كان يشغلها العلماء والمتصوفة. فهؤلاء كانوا يمثلون السكان أمام أفراد السلطة، ويعبرون عن طموحاتهم وآمالهم، ولو بطريقة عنيفة إن اقتضى الأمر. إن المثال الذي يقدمه لنا أبو الحسين الصائغ، أحد متصوفة المدينة (ت. 600 هـ/1204م) في هذا المجال، لا يحتاج إلى تعليق: "غضب أبو العلا إدريس [...] أمير سبته الشديد البأس على الناس، يوماً على أهلها، فأمر أن يحشر الناس خارجها في صعيد، وصعد صرحاً كان صنع له هنالك من الخشب، واجتمع الناس، رفيعهم ووضيعهم، وطال بهم المقام، وضرتهم الشمس، فلم يكلمهم ولا أذن لهم في الانصراف والتفرق، إلى أن انتهى الخبر إلى أبي الحسين ابن الصائغ [...] فجاء حتى بلغ من مرقب أبي العلا بحيث يعاينه، ثم رفع رأسه إليه، وكان في صوته جهازة، وفي كلامه إرهاب، فقال له: انصب صراطك، وضع موازينك [...] ثم رد رأسه إلى الناس، وقال: امشوا من هنا. فافترق الحفل طاعة لأمره لمعرفتهم بمكانه عند الله تعالى، ونزل أبو العلا عن مرقبه ذلك، واختلط بالناس" ³⁹⁷.

محمد الشريف، «تيار التصوف في العصر الموحدى من خلال المستفاد في مناقب العباد لمحمد التميمي»، ضمن كتاب الغرب الإسلامي: نصوص دقينة ودراسات، م. س. 397 - الذيل والتكملة، ج 8، 415 (أمثلة أخرى ص 416)؛ أحمد بابا، نيل الابتهاج، القاهرة، 1933، 284.

المستوى المعيشي

إن أي تقويم مقبول لمستوى المعيشة للسبتيين في العصر الوسيط لن يأخذ مغزاه إلا بتحليل ثلاثة عناصر من معاييره الأساسية، وهي : التغذية والسكن واللباس؛ باعتبارها ظواهر ثقافية واقتصادية، فضلاً عن كونها "مؤشر جيد على مستوى المعيشة"³⁹⁸؛ مع إبراز الفروق بين شرائح المجتمع، وإقامة تمايزات واضحة بين أنماط الحياة الخاصة بمختلف الفئات الاجتماعية بالمدينة. لكن مادتنا المصدرية شحيحة جداً فيما يخص هذه المواضيع الدقيقة من الحياة اليومية للسكان، الأمر الذي لا يسمح لنا إلا بتقديم ملاحظات عامة حولها، مع التركيز على الطابع الجماعي للعناصر الثلاثة.

1 - الأكل: هاجس الأمن الغذائي

إن كانت مسألة تزويد المدينة بالمؤن في أوقات الحرب والحصارات لم تقلق كثيراً بال السبتيين، ما دام البحر يوفر لهم مصادر غذائية هامة، وعن طريقه كانوا يحصلون على مواردهم الضرورية الأخرى، فإن الاعتماد الكلي عليه لم يكن ليضمن لهم الاستقرار الغذائي دائماً، خصوصاً إذا ما تعرضت المدينة لحصار مزدوج، بحري وبري³⁹⁹. فالمحيط الجغرافي للمدينة يعتبر فقيراً من الناحية الفلاحية. ولم يكن بمقدوره أن يلبي الاحتياجات المتزايدة للمدينة بتزايد ساكنتها. وهناك شبه إجماع لدى المؤرخين العرب بخصوص فقر المدينة وناحياتها فيما يتعلق بإنتاج الحبوب. فقد رآها ابن الخطيب " عديمة

Burguière A., "L'anthropologie historique", In. Le Goff. J., (sous la direction - 398 de), *La Nouvelle Histoire*, Paris, 1978, p. 47

Lathan J. D., "The Stratigic Position and Defence of Ceuta in the Later Muslim - 399 Period", *Islamic Quaterly*, XV, 1971, 199

الحرث، فقيرة من الحبوب"⁴⁰⁰ ويؤكد الحسن الوزان أن بادية المدينة "هزيلة وعرة، ولهذا السبب كانت المدينة تشكو دائماً من قلة الحبوب"⁴⁰¹، وهو الأمر الذي حتم على مدينة الزقاق ربط علاقات تجارية مع الخارج لضمان تموينها بهذه المادة وبالخضروات، لسد حاجيات السكان المتزايدة، حتى أنها أصبحت من أكبر مخازن القمح المغربي المعد للتصدير على البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط.

وإلى جانب هذه التبعية الغذائية المطلقة للخارج ستضاف الأوبئة والمجاعات التي لم تكن نادرة في تاريخ المدينة، وخاصة خلال القرن الثامن/ 14 م. إن أكبر مجاعة عرفتها المدينة في تاريخها الوسيط هي مجاعة سنة 634 هـ/ 1239-40 م، "التي لم يعهد مثلها في الأعوام الفارطة قبلها"، حسب شهادة ابن عذاري. فقد "كان الغلاء المفرط، والمجاعة العظيمة بمدينة سبتة، حتى عدم فيها الطعام بالكلية في هذا العام". وطبعت هذه المجاعة الذاكرة الجماعية للسبتيين الذين أطلقوا على هذه السنة "عام سبعة"، حيث أصبح "مشهوراً عندهم، يتمثلون به بينهم". وإذا ما صدقنا صاحب "البيان المغرب"، فإنه ابتداء "من هذا العام صار أهل سبتة يختزنون الطعام في المطامير في كل عام، حيطة على أنفسهم من مثل هذه المجاعة"⁴⁰². وبعد قرنين، يخبرنا الأنصاري⁴⁰³ أن المدينة كانت تتوفر على أربعين ألفاً من المطامير المعدة لخرن الزرع، "متفرقة بالديار و ببعض الحوانيت، ما عدا مخازن الفندق الكبير [...] والأهراء التي

400 - ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، م. س. ، ص 146

401 - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص 317

402 - ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، بيروت، 1985، ص 351 وسيؤكد لنا

ابن الخطيب بأن المدينة «أمنية على الاختزان» معيار الاختيار، 146

403 - الأنصاري، اختصار الأخبار، 42

بالقصبية [...] وأحسنها ما كان في أعالي البلد، كطالعة الميناء، وفي أسناد الربي السبعة جهة الجنوب". إنه رقم مرتفع جداً. وعلى الرغم من طابع المبالغة الذي قد يطبعه، فإن الأبحاث الأركيولوجية تؤكد العدد الكبير للمطامير التي كانت تتوفر عليها المدينة، سواء لخزن الطعام أو لجمع المياه⁴⁰⁴. إنه رقم يعكس جيداً الانشغال العميق لسكان سبتة بهاجس الأمن الغذائي الذي كان يهددها باستمرار.

إن التطور المذهل لذلك النظام الوقائي يؤكد لنا نجاعة الإجراء المتخذ. فالحبوب التي كانت تصل سبتة من السهول الأطلسية، كانت تخزن في هذه المطامير "الستين سنة، والسبعين سنة"، دون أن يعتريها تغيير، "الطيب البقعة، واعتدال الهواء، وكونها جبلية"⁴⁰⁵.

إن الفندق الكبير الذي بناه أبو القاسم العزفي كان كذلك مخصصاً لخزن الزرع، وكان "يحتوي على اثنين وخمسين مخزناً، ما بين هري وبيت، تُسع تلك المخازن من قفزان الزرع الآلاف العديدة التي لا تبلغ الحصر". ويضيف الأنصاري منوهاً بمكانة هذا الفندق الذي كان من "الأثار الغريبة" بسبتة: "ومن ضخامته أن له بابين : باباً إلى صحنه، والآخر إلى الشوارع [...] تدخل على البابين الجمال بأعمالها [...] فإذا أبصر الرائي ما يدخل منها على الباب

E.Fernández Sotelo, *los silos en la arqueología ceutí*, I, Transfretana - 404 monografía, 2001, (138p.), II, Transfretana -monografía , 7, 2005, (102 p.)
Posac Mon C., "Datos para la arqueología musulmana de Ceuta", *Hespéris-Tamuda*, Vol. I. 1960, p. 160
405 - الأنصاري، اختصار الأخبار، 24

الأعلى، ودورها في تلك الشوارع بأقنابها، وغرائر الزرع المحملة عليها، هاله ذلك وتعجب⁴⁰⁶.

إن هاجس الاحتياط من المجاعة انعكس حتى في سلوك أهل سبتة الغذائي، وطريقة أكلهم. وقد ترك لنا ابن الخطيب شهادة ساخرة ومنتقدة في نفس الوقت لعادات الأكل عند السبتيين التي اعتبرها "حسنة تُعدّ من الذنوب"، مبيناً أن "تكلفهم ظاهر مهما عرضت وليمة أو عقيقة، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة، فهم يمصّون البلالة مصّ المحاجم، ويحملون الخبز في الولايم بعدد الجماجم"⁴⁰⁷.

والواقع أن التغذية العادية للسبتيين كانت تُستوحى في مجموعها من تقليد فنّ الطبخ الأندلسي المغربي، كما تصفه لنا كتب الطبخ المغربية الأندلسية في العصر الوسيط⁴⁰⁸. وسيكون من الصعب علينا أن نعدّد الأطباق المتعددة جداً، وطرق تحضيرها المعقدة، التي يصفها لنا أولئك الكتاب المتخصصون في فنّ الطبخ⁴⁰⁹. ويمكن افتراض أن عدداً غير قليل من تلك الأطباق كانت تحضر في سبتة. ولكن إذا اقتصرنا على الإشارات المصدّرة المباشرة حول الغذاء السبتي، فإن معلوماتنا قليلة وناقصة بالضرورة. فباستثناء كتب الطبخ المتخصصة، و"النظرية" في نفس الوقت، فإن المصادر العربية التي تتوفر عليها، لا تولي اهتماماً لهذا الموضوع. فيجب حدوث مجاعة على الأقل لنجدها تتطرق لموضوع التغذية.

406 - نفسه، 38

407 - ابن الخطيب، معيار الاختيار، 146

408 - كتاب الطبخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، نشر هويسى ميراندا، مجلة

المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 9-10، 1961-1962، ص 176

409 - يصف ابن رزين التجيبي طريقة تحضير أكثر من 400 طابقاً غذائياً في كتابه

«فضالة الخوان في طبيبات الطعام والألوان»، نشر م. بن شقرون، الرباط، 1981

لقد رأينا في حديثنا عن الإنتاج الفلاحي بالمنطقة أهم الخضر والفواكه التي كانت تتوفر عليها المدينة، ومدى تنوعها. لكنها لم تكن تشكل سوى تكملة غذائية وموسمية في أغلب الأحيان. لقد كانت تساهم في إغناء مائدة الأغنياء، بينما لم تكن الغالبية العظمى من السكان قادرة على استهلاكها إلا بالنزر القليل. إن أساس التغذية كان هو الحنطة، التي كانت تدخل في تحضير مجموعة من الأغذية، كالجشيش (عبارة عن حريرة من القمح والخضر) والعصيدة، والكسكس... وكانت الخبز تصنع من السميد أحياناً⁴¹⁰، بينما كانت الخضر الجافة (القطاني) مثل العدس، والفول، والحمص، تستهلك بكثرة.

ولا يمكن أن نأخذ التقاليد الغذائية لمتصوفة المدينة مؤشراً على تغذية الفئات الشعبية السبئية، لأن أولئك كانوا يقضون عمرهم في الصيام، أو الاقتتات على النبات... ولكنهم كانوا يساهمون في بعض الأحيان في إشباع البطون الجائعة بفضل الطعام الذي كانوا يقدمونه لمريديهم ولفقراء المدينة، في المناسبات الدينية وغيرها. إن المثال الذي يقدمه لنا ولي المدينة، عبد الملك اليحانسي، مثال فريد في بابهِ. فقد كان يستعد لعيد المولد بما "يكفي الواردين من الطعام، مع كثرة الترادف والتوارد. [...] كان أولئك الواردين يزيدون على عشرة آلاف بأعداد. فكان يذبح لهم ما يكفيهم من البقر والغنم، فيأكل المحتقر والمحترم [...] فيبقى الطعام والسماع في كل ناحية ثمانية أيام متواليه"⁴¹¹، كما كان يصنع طعاماً للفقراء في نفس المناسبة، مكوناً من الكعك والعسل⁴¹². ويبدو

410 - المقصد الشريف، 98

411 - تحفة المغترب، 108

412 - المقصد الشريف، 100-101

أن هذه الوجبة كانت هي الطعام الاعتيادي الذي كان يقدمه متصوفة المدينة، لأننا نجد ولياً آخر يقدم نفس الوجبة، مع إضافة السمن لها⁴¹³.

إلا أن توزيع المتصوفة أو السلطات⁴¹⁴ أو أغنياء المدينة⁴¹⁵ للطعام على المعدمين، سواء بدافع تضامني، أو خوفاً من انتفاضات العامة، لم يكن يكفي وحده لإزالة البؤس عن فقراء المدينة.

ويوضح لنا أحد كتاب الطبخ في العصر الموحد، أنواع اللحوم التي كانت تستهلكها الفئات العليا من المجتمع السبتي، وهو يتحدث عن طريقة تحضير عجل مشوي للسيد أبي العلا الموحد بسبته. يتعلق الأمر بأخذ كبش فتي سمين ومسلوخ، أفرغ جوفه من أحشائه، ثم يدخل في جوفه إوزة مشوية، وفي جوف الإوزة دجاجة مشوية، وفي جوف الدجاجة فرخ حمام مشوي، وفي جوف الفرخ زرزور مشوي، وفي جوفه عصفور مشوي أو مقلي، كل ذلك مشوية مدهونة بالمرقة الموصوفة للشواء [...] ويدخل الكبش في التنور المحمي [...] ثم يدخل في جوف العجل، وتخاط عليه، ويجعل في تنور، ويترك فيه حتى ينضج ويحمر، ثم يخرج ويقدم⁴¹⁶.

ولم يكن اللحم هو الغذاء الأساس للسبتيين، وحصراً الفئات الشعبية. لقد كان يستهلك بالخصوص في المناسبات الدينية والعائلية. ولكن يمكننا الافتراض أن السمك كان هو الطبق المفضل والاعتيادي لدى السبتيين. لقد كان السمك هو المادة الغذائية التي لا تنقص المدينة. وقد كان سكانها يحصلون عليه في بعض

413 - الذيل والتكملة، ج 8، ص 417

414 - وخاصة العزفين، البيان المغرب، 398

415 - مثل الشريف أبو العباس الحسيني، أزهار الرياض، ج 1، ص 33، 38، 41، 44

416 - كتاب الطبخ، 32-33/142

أيام الأسبوع مجاناً من بعض مصائد المدينة، ومن مينائها⁴¹⁷. بل إنه غذاء المتصوفة والفقراء والمعوزين، حتى أن أكل السمك ارتبط بالغباء و"تبليد الذهن"، وإضراره بملكة الحفظ، حسبما يستشف من اعتقاد أندلسي وصلنا على لسان الفقيه الأندلسي ابن رشد الجدّ، الذي لقي القاضي عياض بقرطبة، وعندما "رأى نبلة وفضل ذكائه، قال : عجباً لرجل ينشأ في البلاد البحرية على أكل السمك من أين يكون له هذا النبل والذكاء؟" ولقد أجابه القاضي عياض بكلام بعيد عن الذكاء بقوله : "والله ما أكلت سمكاً منذ عقلت"⁴¹⁸. ولقد ترك لنا أحد مؤلفي كتب الطبخ في القرن السابع/ 13 م، الطريقة التي كان السبتيون وسكان غرب الأندلس يحضرون بها "المروج"، وهو طبق من السمك المطهي في الزيت باستعمال الخل والمرى ومجموعة كبيرة من التوابل، كالفلفل والكمون والصعتر والقرفة...⁴¹⁹. كما أن بعض الأطباق من السمك الجيد لم تكن في متناول الجميع. فقد انتقد الفقيه العزفي تبذير سكان سبتة في بعض المناسبات، بحيث كان يحضر "طاجن من حيتان ينفقون فيه ثلاثين درهماً"⁴²⁰.

من بين الحلويات العائلية أو المعدة للبيع التي كانت منتشرة في المجتمع السبتي، هناك الحلوى المعروفة باسم "النصبة" التي كانت تحضر بمناسبة عيد النيروز وعيد العنصرة، وكان يدخل في تحضيرها السكر والفاندا والفواكه والتمر والزبيب والتين والجوز واللوز والجلوز والقسطل والبلوط والصنوبر وقصب السكر والأترج والنانج والليم⁴²¹. وفي نفس المناسبات كانت تصنع

417 - أزهار الرياض، ج 1، ص 43

418 - نفسه، ج 5، 79

419 - كتاب الطبخ، 176

420 - العزفي، الدر المنظم، 21

421 - نفسه

حلويات أخرى تأخذ شكل مدن محصنة، تسمى "المدائن"، والتي نجد لها أوصافاً عديدة في كتب الأدب. ولقد ترك لنا أبو العباس العزفي نقداً لاذعاً، ووصفاً بليغاً، لعادات تحضير هذه الحلويات بمناسبة احتفال السبتين بأعياد النصارى، قائلاً: "وأضافوا من بدع وشنع ابتدعوها، [...] موائد نصتوها لأبنائهم ونسائهم وصنعوها، وتخيروا فيها أصناف الفواكه وأنواع الطرف وجمعوها، وتهادوا فيها بالتحف التي انتخبوها، والمدائن التي صوروا فيها الصور واخترعوها، ونصب ذوو اليسار نصبات في الديار كما نصب أهل الحوانيت فنضدوها، فقوم أباحوا أكلها لعيالهم وقوم منعوها، وجلوها كالعروس لا تغلق دونها الأبواب وفي منصتها رفعوها، وبعضهم أكل من أطرافها ثم باعوها"⁴²². وانتقد أبو العباس أحمد العزفي تحضير هذه الحلويات بسبب ما يصرف فيها من مبالغ طائلة، بلغت سبعين ديناراً للنصبة في بعض الأحيان، واعتبر تحضيرها "بدعاً وشنعاً"، ابتدعها السبتيون مجارةً للأندلسيين الذين كانوا يقدون المسيحيين في احتفالاتهم بأعياد الميلاد، والعنصرة، والنيروز⁴²³.

إن القهوة والشاي لم يكونا قد عرفا بعد في إفريقيا الشمالية في هاته الفترة. ولكن الحشيش كان معروفاً بسببته ابتداءً من القرن السابع/ 13 م. فقد أورد البادسي في ترجمته للولي عبد الملك اليحاتسي، أنه أتاه "فقير من المشرق برسم زيارته، ومعه جراب من ورق القتيب، المعروف عند المستعملين له بالحشيشة". ويؤكد المؤلف أن الأمر يتعلق بنبته الكيف، إذ أن الفقير المشرقي عندما رأى قناديل الزجاج والسماع والشطح قال: "إنما يصلح استعمال ذلك

422 - الدر المنظم، 20

423 - نفسه، 21

المعلوم في هذا الوقت [...] فعزم أن يأكل منه شيئاً ويعود إلى دار الشيخ⁴²⁴.
ومن المؤكد أن الحشيشة انتشرت في أوساط المتصوفة التي استعملتها لزيادة
الحماس الذي تذكّيه الأذكار الصوفية. وربما كانت الفئات المثقفة تتعاطاها
كذلك. فابن خميس ترك لنا شعراً يفضل فيه استعمال الحشيش على شرب
الخمير⁴²⁵.

أما هذا الأخير، فقد كان يستهلك رغم أنه من المحرمات. ومن المعروف
أن القاضي عياض "اضطره الشرع إلى إقامة حدّ الخمر على الفتح بن خاقان"
عندما أتاه مخمراً إلى مجلس قضاائه⁴²⁶. كما أن قوانين مدينة مرسيلىا تتحدث
كثيراً عن الخمر المصدر إلى سبته، وتميز بين الحوانيت التي تبيعه للمسيحيين،
والحوانيت التي تبيعه للمسلمين⁴²⁷.

وأخيراً، نشير إلى أن كثيراً من علماء المدينة أكلوا "البلاذر" لإذكاء
ملكة الحفظ والفهم لديهم. ويبدو حسب بعض التراجم أن النتيجة كانت إيجابية
في أغلب الأحيان، على الرغم من أن شربه كان يسبب اختلالات عقلية وجسدية
في البداية⁴²⁸. أما الطعام الخفيف الذي كان يؤكل بين الغذاء والعشاء، فكان
يعرف بسبته باسمه اللاتيني: "مارندة"⁴²⁹.

424 - المقصد الشريف، 101

425 - درة الحجال، 163-164 لم ينتشر الحشيش انتشاراً واسعاً إلا في القرن السابع
الهجري. يقول الشيخ الأبلي «أنه ظهر في المائة السابعة من المفاصد العظام ثلاث: مذهب
ابن سبعين، وتملك الططر للعراق، واستعمال الحشيشة» انظر، نفح الطيب، 247/5

426 - التعريف بابن خلدون، 112

427 - Mas-Latrie، 89 وكذلك ابن سعيد، المغرب، ج 2، ص 364

428 - الصلة، ج 1، ص 299؛ المدارك، ج 8، ص 196؛ بلغة الأمنية، 25

429 - الأهواني، ألفاظ، 313

2 - السكن

إذا كان الولي عبد الملك اليحانسي قد اشتكى في القرن السابع/ 13 م من صعوبة الحصول على منزل بمدينة سبتة، ملاحظاً أنها "لا تحمل الزحام، ولا تعين على ما يجب من صلة الأرحام"⁴³⁰، فإن ابن الخطيب يشير في القرن الثامن/ 14 م إلى "وجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان" بها⁴³¹. ويمكن أن نفترض أن ارتفاع عدد سكان المدينة، وعدم إمكانية توسعها باتجاه الشرق، دفع بالسبتيين إلى تكوين أرباض بالجهة الغربية من المدينة، وحتى بناء المنازل العليا؛ إذ وجدت بنايات من ثلاثة طوابق بالمدينة⁴³².

ولا نعرف شيئاً كثيراً عن تنظيم المنزل السبتي⁴³³. ولكن من المرجح أن البنية المعمارية لبيوتات سبتة لم تختلف كثيراً عن منازل الجنوب الإيبيري، أو عن بعض منازل المغرب والمنازل الفاسية خصوصاً. فعلى مساحة مربعة أو مستطيلة كانت قاعات لمنزل تتوزع على الصحن، أو المجلس، الذي كان الداخل يمر عبره بعد اجتيازه لعتبة المنزل، واختراقه للبهو. وكانت القاعة العلوية المنفردة تسمى في سبتة، كما كانت تسمى في قرطبة وفاس، باسم "المصرية". وكثيراً من المنازل كانت لها جئات ملاصقة⁴³⁴ تضيء عليها برودة منعشة في الأوقات الحارة، وتقدم

430 - تحفة المغرب، 167

431 - معيار الاختيار، 146

432 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 37

433 - ظهرت دراسات إسبانية حول المنزل السبتي في القرن الرابع عشر الميلادي استناداً على نتائج حفريات أجريت حديثاً في بعض أحياء المدينة، ونشرت نتائجها مؤخراً. انظر بالخصوص :

J. M. Hita Ruiz y F. Villada Paredes, *Un aspecto de la sociedad ceuti en el siglo XIV : Los espacios domésticos*, éd. Museo de Ceuta, Serie Minor, Estudios y Ensayos, Ceuta 2000 ; Id. "Unas casas merinies en el arrabal de Enmedio de Ceuta",

Caetaria, nº 1, Algeiras, 1996, pp. 67-91

434 - مذاهب الحكام، 193

للعين منظراً كان يندر بالمدينة. ومن المؤكد أن بيوتات كبار تجار المدينة وأرستقراطيتها كانت "تقترب كثيراً من شكل المدارس، من حيث زخرفتها، وتعكس من جهة، الثراء المادي والذوق الجميل لأصحابها، ومن ناحية أخرى تعقد المجموعات البشرية التي تحتضنها من حريم وخدم وغيرها"⁴³⁵.

إن التنميق الداخلي للمنزل السبتي لم يختلف عن مثيله الأندلسي⁴³⁶. فقد تأثرت أرستقراطية المدينة بمثلتها بالضفة الشمالية للمتوسط، وهي التي ستعمل على نشر استخدام الزليج. فالمؤرخ البرتغالي "زورورا" انبهر أمام أناقة منازل الأرستقراطية السبتية، وصرح قائلاً: "إن من لم يكن يملك سوى خربة حقيرة بالبرتغال سيقوم في منزل واسع، منمق بزليج متعدد الألوان، وبالجبس وبسطوح جميلة، أطرافها من المرمر الأبيض المصقول جداً [...] والمفروشة بأسرة رطبة، والمليئة بأثاث غالي الثمن"⁴³⁷. لكن الفقراء كانوا لا يجدون سوى الحصور البالية، والوسادات من دوم، للجلوس والنوم.

إن الأدوات المنزلية السبتية كانت بسيطة في مجملها. فجاناب الأدوات الضرورية والمصنوعة من الخزف، أو من الخشب، لتحضير الأطعمة والاحتفاظ بها، فإن أحد أهم الأثاث المنزلي هو ذلك الصندوق المسمى "المنشار"⁴³⁸ المزود ببلج، والذي كان يستعمل لحفظ الأموال والحلي والملابس الثمينة. أما الزرابي المزخرفة، والمستوردة من الخارج في بعض الأحيان، فكانت خاصة بالأغنياء.

435 - زليخة بن رمضان، "التخطيط المادي لمدينة سبتة الإسلامية: محاولة في إعادة بناء التركيبة الحضرية"، مجلة كلية الآداب تطوان، ج 3، 1989، ص 70
436 - بخصوص تنميق حيطان المنازل السبتية، انظر :
Fernando Villada Paredes y José Manuel Hita Ruiz, " Pinturas murales de época islámica en Ceuta", *Aynadamar*, nº1, 2002, pp. 269- 313
Zurara, in Ricard, *Le Maroc septentrional*, p. 16 - 437
438 - الأهواني، ألفاظ مغربية، 150؛ مذاهب الحكام، 247

وكان يعتمد لتوفير الإضاءة على القناديل. ولقد وصلتنا عيّنات جميلة منها، تؤكد أناقة أثاث المنزل السبتي⁴³⁹. أما القناديل الزجاجية التي نجد إشارة إليها في القرن السابع/ 13 م، فلا يبدو أنها استُعملت على نطاق واسع، مثلها مثل الشموع التي كانت أكثر تكلفة، وأقل انتشاراً، والتي لم يكن يستعملها سوى الأغنياء، وخصوصاً في الحفلات⁴⁴⁰.

لقد كانت أزقة المدينة تعلق بأبواب يقيم عليها حراس بالليل، يسمون محلياً باسم "البياتين"، وكانت "تجري عليهم الجرايات"⁴⁴¹. وإذا صدقنا بعض المؤلفين، فإن أبواب المنازل السبتية كانت قصيرة وضيقة، وأغلبها كانت ملبسة بالحديد⁴⁴².

في ضواحي المدينة، وخاصة بليونش، شيدت الأرسقراطية السبتية منازل للراحة، عرفت باسم "المُنِيّة". فالشريف أبو العباس الحسيني كان يتوفر على عدة مُنيّات، مثل منية "العبا"، ومنية "الحافة"⁴⁴³. لكن منازل بليونش التي ما تزال بقايا بعضها قائمة، كانت محصنة بأبراج مقبية، وذات طابع دفاعي. ومن الراجح أن أشكال تلك المنازل هي أشكال قديمة، وتشبه منازل بادية غرناطة⁴⁴⁴.

Posac Mon, *Estudios*, Pl. 11-13 Fernandez Soeto E., *Sala Municipal de Arqueologia*, Ceuta, 1980, p1. 44-46

440 - المقصد الشريف، 101 يشير إلى قناديل من زجاج، وكذلك :

"Un nouveau document sur la grande mosquée de Sabta", *Hespèris-Tamuda*, XXIV, 1986, p. 11

441 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 34

442 - نفسه، 9. "Le Maroc septentrional". Zurara, in Ricard,

Damiao de Gois, *Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521*, Extrait de la chronique du Roi D. Manuel de Portugal. éd. et traduction R. Ricard, Rabat, 1937, 148

443 - أزهار الرياض، ج 1، 33، 37؛ مذاهب الحكام، 247

Terrasse H, "Quelque remarques sur les édifices de Beliounech", *Al Andalus*, - 444 27, 1963, p. 218

3 - اللباس

من المؤكد أن اللباس كان يعكس الفروق الاجتماعية أكثر مما كان يعكسها الغذاء. فالزي يحمل من الدلالات والعلامات ما يفصح عن الاختلافات العميقة بين مكونات المجتمع السبتي. لكن المعلومات حول لباس السبتيين قليلة جداً. فنحن لا نتوفر على رسومات تبين لنا بعضاً من تلك الألبسة التي تشير إليها مصادرنا في بعض الأحيان، دون تحديد لشكلها، ولا للمواد الداخلة في صناعتها. فالنصوص تقتصر على وصف لباس هذا الفقيه أو ذلك العالم بكونها "حسنة"، أو "فاخرة"، أو "رثة". كما أن المصطلحات المستعملة للدلالة على اللباس غالباً ما يصعب تحديدها في غيبة سياق مفسر لها. إضافة إلى أن أغلب تلك الإشارات تتعلق باللباس الاستثنائي الذي لم يكن بطبيعة الحال هو اللباس الاعتيادي للسكان. لقد ترك لنا ابن سعيد⁴⁴⁵ شهادة عن "فلسفة" لباس أبي القاسم عبد الرحمان العثماني، أحد كتاب ولاية سبتة، الذي "كان مشهوراً بالفاهية"، وكان يثير الانتباه بتأنقه في لباسه، حتى أنه أصبح موضع تهكم السبتيين. فقد كان "له في ذلك حكايات محفوظة، وأمور عند أهل سبتة ملحوظة، منها أنه كانت له ثياب النزاهة، وثياب الحمام، وثياب العرس [...] لكل حال ما يليق بها".

ومن المؤكد أن لباس أهل البادية لم يكن هو لباس أهل المدينة. فابن سعيد يورد أن أحدهم "دخل على ابن زهر.. وعليه زي البادية، إذ كان يسكن بحصن سبتة، فلم يعرفه"⁴⁴⁶.

445 - ابن سعيد، اختصار القدر، 196
446 - المقرئ، نفح الطيب، ج7، ص 9

إننا لا نعرف لباس السبتيات، وإذا كنا لا نتوفر على أية دراسة بهذا الصدد، فإننا نتساءل إن لم تكن الأندلسيات المتواجداً بكثرة بالمدينة، واللائي نعرف معرفة جيدة لباسهن⁴⁴⁷، قد أشعن طريقة لباسهن بين السبتيات.

ويظهر أن اللباس العادي كان يتمثل في قميص من قطن أو من صوف وسروال⁴⁴⁸. كما أنه غالباً ما تتم الإشارة إلى "الجبة". فتلك التي كان يرتديها الأغنياء كانت، دون شك، مصنوعة من الحرير ومطروزة، بينما اقتصرت العامة والمتصوفة على جبة من الصوف أو القطن. ومنذ أن توسعت العلاقات التجارية مع أوروبا، بدأت الجبة تختفي لدى الطبقات العليا أمام الانتشار السريع للملف المستورد من البلدان المسيحية. ومع ذلك، فإن اللباس الفوقي المنتشر ظل هو "البرنس"، الذي كان السبتيون يسمونه "الغفارة"⁴⁴⁹. كما أن برانس قصيرة بطربوشها التي تغطي الرأس والكتفين لم تكن مجهولة لدى السبتيين، لأنها كانت تصنع بالمدينة، وتسمى "الكبوط"⁴⁵⁰. ومن المؤكد أن أرسنقراطية المدينة كانت تتخذ فراء القلزية لباساً لها. فقد كان أهل الأندلس من المسلمين والنصارى يستعملون ذلك الفراء⁴⁵¹.

Lévi-Provençal, *Histoire de l'Espagne Musulmane*, III, pp. 424-429. Arié R., - 447
"Quelque remarques sur le costume des Musulmans d'Espagne au temps des Nasrides", *Arabica*, XII, 1965. Idem, *L'Espagne Musulmane au temps des Nasrides*, pp. 382-387

448 - القاضي عياض، المدارك، 87، 175 يشير في ترجمة الفقيه السبتى ابن عبد الرحيم الكتامي، الذي ولاه يوسف بن تاشفين قضاء فاس، أنه أجبر سكانها على «لباس السراويلات

نساء ورجالا ولم يكونوا يلبسونها قبل»

449 - الأهواني، ألفاظ مغربية، 300

450 - انظر، الفصل الخاص بالصناعة

451 - نفح الطيب، 198/1

وفيما يخص لباس الرأس، انتشر استعمال "العمامة"، وكذلك القلنسوة والشاشية⁴⁵². أما بالنسبة للأحذية، فنلاحظ أن استعمال "القرق" كان منتشرًا لدى النساء والرجال، وكذلك "البلغة". ولم تكن "الريحية" مجهولة لدى السبتيين. وفي الحمامات كان يستعمل القبقاب. أما الفقراء والمعدومون فقد كانوا يسرون حفاة⁴⁵³.

من بين أدوات التجميل نجد "الحنة"، التي استعملها الرجال والنساء على حد سواء. ولبست المرأة الخمار، بينما كانت الجوارى سافرات.

هل كان هناك لباس خاص بمناسبة الموت؟ إحدى رسائل أهل سبتة بعد سقوط المدينة سنة 818 / 1415م تشير إلى أنه بعد دخول البرتغاليين للمدينة "لبس سكانها مسوح العهن والوبر والشعر، وقلبوا القلانس البوالي والنعال السود"، وتوجهت "نساؤهم بشمارير اللبد وسعف الدوم". كما كنّ أول من لبس "الريحية" ذات اللون الأسود، وهي التي بقيت سائدة بالمنطقة إلى السنين الأخيرة⁴⁵⁴.

4 - الماء: تقنيات التجميع والتوزيع

من القضايا ذات الارتباط الوثيق بالمستوى المعيشي للسبتيين هناك مشكلة الماء. بل من المؤكد أن قضية الماء كانت من بين أهم المشاكل التي واجهت سكان سبتة في حياتهم اليومية. فكيف استطاع السبتيون توفير مادتهم

452 - التعريف بالقاضي عياض، 112؛ الأنصاري، اختصار الأخبار...م.س، 40؛ ابن هشام، ألفاظ، 293

453 - Ferhat H., "Un nouveau document sur la grande mosquée de Sabta", *Hespèris-Tamuda*, XXIV, 1986, p. 14

454 - رسالة منشورة على هامش اختصار الأخبار، ص 76-80

الحيوية؟ وكيف استعملوها وخزّنوها؟ وما طرق تجميعها وصرفها؟ وكيف تدخلت هذه المياه في إضفاء طابع خاص على المنشآت العمرانية بالمدينة؟

تعرض الباحث صعوبات جمة عندما يحاول أن يتعرف على طرق تجميع المياه وتوزيعها بسببته الإسلامية. وهذا موضوع دقيق مرتبط بالمرافق الأخرى الدينية والاقتصادية والعمومية للمدينة. فباستثناء نص فريد حول معالم المدينة، وهو "اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار" لمحمد بن قاسم الأنصاري السبتي، الذي أفرده الباحثون ما يستحق من عناية؛ بحيث تعددت طبعاته، وترجم إلى لغات أجنبية عديدة، فإن النصوص المتعلقة بالجوانب المعمارية السبتية قليلة، ونكاد نفقدها فيما يخص موضوع الماء وتقنيات تجميعه وتوزيعه. فالنصوص العربية التي أولت اهتمامها للمسألة مرتبطة أساسا بمنطقة بليونش، إحدى متنزهات الأرسقراطية السبتية خلال العصر الوسيط. فقد أُنظمت النصوص في وصف خصبها الزائد، ومتنزهاتها وعيونها الجارية ووديانها... إلخ. أما قضية الماء بالمدينة نفسها، فإنها نادرا ما أثارت انتباه المؤرخين. كما أن شهادات الجغرافيين العرب بقدر ما هي قليلة، وتعيد بعضها البعض، فإنها متضاربة وتحتاج إلى تأويل، كما سيتبين لنا في حينه.

إن الغموض في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب، وغياب التحريات الأثرية، هو الذي يفسر لنا تضارب آراء الباحثين المحدثين فيما يخص تموين المدينة بالماء. فالأستاذ جرمان عياش يرى أن المدينة "لم تكن تتوفر على ماء"⁴⁵⁵، وأن تزويدها به كان يتم من الخارج، أي من بليونش. بينما

G. Ayache, "Beliounech et le destin de Ceuta entre le Maroc et l'Espagne", - 455
Hespéris- Tamuda, vol. XIII, 1972, p. 12

يؤكد أوغست مولييراس، الذي زار المدينة في نهاية القرن التاسع عشر، أن "سبتة تتوفر على ميزة كبيرة مقارنة مع باقي المناطق التي تحتلها [إسبانيا] على الساحل الريفى : إنها مزودة بكثرة بالماء. فعيونها وخزانات مائها، وصهاريجها، تحميها من الموت عطشا"⁴⁵⁶. والواقع أن الرأيين في حاجة إلى تعديل. فلم يكن تزويد المدينة بالماء متوقفا على الخارج كلية، ولم يكن باطن شبه الجزيرة السبتية زاخرا بالمياه الجوفية.

أ) الموارد المائية الطبيعية :

من بين خمسة أمور يرى ابن خلدون أنه يجب مراعاتها عند اختطاط المدن، نجد أربعة منها كانت تنقص مدينة سبتة؛ وهي الماء وطيب المراعي والمزارع والشجر. بل إن صاحب "المقدمة" وضع مسألة المياه على رأس الأمور التي يجب مراعاتها في أوضاع المدن، "لجلب المنافع وتسهيل المرافق للبلد"⁴⁵⁷.

فخلافًا للمدن الأخرى، لم يكن وجود مدينة سبتة مشروطاً بعنصر الماء. فالأرض التي تقوم عليها شبه الجزيرة السبتية مكونة من أحجار شستية مانعة لنفاذ المياه، ولا تسمح بخلق فرشاة مائية مهمة تحت أرضها. إن قلة الماء كان إحدى الثوابت التي لم تقف حائلاً أمام تطور المدينة، لأن سكانها تمكنوا بوسائل متعددة من الحصول على المياه الضرورية. ومن المؤكد أن العيون التي كانت تتدفق في سبتة لم تكن تلبى كل حاجيات السكان. وباستثناء "عين ماء لطيفة، لكنها لا تجف البتة" أشار إليها الإدريسي بأعلى جبل الميناء⁴⁵⁸، فإن أغلب

A. Moulières, *Le Maroc inconnu*, t. II, Paris, 1899, p. 710 - 456
457 - ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص 371
458 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 427

عيون المدينة لم تكن تقدم سوى صبيب ضعيف، وفي فترات محددة من السنة. وإذا كانت مصادر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تشير إلى عيون عديدة ذات صبيب ضعيف يشبه الجزيرة السبتية، وتجف في أغلب فترات السنة، باستثناء عين الميناء والقبة⁴⁵⁹، فإنه يصعب التسليم بكونها كانت موجودة كلها خلال العصر الوسيط.

ب) السقايات

يخبرنا الأنصاري في بداية القرن التاسع / 15 م أنه كانت توجد بسبنة خمس وعشرون سقاية عمومية. وضمن هذا العدد يجب على الأقل إدخال بعض العيون التي كانت تقع داخل المدينة أو بالأرباض. والملاحظ أن أغلبية السقايات التي يذكرها الأنصاري في كتبه "اختصار الأخبار"، كانت سقايات اصطناعية، بمعنى أن الماء لم يكن ينبع منها مباشرة، بل كان يجلب إليها إما بواسطة القنوات، أو أنها كانت عبارة عن جباب تخزن مياه المطر. ونذكر من بين سقايات سبتة :

- سقاية باب الشواشين : لا يطرح موقعها على الخارطة الحالية لسبتة مشكلا، كانت تقع بإزاء باب الشواشين، من أبواب جامع سبتة (الكاتيدرائية حاليا) بطرف العطارين (شارع O'Donnell حاليا)، وأول سماط العدول (شارع Jaudenes حاليا). ولقد اعتبرها الأنصاري "أبدعها صنعة ووضعها [...] ذات

Gozalbes Cravioto C, "El abastecimiento de agua en la Ceuta medieval", - 459 *Boletín de la Asociación Española de Orientalistas*, VII, 1981, p. 229-230; Idem, "El agua en la Ceuta medieval: obtención, almacenamiento y distribución", *I Congreso de Historia y Medio Físico, El agua en zonas áridas : arqueología e historia*, 1989, pp. 779-796
Idem, "El agua de Ceuta medieval", *Transfretana*, V, 1993, p. 62-63

العنايب النحاسية والألواح الرخامية، والزخرفية والتنميق⁴⁶⁰. وقد تم اكتشاف صهاريج كبيرة مزدوجة ومتصلة ببعضها البعض في شارع *Independencia* و *Jaudenes* يبدو أن لها ارتباطا مع هذه السقاية، أو مع الحمام المجاور للجامع⁴⁶¹. ومع ذلك، فإن المكان الذي توجد فيه هذه السقاية هو عبارة عن طبقة سميكة من الحجر الشستي الذي يمنع تكوين أي حوض، أو إمكانية توفير جيوب مائية في أي فترة من السنة. لذلك يفترض أن هذه السقاية كانت تزود بواسطة قناة "الأقواس المنحنية" الآتية الذكر⁴⁶².

- **سقاية جب الميناء** : يخبرنا الأنصاري أنه من بين السقايات المعدة لسقي الدواب، من الخيل وغيرها "سقاية جبّ الميناء، العظيم الهيكل" الذي ابتناه الفقيه الرئيس محمد العزفي. لقد كان عبارة عن " صهريجين مشتركين، يمد أحدهما الآخر، قد أحكم الأسفل والأعلى منهما فرشاً بالألواح الصخر المنجور أتم إحكامه وأكمله"⁴⁶³. يمكن القول أن جب الميناء كانت مفتوحة، وتجمع مياه الأمطار المنحدرة من جبل المينا (جبل هاشو حالياً). لذلك، فإنها لم تكن صالحة للشرب إلا في الحالات الاستثنائية.

- **سقاية القبة** : كانت سقاية القبة تقع، حسب الأنصاري، بالربض البراني، وهي عبارة عن " صهريج مستطيل متصل بينر قريبة التناول، طيبة الماء، وعليها قبة على أربعة أعمدة، وإلى جانبها أثار متعددة للسبيل، وربما بلغ

460 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س.، 40؛ 63، op. cit. p. 63
461 - C. Posac Mon, " La arqueología en Ceuta entre 1960 y 1970", *Noticiario Hispanico Arqueológico*, XV, 1971, p. 233
462 - نفسه
463 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س.، ص 40

الثمانين⁴⁶⁴. هذه السقاية تطابق بلا شك عين "Chafaris" البرتغالية، أو عين "San Antonio" التي تظهر في عدة خرائط إسبانية وبرتغالية، وتوافق حالياً "حدائق الجمهورية الأرجنتينية". إن هذه السقاية بأبارها الثمانين، دفعت بعض الباحثين إلى افتراض أنها آبار لها علاقة بشبكة هدرولوجية تحت-أرضية، تربط البئر الرئيس بالأبار الأخرى التي قد تكون حُفرت على مسافات مشابهة⁴⁶⁵. إلا أن الأبحاث الأركيولوجية لم تؤكد بعد هذا الافتراض.

(ج) نقل المياه

تتضارب نصوص المؤرخين والجغرافيين العرب عندما تتعرض لطرق نقل المياه بمدينة سبته الإسلامية. فضلاً عن النقولات التي لا تأخذ بعين الاعتبار تطور تقنيات النقل المستعملة بالمدينة، فإن المصادر تذكر، عندما لا تلوذ بالصمت، استعمال "الشواني" أو "الشواتي" أو "الظهر" في عملية نقل المياه. وطرق النقل هذه تظل غامضة في غيبة سياق مفسر وموضح لها⁴⁶⁶. فابن حوقل يقول إن ماء المدينة "من داخلها يستخرج من آبار بها معين، ومن خارجها أيضاً"⁴⁶⁷. أما البكري، فيذهب إلى أن "حماماتها يجلب إليها الماء على

464 - نفسه

465 - Gozalbes, El agua...op. cit., p. 63

466 - ابن حوقل (صورة الأرض، بيروت، 1963، ص 79) يقول: إن ماء المدينة «من داخلها يستخرج من آبار بها معين ومن خارجها أيضاً» أما البكري، فيذهب إلى أن «حماماتها يجلب إليها الماء على الظهر من البحر» المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، نشر دي سيلان، باريس، 1965، ص 103 بينما يخبرنا ابن عذاري بأنه «يجلب الماء إلى حماماتها من البحر»، البيان المغرب، تحقيق ليفي بروفنسال... الجزء الأول، 202؛ في حين يرى العمري (ص 137-138) أن «شرب أهلها من الماء المجلوب إليهم من البحر من بليونش وغيرها» وأن «حماماتها يجلب إليها الماء على الظهر من البحر في الشواتي» بينما ينقل الفلقتشندي قوله «الماء يجلب إليها من الشواني حتى للحمامات التي بها»

467 - ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، 1963، ص 79

الظهر من البحر"468، بينما يخبرنا ابن عذاري بأنه " يجلب الماء إلى حماماتها من البحر"469؛ في حين يرى العمري أن شرب أهلها من الماء المجلوب إليهم من البحر من بليونش وغيرها"، وأن "حماماتها يجلب إليها الماء على الظهر من البحر في الشواتي"470، بينما ينقل القلقشندي عن غيره قوله: "الماء يجلب إليها في الشواني حتى للحمامات التي بها"471.

وبما أن العيون السبئية كانت تعطي صيباً لا يغطي بتاتاً احتياجات السكان، فقد وجد منذ العهود القديمة، ضرورة جلب الماء من الحقول الخارجية عن طريق مجرى مائي اصطناعي. إن بقايا قناة مائية بنواحي سبتة تطرح بعض المشاكل في وجه المؤرخين والأركيولوجيون. فعلى بعد بضعة كيلومترات من سبتة، في اتجاه "الحدود" المصنعة مع المغرب، وعلى مقربة من جدول "Las Bombas" بالقرب من شاطئ "طاراخال"، توجد بقايا قناة أطلق عليها اسم "الأقواس المنحنية" Arcos Quebrados. إن بقايا هذه القناة ما تزال باقية لحد الآن، وهي عبارة عن ركيزة للقوس الرئيسي، علوها حوالي 15 متر، وبجانبيها بقايا ثلاثة أقواس أخرى فقط. وقد ظل قوس واحد منها - وهو أصغرهما - قائماً. إن تركيب القناة غير منظم، فهي مكونة من أحجار مشذبة في الزوايا، ومضمومة لبعضها البعض بملاط كلسي472.

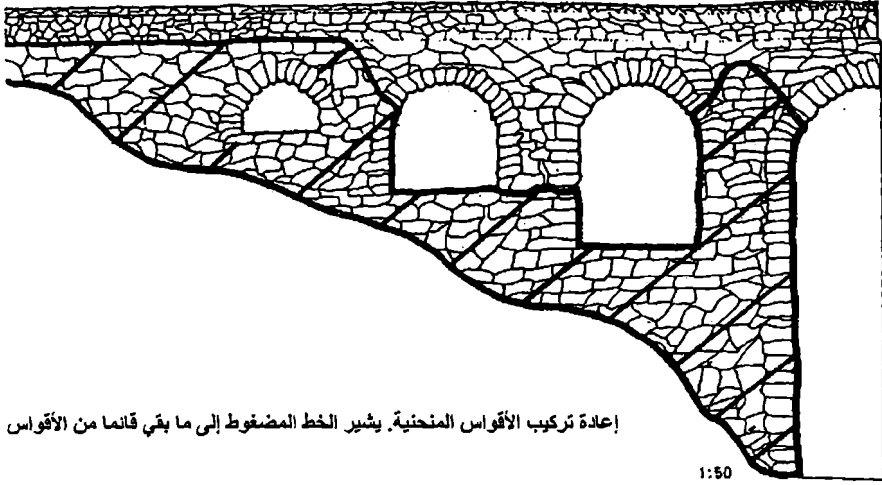
468 - أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، نشر دي سلان، باريس، 1965، ص 103

469 - ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق ليفي بروفنسال، ج 1، ص 202

470 - ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، (من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر) تحقيق مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1988، ص 137-138

471 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج 5/ 153

472 - Posac Mon C., "El acueducto romano de Arcos Quebrados", Segovia y la Arqueología romana, Barcelona, 1977, pp. 325-327



إعادة تركيب الأقواس المنحنية. يشير الخط المضغوط إلى ما بقي قائما من الأقواس

1:50

ترجع القناة من الناحية الأركيولوجية إلى الفترة الرومانية المتأخرة، أو إلى الفترة البيزنطية. ويُعتقد أنها بنيت في فترة كانت فيها سببة موضوع صراع بين السلطة الفيزيقوطية والسلطة البيزنطية⁴⁷³. إن موقعها كان سيكون مستحيلا عندما تتعرض المدينة لهجوم من ناحية الجنوب، أي من الناحية القاريّة. فهل كان الخطر الوحيد الذي تعرضت له المدينة طيلة العصور القديمة يأتي من جهة البحر فقط؟

لقد كان للـ"الأقواس المنحنية" تخطيط ملتو. فهي بذلك يجب أن تسير بمحاذاة البحر. إن أول ذكر لهته القناة في النصوص العربية يرجع للبكري الذي أشار إلى ذلك المنحى عندما يقول إنها كانت تسير "مع ضفة البحر القبلي"⁴⁷⁴، وبالتالي فمن الممكن أنها كانت تخترق الربض البراني. إن قربها من البحر هو الذي يفسر لنا قول ابن عذاري بأن ماء المدينة "يجلب إلى حماماتها من البحر"، أو قول العمري بأن "شرب أهلها من الماء المجلوب إليهم من البحر".

Gozalbes, El agua...op. cit., p. 66 - 473

104 - البكري، 474

من جهة أخرى، يخبرنا البكري بأن ماء سبتة كان يجلب "من نهر أويات مع ضفة البحر القبلي في قناة إلى الكنيسة التي هي اليوم الجامع"⁴⁷⁵، أي المنطقة الوسطى لسبتة. ونعتقد أنه انطلاقاً من هاته المنطقة الوسطى كانت القنوات الصغرى توصل الماء الشروب إلى السقايات الأخرى بالنواة الحضرية.

ويبدو أن هذه القناة لم تعد تلبي كل حاجيات المدينة المائبة المتزايدة بتزايد عدد سكانها، وتوسع نسيجها الحضري؛ أو أنها تعرضت للتلف، الأمر الذي استدعى ضرورة البحث عن وسائل أخرى لجلب المياه للمدينة. ففي القرن السادس/ 12 م يخبرنا صاحب كتاب "الاستبصار" أن الخليفة الموحد، أبا يعقوب، أصدر أوامره سنة 580 [1181 م] "بجلب الماء إليها من قرية بليونش المذكورة على ستة أميال من سبتة، في قناة تحت الأرض، حسبما جلبه الأوانل في قرية قرطاجنة وغيرها، وشرع في العمل، فعرضت أمور أوجب التربص إلى حين يأذن الله تعالى بذلك، والرجاء الآن مؤمل، ونحن في سنة 87[5]"⁴⁷⁶. وإذا كنا لا نعرف مصير المشروع الموحد، فإن بليونش التي كانت مقصد العائلات السبتية الميسورة خلال فصل الصيف، هي التي كانت تتوفر على مياه غزيرة. إن الأبحاث الأركيولوجية توضح وجود نظام واسع ومعقد للزراعة ولتخزين المياه بهذه المنطقة⁴⁷⁷.

475 - نفسه

476 - مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 137

Cressier P. (et al.). *El urbanismo rural de Belyounech*, op. cit., pp. 327- 349 - 477
H. Terrasse, *Recherches archéologiques d'époque islamique en Afrique du Nord, Compte rendu de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres de 1976*, Paris, 1977, pp. 590- 611

د- أساليب أخرى لاستخراج المياه وجلبها

ولم يكن جلب الماء من بليونش العملية الجديدة، ولا الوحيدة، التي لجأ إليها السبتيون للحصول على الماء، فقد وجدت طرائق أخرى لاستخراجه. يتعلق الأمر بماء البحر المستعمل في الحمامات كما يستشف من شهادات البكري، والعمرى والقلقشندي، السالفة الذكر.

ومن المحتمل أن يكون الأمر المتعلق بنظام الناعورات الرافعة للماء والتي تحركها الدواب، بحيث تستخرج المياه من البحر وتصب في المصاريف التي توزعها بدورها على الصهاريج والحمامات. ويشير الأنصاري إلى هذه الطريقة، ولا شك، عندما يخبرنا أن الميضاة الكبرى، ميضاة الجامع الأعظم، كان يجلب إليها الماء بالدواليب. كما أن المقرئ يشير إلى نفس التقنية في معرض حديثه عن مآثر الشريف أبي العباس الحسني، إذ يقول: "وله بسببة آثار تحكي الآثار العزفية، كالرياض الأعظم الذي أمام باب الميناء الأسفل، الذي تأنق في بنيانه وأبدع صنعه، وجلب إليه الماء بالدواليب، حتى أوصله إلى القبة ذات الأعمدة"⁴⁷⁸.

هذا، وقد استعملت طريقة أخرى أشار إليها كل من العمرى، وأبي الفداء، والقلقشندي، وهي حمل الماء بواسطة المراكب. وأخيراً فإننا لا نعدم وجود السقانيين الذين يحملون المياه على أكتافهم، أو على دوابهم⁴⁷⁹ بسببة في العصر الوسيط.

478 - المقرئ، أزهار الرياض، ج 1/39-40
479 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م.س، 43

هـ - تخزين الماء: الأحواض والصحاريح

لقد أشار ابن حوقل إلى استعمال الآبار بسببته منذ القرن الرابع الهجري/ 10م⁴⁸⁰ قائلاً: " وماؤها من داخلها يستخرج من آبار بها معين" ⁴⁸¹، ولكن نادراً ما كانت هذه الآبار تعطي مياهاً غزيرة. وفي كل الحالات كان ماؤها أجاباً وردياً. فقد وصف ابن الخطيب آبار المدينة بكونها " غير بكّية"، ولا غزيرة⁴⁸².

ولا تشير مصادرنا إلى استعمال الخزانات والصحاريح لتخزين مياه الأمطار وجلبها إلا ابتداء من القرن السابع/ 13 م. فقد أشار إليها كل من أبي الفدا والعمرى والقلقشندي والأنصاري. فالعمرى يقول: " وفي داخلها صحاريح من ماء المطر"، أما أبو الفدا والقلقشندي، فيؤكدان أن ماءها مجلوب، "ولها صحاريح من المطر"⁴⁸³

ويبدو أن الصحاريح والجباب أصبحت لها أهمية كبيرة في المدينة، حتى صارت كتب التواريخ تحرص على تسجيل سنوات إنشائها، وتعدّها من المنجزات التي تستحق التنويه. فالأنصاري يتحدث عن سقاية "جب الميناء العظيم الهيكل الذي ابتناه الفقيه الرئيس محمد العزفي، وخلده أثراً غريباً بعده"⁴⁸⁴. بينما سجل صاحب "الذخيرة السنية" بناء الفقيه العزفي للجب بأسفل الميناء من مدينة سبته ضمن أهم أحداث المغرب سنة 654 هـ/1256م⁴⁸⁵. بل

480 - ابن حوقل، صورة الأرض، 79

481 - نفسه

482 - ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، 146

483 - القلقشندي، 157؛ العمرى، 137-138؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، 133

484 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 40

485 - مجهول، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، 1972، ص 82

إن المطامير التي استعملت على نطاق واسع بالمدينة لتخزين الحبوب، كانت في بعض الأحيان تستعمل لخرن المياه، كما توضح ذلك نتائج الأبحاث الأركيولوجية⁴⁸⁶.

أما المؤرخون البرتغاليون، فقد أشاروا كذلك للصحاريج. فـ "زورارا" يخبرنا أنه كانت توجد "صحاريج وسقاية قرب الباب المسماة باب المينا، التي تشرع على الربض الشرقي نحو جبل هاشو الحالي"⁴⁸⁷. وقد ترك لنا أحد الكتاب البرتغاليين وصفاً لأحد هذه الصحاريج، بما ينم عن أهميتها في تزويد السكان بالماء الشروب. يقول: "إنه صهريج جميل وكبير، مقبب، ويحتوي على أكثر من ثلاثمائة عمود من حجر. وسطه كله مغطى بالزليج أو بالأجر المزلج". وبعد أن يشبه هذا الصهريج بقريّة من خمسمائة نسمة، يخبرنا أن "المسلمين كانوا يجمعون في هذا الصهريج كميات هائلة من المياه، بالإضافة إلى العيون التي تتدفق بالمدينة". ويبدو أن سلطات المدينة لم تتكلف وحدها بنفقات صيانة هذا الصهريج، لأن "كل السفن التي تأتي إلى هنا وتريد أن تتزود بالماء، كانت تؤدي قدراً معيناً لإصلاح هذا الصهريج"⁴⁸⁸. ويبدو أن هذه المعلمة قد تعرضت للتلف قبل بداية القرن التاسع/ 15 م، لأن الأنصاري لم يشر إليها بتاتاً في اختصار أخباره، رغم حرصه على الإشادة بمآثر المدينة، القائمة منها والمندثرة.

ومن بين أهم الصحاريج المائية التي كانت تزود سكان المدينة بالماء، نشير بصفة خاصة إلى صهريجين كبيرين على مقربة من الجامع الكبير،

Posac Mon., *Datos para la arqueologia*, op. cit. p. 161 - 486

Ricard R., *Le Maroc septentrional*, op. cit. 9-10 - 487

Valentin Fernandez, *Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal*, - 488

Traduction par P. de Cenival et T. Monod, Paris, 1938, 21

أحدهما كان يجمع مياه الأمطار، لكن ليس فقط عن طريق فتحة الجب، وإنما بواسطة طريقة معقدة لصرف المياه. أما الصهريج الآخر فكان يجمع المياه المنقولة بواسطة قناة الأقواس المنحنية⁴⁸⁹.

ونتوفر على مثال لصهريج كبير عُثر عليه في سراديب إحدى البنايات في بداية شارع *Jaudenes*، وقد درسه الباحث الأركيولوجي الإسباني، كارلوس بوساك مون⁴⁹⁰، كما عُثر على صهريج آخر يتكون من مستودعين مستطيلين ومتصلين ببعضهما⁴⁹¹.

إن هذه الصهاريج كانت لها علاقة - ولا شك - بقاعة وضوء الجامع الكبير، أو بقاعة المدرسة الجديدة، أو بالحمامات الملحقة بها. كما إن كثيراً من هذه الصهاريج كانت توجد قرب جبل المينا، لاحتواء المياه السيالة من سفوحه. ويشير الأنصاري بدوره إلى " صهريجين مشتركين يمد أحدهما الآخر " بجبل المينا⁴⁹².

و- ترشيد استعمال الماء بسببته: التخصص في الاستعمال

على عكس المناطق التي يتوفر بها الماء بكثرة، والتي كانت تستعمل نوعية واحدة من الماء في جميع الاستعمالات والوظائف، فإن قلة الماء في سببته دفعت بالسكان إلى الاستفادة من جميع أنواع المياه الموجودة، وإلى استغلالها حسب نوعيتها، مما خلق نوعاً من التخصص في وظائفها. لقد استعمل صنفان أساسيان من المياه في الحمامات وفي البيوت الميسورة، وكذا

Gozalbes, *El agua..*, op. cit.. 69- 489

C. Posac Mon, *Estudio arqueológico de Ceuta*, Ceuta, 1962, 43 - 490

Idem - 491

492 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، ص 40

في ريّ البساتين داخل المدينة نفسها⁴⁹³ : الماء الشروب وماء البحر. لقد كان ربض المينا في هوامش جبل المينا نفسه، يستفيد من مياه الأمطار ومياه الآبار التي كانت توجد هناك بلا شك. كما كان يتم الحصول على الماء المخصص للشرب وللحمامات كذلك من الجباب والآبار التي كان تتوفر عليها أغلب المنازل السبتية⁴⁹⁴. وعندما تجف الآبار في فصل الصيف، كان يتم التزود من العيون أو من الصهاريج الكبيرة التي كانت توجد بجوار الجامع الكبير. وفي هذا الصدد، يشير "بوساك مون"، وهو يستند على أبحاثه الأركيولوجية، أن منازل سبتة كانت تتوفر على بساتين ملاصقة لها، تجري إليها المياه بواسطة سقايات صغيرة، أو في أنابيب من الرصاص والطين. إن أغلب المكتشفات الأثرية المتعلقة بفوهات الآبار تم العثور عليها بمنطقة الربض الأوسط⁴⁹⁵.

ولقد أشارت المصادر - التي تجمع على أن حمامات المدينة كانت تستعمل مياه البحر - إلى هذا التخصص. من جهة أخرى نجد الأنصاري يلمح إليه في معرض حديثه عن مياه أحواض جبل المينا، التي لم تكن كلها شروباً. فهو يشير إلى "السقايات المعدة لسقي الدواب من الخيل وغيرها"، وعلى رأسها سقاية جب الميناء، "العظيم الهيكل المشهور"⁴⁹⁶.

من جهة أخرى نجد أن كثيراً من الصناعات تحتاج إلى كميات هائلة من الماء، مثل الطاحونات المائية، والمقاصر، والدباغة، إلخ. ويستنتج من "اختصار الأخبار" أن جميع مرافق المدينة الصناعية كانت تتوفر على كميات

493 - يشير زورارا إلى المنازل ذات البساتين في الطرف الغربي، بين المدينة وأفراك.

انظر : R.Ricard, *Le Maroc septentrional.. op. cit.*, p. 11

Posac Mon, *Estudio arqueológico de Ceuta*, p. 43 - 494

495 - نفسه، 45

496 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 40

كافية من المياه. فهو يشير إلى أن غالبية مقاصر المدينة كانت توجد قرب "القالات"، التي كان الماء يجري فوقها داخل قواديس⁴⁹⁷، أما طواحين المدينة، فقد كانت جميعها بمياهها، "لا تفتقر ولا تحتاج إلى شراء ماء من سقاء، ولا من غيره أصلاً"⁴⁹⁸

بفضل هذه التقنيات، وبفضل التخصص في استعمالهم للمياه حسب الحاجة، نجح سكان سبتة في التغلب على مشكلة قلة المياه بمدينةتهم. بل إنهم نجحوا في تزويد جميع المرافق بالمادة الأساسية حسبما يستخلص من وصف الأنصاري لسبتة في القرن التاسع/ 15م. إنه وصف يترك الانطباع لدى القارئ بأن مشكل الماء كان قد وجد الحل بصورة نهائية بكل أنحاء المدينة، وعلى جميع المستويات. فهو عندما يتطرق للمرافق المحتاجة للمياه، مثل السقايات والميضآت والمقاصر وغيرها، يقدم لنا عنها وصفاً لا يدع مجالاً للشك في وفرة المياه بالمدينة. فعند تعرضه مثلاً للحمامات بالمدينة يقول: "وعدد الحمامات المبرزة للناس اثنان وعشرون حماماً"، ويصف حمام القائد بكونه "بلغ الغاية في الكبر، يسع المئين من الناس". أما "حمام عبود بناحية الميناء [فكان] نظير حمام القائد في الضخامة والهيكل"، كما كان "بالقصبية عشرة حمامات"، بل كان "بكل دار من ديار سبتة حمام ومسجد إلا القليل". أما بخصوص الطواحين المائة والثلاث فإنها كانت جميعاً "بمياهها فيها لا تفتقر ولا تحتاج إلى شراء ماء من سقاء ولا من غيره أصلاً". ويختتم الأنصاري شهادته بالقول: "وكذلك

497 - نفسه، ص. 49- 50

498 - نفسه، 43

جميع مساكن سبته، حيثما كانت بأقطار المدينة، حتى ذلك موجود في
المصريات والعليات المحملة⁴⁹⁹.

لقد عرف السبتيون كيف يحصلون على الماء، وكيف يخزنونه، حتى
أصبحوا من مهرة استعماله. لقد تم تجاوز مشكلة الخصاص في الماء بطريقتين
: تنوع طرق الحصول عليه بشكل يضمن أقصى غزارة ممكنة، ولو عن
طريق الحصول على كميات صغيرة. ومن جهة أخرى، تحقيق ما يمكن أن
نسميه بالتخصص في وظيفة كل نوع من أنواع المياه، مع ترشيد استغلالها
على أحسن وجه.

أما بنية توزيع الماء بسبته خلال العصر الوسيط، فقد ظلت صالحة
لتزويد المدينة بالمادة الحيوية طيلة العصر الحديث والمعاصر⁵⁰⁰. وإلى حدود
بدايات القرن العشرين، كانت البنية الوسيطة كافية لتلبية حاجات سكان شبه
الجزيرة السبتية.

ومن الثابت الآن أن عملية تنظيم شبكة المياه من أهم العوامل التي
ساعدت على إنشاء العديد من المنشآت المعمارية التي كانت تزخر بها مدينة
سبته الإسلامية. فالسقايات والميضآت مثلاً، تعتبر أشكالاً معمارية ذات قيمة
فنية وزخرفية أضفت رونقا على الطرق العامة بالمدينة، ومنشآتها العمومية
والخصوصية⁵⁰¹.

499 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س، 34-35، 39-41، 43، 49-50

500 - Gozalbes Cravioto, "El abastecimiento de agua", op. cit. 238 - 500

501 - إن وصف الأنصاري يفصح جليا عن هذه العلاقة بين الماء والزخرفة المعمارية.
يصف لنا حمام القائد ناصح قائلا : " وهذا الحمام... قائم على أعمدة الرخام، مفروش بالواحه
الساطعة البياض، والمسلك متسع الساحة... وسقفه قبة مرتبة متقنة على أربع حنيات،
وبالصحن صهريج كبير مرتفع عن الأرض، وفي وسط الصهريج سارية مجوفة، فوقها

IV - الأعياد

إدخال الاحتفال بعيد المولد النبوي

إلى جانب العيدين الدينيين، عيد الفطر وعيد الأضحى، احتفل السبتيون بعيد آخر غير محددة بوضوح طبيعته ومقتضياته (مبدئياً صيام وصدقة) : إنه عاشر محرم أو "عاشوراء". أحد متصوفة المدينة كان يصنع الطعام للفقراء في هذا اليوم، ويكثر من الإنفاق عليهم، واعتاد على ذلك الاحتفال، ولم يكن يتركه ولو اضطر للاستدانة⁵⁰². وكانت النساء يشاركن بكثافة في هذا العيد، دون أن يثير ذلك حفيظة الفقهاء⁵⁰³. لكن هذا العيد سرعان ما خبا بريقه مع بداية الاحتفال بعيد المولد النبوي. كما أن ليلة السابع والعشرين من رمضان كانت مناسبة لإقامة "السماع والرقص" والذكر في المنازل والمساجد⁵⁰⁴.

لقد احتفل السبتيون كذلك ببعض الأعياد الموسمية المعروفة بأسمائها الفارسية، مثل : "النيروز" (أو النوروز)، و"المهرجان" (أو العنصرة) الذي له علاقة بالنبي يحيى بن زكريا. ولم يكن يُحتفل به في شهر سبتمبر، كما كان

طيفور من الرخام الموصوف يصعد الماء في جوف السارية إلى أن يفور في الطيفور، وفيضه يملأ الصهريج" (ص 34-35). أما ميضأة المدرسة الجديدة، فيقول عنها (ص 141) : " تحتوي على بيوت ثمانية ومطهرة كبيرة، وفي كل منها نغير من الرخام يصب فيها ميزاب من النحاس، وفرش الجميع ألواح منجورة من الصخر، وبوسطها صهريج مفروش بالزليج الملون، وقتها مونة، ومن بعضها صنائعها نور البايونج يخاله الناظر إليه خلقة من أحكام الصنعة، ويجلب الماء إلى ذلك كله بالدواليب". أما سقاية باب الشواشين، فكانت أبرع سقايات المدينة "ذات العنايب النحاسية والألواح الرخامية والزخرافية والتنميق" (ص 40)

502 - التشوف، 271

503 - "Un nouveau document sur la grande mosquée de Sabta", p. 7-14

504 - البيان المغرب، 397

الحال في المشرق، وإنما في 24 يونيو من تقويم جوليان. وإلى هذين العيدين يجب أن يُضاف عيد يناير⁵⁰⁵.

إن المصادر تبين أن النيروز كان مناسبة لإقامة الزواج، وكانت العادة أن تصنع حلويات بهذه المناسبة على شكل مدائن مسيجة. أما فيما يخص المهرجان، فإن الطابع السحري - الديني الذي كان يرافق طقوسه الشعبية، قد أضفي عليه طابع الغرابة والطفرة. فقد كانت توقد النار، وكانوا يضعون "جمارة تحت أسرتهم تفاؤلا وأمانة ليكونوا في عامهم ذلك أكسى من الجمارة"، ويرشون المنازل بالماء، وتلقى أوراق الكرنب في الملابس، ولا يغتسل في ذلك اليوم، ويتم إخراج الملابس لتبتل ليلاً... إلخ⁵⁰⁶.

لقد صدمت هذه الاحتفالات والطقوس المصاحبة لها - فضلاً عن الإقبال الذي كانت تلقاه لدى سكان المدينة - الفقيه أبو العباس أحمد العزفي. فقد كان السبتيون المعاصرون لفتيها "يعظمون شأن البدع الثلاث: الميلاد، وينير، والمهرجان [...] فهم يرتقبون مواقيتها، ويفرحون بمجيئها [...] واستسهلوا هذه البدع حتى ألقوها وعظموها، حتى صارت عندهم كالبدعة المتبعة". وكانت الحوانيت تغلق أبوابها وكذلك القيسارية وسوق العطارين، وجميع من "لا يبيع ما يحتاجون إليه" في تلك المناسبة؛ مع ما "في ذلك لضعفانهم من الدالين وغيرهم قطع المعاش، وتعذر الأرزاق". كما كانوا "يطلقون الصبيان من المكاتب". وقد رأى العزفي أن "من أعظم أسباب هذه البدعة وأقوى دواعيها مطاوعة الرجال للنساء على الاستعداد لها، والتفخيم لشأنها، وانقيادهم لهن في

505 - حول جميع هذه الأعياد، انظر العزفي، الدر المنظم، 1-3
506 - نفسه

ذلك عاماً بعد عام، حتى رسخت في صدورهم، وتصورت في عقولهم، وتآقت إليها أنفسهم".

وحسب الفقيه العزفي فإن الأندلسيين كانوا قد تأثروا بأعياد النصارى بسبب مجاورتهم لهم، ومخالطتهم لتجارهم: "وما سرى ذلك إلى هذه العدوة، إلا بالاتباع لهم والقدوة، وما عبر من ذلك البر [الأندلس] إلى هذا البر [المغرب] بدعة أشنع منها ولأضر".

إنها الأسباب التي دفعت أبا العباس العزفي إلى تأليف كتابه "الدر المنظم، في مولد النبي المعظم"⁵⁰⁷، لدعوة بلديه للتخلي عن مجارة النصارى في احتفالاتهم، وتنبههم على عيد ميلاد نبيهم المصطفى.

على المستوى العملي قام الفقيه بتلقين ذلك للنشء الصغير، لأن ذلك أنجع وأنفع. "فأخذ يطوف على الكتاتيب القرآنية بسببته، ويشرح لصغارها مغزى هذا الاحتفال، حتى تسري ذلك لأبائهم وأمهاتهم بواسطتهم"⁵⁰⁸، ثم دعا إلى تعطيل الصبيان يوم هذا المولد.

ولقد أكمل ابنه أبو القاسم محمد العزفي تأليف الكتاب، وعندما وصل إلى حكم المدينة سنة 648 هـ/1250 م قرر، في نفس السنة، الاحتفال لأول في تاريخ الغرب الإسلامي، بعيد المولد النبوي، ليصبح بذلك أول من أدخل هذه المناسبة الدينية ذات المضاعفات السوسيو - دينية الكبيرة في تاريخ المغرب. ولقد أهدى كتابه للخليفة الموحي، المرتضى (توفي 665 هـ/1266م)، الذي

507 - توجد منه نسخ في كثير من الخزانات، وقد قامت بتحقيق جزء منه فاطمة اليازدي وقدمته لنيل دبلوم الدراسات العليا - كلية الآداب، الرباط، (1987). ونشر مقدمته مع ترجمتها الإسبانية

F. de la Granja, "Fiestas cristianas en al Andalus", *Al Andalus*, XXXIV. 1969
508 - المنوني، ورفقات، 268

أصبح يحتفل بعيد المولد النبوي في مجالسه الخاصة، مسجلاً بذلك "تباعداً إيديولوجياً" واضحاً مع المهدوية⁵⁰⁹.

وتم تعميم الاحتفال بهذا العيد رسمياً بالمغرب المريني في عهد السلطان أبي يعقوب يوسف، سنة 691 هـ/1292م، بإشارة من الفقيه أبي طالب العزفي، ابن أبي القاسم، أمير سبتة في هذا التاريخ⁵¹⁰. وتحت حكم السلطان المريني أبي سعيد سينضاف الاحتفال باليوم السابع لمولده (ص)، وبعد ذلك تكلفت الدولة بنفقات الاحتفالات بليلة المولد في سائر مناطق المغرب⁵¹¹.

على المستوى الشعبي، أصبح الاحتفال بعيد المولد في سبتة مناسبة لتوزيع الطعام، وتعطيل الدراسة، وإغلاق الحوانيت والصنائع. وكان الناس "يمشون في الأزقة يصلون على النبي، عليه السلام، وفي طول اليوم المذكور يسمع المسمعون لجميع أهل البلد مدح النبي، عليه السلام، بالفرح والسرور والإطعام للخاص والعام"⁵¹².

ومن المؤكد أن الاحتفال بعيد المولد قد كرس الوضعية الممتازة للشرفاء بالمدينة. ويمكن التساؤل إن لم يكن الشرفاء الحسينيون هم الذين يقفون خلف هذه المأثرة السبتية التي كان بنو العزفي أداتها المنفذة.

509 - البيان، 446 - 446، Kably, Société, 286

510 - يقول ابن مرزوق الخطيب أن أبا يعقوب المريني هو "أول ملك قام بالمغرب بإقامة ليلة المولد الشريف؛ وكان العزفي، رضي الله عنه، قد أقامه بسبتة، وبه وقع الاقتداء"، انظر: المناقب المرزوقية لأبي عبد الله محمد ابن مرزوق التلمساني، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري. أطروحة لنيل الدكتوراة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، 2004، القسم الثاني، ص 211 (نسخة مرقونة)

511 - المنوني، ورفقات، 268

512 - البيان المغرب، 398

أما المتصوفة والعامّة، فقد كانوا يهتمون اهتماماً كبيراً بهذا اليوم، ويشاركون فيه بحماس. إن هذا الارتباط الوطيد بالمتصوفة هو الذي يفسر ذلك الانتشار السريع لظاهرة الاحتفال بعيد المولد. فهذه المناسبة، كان الولي السبتي الكبير، أبو مروان عبد الملك اليحاسني، يصنع لمريديه الطعام، وتقام ليالي السماع⁵¹³.

ومع ذلك فإن المولد قد أثار معارضة بعض العلماء، باعتباره "بدعة". لكن هذه المعارضة لم تكن تنتقد سوى المظاهر الخارجية للاحتفال، وخاصة تلك المرتبطة بالممارسة الصوفية (رقص، سماع واستعمال آلة اللهو) عند الاجتماع في ليلة المولد... كما أن هناك من أنكره خيفة وقوع المناكر، واختلاط النساء والرجال"⁵¹⁴. وعندما ترسخ العيد في التقاليد الدينية، لم يجد المدافعون عنه صعوبة في إيجاد نوع من "الإجماع" عليه وعلى فوائده. فتم الإشارة إلى الخدمات التي يسديها عن طريق إطعام الفقراء، والاستكثار من الصدقة وأعمال البر، وقراءة القرآن؛ وإلى مظاهر الفرح التي يدخلها على القلوب؛ فرحة كان الفقيه المؤسس يريد أن تمس قلوب الأطفال قبل كل شيء. أما الدفاع عن الموسيقى واستعمال آلات الطرب، فمهمة تولها عالم المدينة، ابن الدراج السبتي، وذلك في كتابه "الإمتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع"⁵¹⁵. والجدير بالذكر أن ابن الدراج لم يكن غير تلميذ الفقيه أبي العباس العزفي، وكاتب أميرها أبي القاسم العزفي.

513 - البادسي، المقصد الشريف، 100-101
514 - ابن عباد، مذكور في المنوني، ورقات، 280-281
515 - ابن الدراج السبتي، الإمتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع، تحقيق محمد بن شقرون، الرباط، 1981

إن الاحتفال بعيد المولد قد غطى، من دون شك، على ما سواه من أعياد موسمية. ومع ذلك فإن هذه الأخيرة لم تمنح تماماً. ففي بداية القرن الثامن/ 14 م ذكر ابن عباد الرندي أن الأمير العزفي "لم يبلغ كلية غرضه في إبطال أمر النيروز والمهرجان"⁵¹⁶. وفي نفس الفترة نجد كاتباً يُولف مؤلفاً يدافع فيه عن النيروز⁵¹⁷.

516 - ابن عباد، ذكره محمد بن شريفة، أمثال العوام في الأندلس، تحقيق محمد بن شريفة، فاس، 1971، 241
517 - ابن فرحون، الديباج المذهب، القاهرة، 1351 هـ، 304

خاتمة⁵¹⁸ :

في صبيحة يوم الأربعاء 14 جمادى الثانية من عام 818 هـ (21 غشت 1415م) غزت البرتغال مدينة سبته، الثغر التاريخي في علاقات المغرب ببلدان شبه جزيرة إيبيريا، وبوابته الرئيسية على عالم البحر الأبيض المتوسط، مستغلة ما كان يعانيه المغرب آنذاك من تفكك واضطراب وأزمات في أواخر عصر بني مرين⁵¹⁹. ولم يكن ذلك الغزو حدثا بسيطا، بل إنه شكل منعرجا في تاريخ المغرب، تولدت عنه نتائج سياسية واقتصادية ما نزال نعاني من انعكاساتها السلبية حتى الوقت الراهن. فقد أضحى المغرب بعد ذلك "مثل العملاق الذي فُتنت عيناه" اللتان كان يطلّ بهما على عالم حوض البحر الأبيض المتوسط، وحرّم بذلك من التواصل مع محيطه المتوسطي، وانكفأ على نفسه لينشغل بفتنه الداخلية عن المجال الحيوي المتوسطي؛ وانقطعت السبل التي كان يمكن أن تصله بالنهضة التي اعتملت في أوروبا في القرون الثلاثة اللاحقة. وأدى احتلال المدينة إلى أفول نجمها بعدما أن كانت محجّ تجار أوروبا والعالم، وتحولت إلى مجرد ثكنة عسكرية، تعيش على نفقة البرتغال، وأصبحت مصاريف تحصينها والدفاع عنها تثقل كاهل الخزينة البرتغالية⁵²⁰.

518 - لم تتضمن الطبعة الأولى من هذا الكتاب خاتمة أو خلاصة. لأن الكتاب هو مجرد ترجمة لفصلين من أطروحة جامعية شاملة عن مدينة الزقاق، بخصائصها وآفاق البحث التي تفتحها. في الواقع، إن أي الكتاب ينطق بما فيه من خلال المسطور من كلماته، مثلما ينطق بما فيه من وراء تلك السطور. إلا أن الملاحظات النقدية لبعض الزملاء الأساتذة أقتنعتني بضرورة تضمين هذه الطبعة الثانية خلاصة مركزة، ارتأيت أن أخصصها لانعكاسات فقدان المغرب لمدينته السلبية، وقد أقتبست جل عناصرها من دراسة أستاذنا المرحوم محمد زنيبر، لأنها تعبر عن كثير مما خالجنا ونحن بصدد إعداد هذه الطبعة الثانية.

519 - حول دافع الغزو البرتغالي لسبته انظر كتابنا : المغرب وحروب الاسترداد، تطوان، 2005
⁵²⁰ - Jacques Paviot, " Les Portugais et Ceuta 1415- 1437", in *Le partage du monde. Echanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale*, Paris, 1998, p., 428-432

ولعل أوضح ما كتب عن نتائج ضياع سبتة وانعكاس ذلك على المغرب هو ما نجده مسطرا بقلم المرحوم الأستاذ محمد زنيبر في دراسته المعنونة بـ "محمو فاس - سبتة وأهميته في العصر الوسيط"⁵²¹، والذي نقتبس منه هذه الفقرات الموحية جدا. يقول: "لم يقتصر الضياع على سبتة بمفردها. بل إن التفوق البحري للدول الإيبيرية، بما فيها البرتغال، جعلها تمارس حصارا بحريا صليبيا على الساحل المغربي المتوسطي. ونتج عن ذلك انغلاق السوق الكبيرة التي كانت تتنافس منها التجارة الفاسية ومن ورائها الاقتصاد المغربي، وبالتالي اختلال التوازن الاقتصادي الذي يضمن لمدينتي فاس وسبتة مستوى عاليا من الثراء والازدهار قبل القرن الخامس عشر الميلادي.

وهكذا تقلصت سبتة في عهد الاحتلال الأجنبي وخرجت وتحولت إلى مدينة صغيرة، ولم تعرف شيئا من الانتعاش إلا في قرننا الحالي بسبب تجارة التهريب.

[...] إن ضياع سبتة من المغرب أدى إلى كل هذه النتائج السلبية التي كانت، في الحقيقة، مأساة كبرى ما زالت لم تدرس ولم تعرف في كل أبعادها. وأخطر تلك النتائج تجلت في إفقار الشمال المغربي الذي انسدت منافذه وتدننت موارده، وتراجع إنتاجه، وانطوى على نفسه اقتصاديا ليقتصر على إرضاء الحاجات المحلية، أي على سد الرمق. وهي حقائق تظهر لنا، بكل جلاء، من خلال العودة إلى المصادر.

إن ضياع سبتة تلاه حرمان المغرب من شاطئه المتوسطي، وضياع مليلية ومراكز أخرى على نفس الساحل. ولم تستطع الدولة المغربية لا في

⁵²¹ - زنيبر محمد، «محور فاس - سبتة وأهميته في العصر الوسيط»، م.س. ص 326 - 327

المرحلة الأخيرة من حكم المرينيين، ولا في عهد الوطاسيين، ولا في عهد السعديين أن تعيد للمغرب مركزه وحضوره في البحر المتوسط. كما أنها لم تعمل أي شيء لتلافي الخسارة الحاصلة في الاقتصاد بالمنطقة، بل إنها واجهت التطورات السلبية الخطيرة باستسلام، فتركت سبّة والشمال لشأنهما، لا نستثنى من ذلك إلا بعض المحاولات العسكرية الفاشلة، واتجهت بالنظر والاهتمام إلى الساحل الأطلسي. لكنها لم تستطع أن تعوض الضياع الحاصل من جرأة ضياع سبّة، ولا أن توجد مجالاً لنشاط جديد، اللهم إلا ما كان من حركة الجهاد البحري الذي قامت به جماعات من المتطوعين. وبالجملة فالمغرب لم يستفد كثيراً من الواجهة الأطلسية لسببين رئيسيين :

1- تدهور البحرية المغربية وتخلفها تقنيا، وقلة استعدادها لمنافسة البحرية الأوربية الآخذة في التطور والتوسع واختراق البحار العالمية الكبرى.

2- حصار البرتغال وإسبانيا وعدوانهما المتواصل طيلة القرنين 16 م و 17 م على شواطئ المغرب الأطلسية، وترتب عن كل ذلك تحول سلبي خطير في تاريخ المغرب الاقتصادي. لقد كان المغرب قبل هاتاه الفترة يحضر كعضو أساسي في نشاط الاقتصاد العالمي، لأنه كان متحكماً في البحار، وكانت له أساطيل ومبادلات ومعاهدات تجارية مع دول البحر المتوسط. فإذا به يحرم من كل تلك الإمكانيات والوسائل، وإذا به يضطر إلى الانطواء إلى قبول وضع التهميش الذي فرضته عليه الدول الأوربية القوية الناهضة. فالتخلف الذي نعاني منه اليوم، ونحاول الخروج منه، يبدأ تاريخه من هذه الفترة بالذات.

إن ضياع سبّة كان في أصل هذه التطورات الخطيرة وما زال يرمز إليها حتى الآن. إن كلا من سبّة والمغرب يعانيان من الفرقة الحالية. فالمغرب

يفقد الآن في سبتة ميناء جيدا ومدينة تاريخية يعتز بماضيها وأمجادها، وجزءا من ترابه الوطني، كما يتضرر من الدور المراد لها حاليا كمركز للتهريب والتجارة اللاقانونية التي تضرب اقتصاده في الصميم. وأما سبتة، فهي تعاني من كونها مدينة قائمة على أساس غير طبيعي وغير سليم، أساس تطبعه الوضعية الاستعمارية والإرث الصليبي، وتتحكم فيه مصالح لا علاقة لها بمصلحة الشعبين الإسباني والمغربي.

[...] إن تحليل الأحداث التاريخية بكل موضوعية هو الذي قادنا بصورة منطقية إلى لمس مشكل سبتة بالنسبة للمغرب الحالي. فالتاريخ يبين لنا ثلاث مراحل في هاته القضية :

1- مرحلة وجود سبتة جزء من أرض المغرب. وحينئذ قامت بدورها كعامل في تحريك الاقتصاد المغربي وتنشيط المبادلات التجارية.

2- مرحلة وجود سبتة خارج التراب الوطني المغربي بسبب العدوان الاستعماري، وهي التي تبتدأ من سنة 1415م هنا نكشف النتائج السلبية التي منها حصار المغرب عسكريا واقتصاديا وإفقار المنطقة الشمالية، وتدهور مدينتي فاس وسبتة، بحيث تحولت سبتة على يد المستعمرين إلى خنجر مغروس في جسم المغرب، يضعفه ويستنزف دمه، ويتحداه ويهدده.

3- مرحلة استمرار سبتة تحت الحكم الاستعماري، برغم استقلال المغرب وبزوغ عهد تصفية الاستعمار. وقد برزت الآن ضرورة إنهاء هذا الوضع الشاذ المتنافي مع التطور الجاري في العالم نحو التحرر، ومع إقامة علاقات ثنائية بين المغرب وإسبانيا تكون مطهرة من رواسب العقلية الاستعمارية الصليبية القديمة".

لائحة المصادر والمراجع

1 المصادر

- الأزموري، أبو عبد العظيم (ت. بداية ق 9 هـ) : بهجة الناظرين وأنس العارفين، مخطوط
الخزانة العامة بالرباط، رقم 1343
- الأنصاري، محمد بن القاسم (ت. بعد 825 هـ) : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من
سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط. 3، الرباط، 1983
- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعي (ت. 658 هـ) : التكملة لكتاب الصلة، نشر عزت
الطار الحسيني، القاهرة، 1956 (وطبعة كوديرا، مدريد، 1889-1888؛ وطبعة
الدكتور عبد السلام الهراس، مطبعة الرشاد، الدار البيضاء، د.ت.)
- ابن أبي زرع الفاسي، علي (ت. حوالي 741 هـ) : الأتيس المطرب بروض القرطاس في
أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1973
- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت. 578 هـ) : كتاب الصلة، الدار المصرية
للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966
- البادسي، عبد الحق بن إسماعيل (كان حيا سنة 766 هـ) : المقصد الشريف والمنزع
اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، 1983
- البكري، أبو عبيد : كتاب المسالك والممالك، طبعة تونس، 1992
- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الدار العربية للكتاب، 1979
- البناهي المالقي، أبو الحسن : المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، بيروت، 1989
- البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (النصف الثاني من ق. 6 هـ) : أخبار المهدي بن
تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1971
- التادلي، أبو يعقوب يوسف ابن الزيات (ت. 627 هـ) : التشوف إلى رجال التصوف،
تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، نصوص
ووثائق، 1، الدار البيضاء، ط 1، 1984
- التجيبي السبتي، القاسم بن يوسف (ت. 730هـ/1329م) : برنامج التجيبي، تحقيق عبد

- الحفيظ منصور، ليبيا - تونس، 1981
- التجيبي السبتي، القاسم بن يوسف (ت. 730هـ/1329م) : مستفاد الرحلة والاعتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1975
- التبتكي، أحمد بابا، (ت. 963 هـ/1036)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس، 1989
- الجزنائي، علي : جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط 2، الرباط، 1991
- ابن الحاج النميري، إبراهيم بن عبد الله : فيض العباب وإفاضة قفداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق د. محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990
- ابن الحاج النميري، إبراهيم بن عبد الله : مذكرات ابن الحاج النميري، نشرها Al. De Premare تحت عنوان :
Maghreb et Andalousie au XIVe siècle, Les notes de voyage d'un andalou au Maroc, 1344-1345, P.U. Lyon, 1981
- الحموي، ياقوت : معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- الحميري، ابن عبد المنعم : الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1984
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت. 776 هـ) : الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط2. القاهرة، 1973
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت. 776 هـ) : نفاضة الجراب في علالة الاعتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (د. ت)
- ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق كمال شبانة، الرباط (د. ت)
- ابن خلدون، عبد الرحمان (ت. 808 هـ) : كتاب العبر...، دار الكتب العلمية، ج 6، بيروت، 1992

- ابن خلدون، عبد الرحمان (ت. 808 هـ) : المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992
- ابن خلدون، عبد الرحمان (ت. 808 هـ) التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، تحقيق محمد ابن تاويت، القاهرة، 1951
- ابن الدراج السبتي، الإمتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع، تحقيق محمد بن شقرون، الرباط، 1981
- ابن رزين التجيبي : فضالة الخوان في طببات الطعام والألوان، تحقيق د. محمد ابن شقرون، ط 1، الرباط، 1981
- الرعيني، أبو الحسن علي (ت. 666 هـ) : برنامج شيوخ الرعيني، تحقيق إبراهيم شيوخ، دمشق، 1962
- ابن رشد، مسائل أبي الوليد بن رشد : تحقيق محمد الحبيب التجكاني، الدار البيضاء، 1992
- ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (ن. 708 هـ) : صلة الصلة، القسم الثالث، تحقيق د. عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب، الرباط، 1993
- ابن سعيد، (أبو حسن علي): المغرب في حلى المغرب، الجزء الثاني، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1955
- ابن سعيد (أبو حسن علي): اختصار القدر المعلى في التاريخ المحلي، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة - بيروت، ط 2
- السقطي، أبو عبد الله محمد : رسالة في آداب الحسبة، نشر ليفي بروفنسال وكولان، باريس، 1931
- ابن سماك العمالي : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، 1979
- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد (ت 594 هـ) : المن بالإمامة (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين)، السفر الثاني، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، ط 3، 1987
- ابن الطواح، عبد الواحد محمد (ت. بعد 718 هـ)، سبك المقال لفك العقال، تحقيق محمد مسعود جبران، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995

- العزفي، أبو العباس أحمد (ت. 633 هـ) : دعامة اليقين في زعامة المتقين، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط 1989
- العزفي، أبو العباس أحمد (ت. 633 هـ)، إثبات ما ليس منه يد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد، تحقيق د. محمد الشريف، المجمع العلمي أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1999
- العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت. 749 هـ) : "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" (مملكة افريقيا ما وراء الصحراء وممالك افريقية وتلمسان وجبال البربر وبر العدو والأندلس) تحقيق د. مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1988
- عياض، (القاضي) أبو الفضل بن موسى بن عياض (ت. 544 هـ) : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق سعيد أعراب وآخرون، 1983
- عياض(القاضي) وولده محمد : مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تحقيق محمد بن شريفة، بيروت، 1990
- ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد (عاش بعد سنة 712 هـ) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين)، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت- دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985
- ابن عربي، محيي الدين أبي عبد الله محمد الحاتمي المرسي (ت. بعد 638 هـ) : رسالة روح القدس، نشرها أسين بلاثيوس، مدريد غرناطة، 1939
- الغبريني أبو العباس أحمد (ت. 714 هـ) : عنوان الدراية، تحقيق عادل نويهض، بيروت، 1969
- الغرناطي، أبو حامد، المعرب عن بعض عجائب المغرب، تقديم وترجمة وتحقيق إينغرد بيخارانو، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1991
- ابن فرحون المالكي، إبراهيم بن نور الدين (ت. 799 هـ) : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق الدكتور محمد الأحمد أبو النور، القاهرة، 1972
- ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (ت. 1065 هـ) : جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1973

- ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (ت. 1065 هـ) : درة الحجال في غرة أسماء الرجال، تحقيق أحمد أمدي أبو النور، القاهرة، دار التراث، 1970
- ابن القطان، أبو علي حسن بن محمد بن الكتامي (ت. 628 هـ) : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، بيروت، 1990
- ابن قنفذ، أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني (ت 809 هـ) : أنس الفقير وعز الحقيير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1968
- القشتالي، أحمد بن إبراهيم الأزدي : تحفة المغرب ببلاد المغرب لمن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي مروان، تحقيق فرناندو دي لا جرانخا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد 17، مدريد، 1972-1973
- مؤلف مجهول، كتاب الطبيح في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، نشر هويسي ميراندا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 9-10، 1962-1961
- مؤلف مجهول، بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بثغر سبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1984
- المراكشي، ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد الأنصاري الأوسي (ت 703 هـ) : الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الخامس، قسم 1.2، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1965؛ السفر الثامن، تحقيق محمد بن شريفة، الرباط، 1984
- ابن مرزوق التلمساني، محمد (ت. 781 هـ) : المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق دة. ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، 1981
- ابن مرزوق التلمساني، محمد (ت. 781 هـ) : المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق دة. سلوى الزاهري. أطروحة دكتوراة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، 2004، (نسخة مرقونة)
- ابن مريم، أبو عبد الله محمد بن محمد التلمساني (ت. 1014 هـ) : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر بعناية عبد الرحمان طالب، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986

- الماجري، أحمد بن إبراهيم بن أحمد (ت. منتصف ق 8 هـ) : المنهاج الواضح في تحقيق كرامات الشيخ أبي محمد صالح، ط مصر، 1933
- المراكشي، عبد الواحد (ت. 581 هـ) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العربيان ومحمد العربي الخطابي، القاهرة، 1949
- المقرئ، أحمد بن التلمساني ت (1040 هـ) : نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1997
- المقرئ، أحمد بن التلمساني ت (1040 هـ): أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، الرباط، 1973
- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، 1983
- الوثنريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت. 914 هـ) : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب، نشر محمد حجي وآخرون، ج12، الرباط، 1983

(2) المراجع الحديثة

- الأهواني، عبد العزيز، "ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة"، مجلة معهد المخطوطات العربية، ج 1، 1957
- باشا، نجاه، التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة، تونس، 1976
- برنشفيك، روبر، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1988
- بنشريف، محمد، أمثال العوام في الأندلس، تحقيق محمد بن شريفة، فاس، 1971
- بوشرب، أحمد، "المخططات البرتغالية خلال القرنين 15 و 16"، ضمن كتاب في النهضة والتراكم : دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية مهداة للأستاذ

- محمد المنوني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986
- جيهال، جورج، "جنوة وبلاد المغرب في العصر الوسيط"، مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد 8، 1997، ص 126-97
- زنيير محمد، «محور فاس - سبتة وأهميته في العصر الوسيط»، ضمن كتاب: المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - ابن مسيك، البيضاء، سلا، 1990
- الطيبي، أمين توفيق، دراسات في تاريخ مدينة سبتة الإسلامية، طرابلس، 1989
- الشريف، محمد، الغرب الإسلامي، نصوص دفيئة ودراسات، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية وكلية الآداب تطوان، ط. 2، 1999
- الشريف، محمد، المغرب وحروب الاسترداد، تطوان، 2005
- العروي، عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، ط. 2، الدار البيضاء، 1994
- القبلي، محمد، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الدار البيضاء، 1987
- القبلي، محمد، "حول الإصلاح وإعادة الإصلاح بالمغرب الوسيط"، المناهل، عدد 69-70 يناير 2004
- المنوني، محمد، ورفاقه، عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب الرباط، ط. 2، 1998
- موسى، عز الدين أحمد، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، بيروت 1983
- نشاط، مصطفى، نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية في العصر الوسيط، مكتبة الطالب، وجدة، 2005

(3) المراجع باللغات الأوربية

- Amari M., *Diplomi arabi del real archivio fiorintino*, Floranza, 1863
- Amran Cohen R., *Ceuta y el mundo cristiano mediterráneo durante los siglos XII y XIII*, Ceuta, 1986
- Arié, (Rachel), *L'Espagne musulmane au temps des Nasrides, (1232-1492)*, Paris, éd. De Boccard, 1973
- Arié, (Rachel), "Quelque remarques sur le costume des Musulmans d'Espagne au

- temps des Nasrides", Arabica, XII. 1965
- Ayache (Germain), "Beliounech et le destin de Ceuta entre le Maroc et l'Espagne", Hespéris- Tamuda, vol. XIII, 1972, pp. 5-36
 - Bautier (H.), "Sources pour l'histoire du commerce maritime en Méditerranée du XIIe au XIVe siècle", dans *Actes du IV Colloque International d'histoire Maritime*, Paris, 1959, pp. 137-177
 - Bautier (R. M.), "Les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du Nord et l'équilibre méditerranéen du XIIe au XIVe siècle", *Bulletin philologique et historique du comité des Travaux historiques et scientifiques*, 1953-1954
 - Benhain Mesmoudi R., Approche quantitative de l'or monnayé en Occident musulman (450/1058- 59 à 830/1426-27), Thèse de Doctorat, Paris I, 1994
 - Benramdane Zoulikha, Ceuta du XIIIè au XIVè : siècles des lumières d'une ville marocaine, Publications de la Faculté des Lettres de Mohammadia, 2003
 - Blancard (Louis), *Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen Age*, 2 vol., Marseille , 1884-1885.
 - Berque, J, *Les Ulama, fondateurs insurgés du Maghreb*, Paris, 1982
 - Bravo. P.J. y Monoz R., *Arqueologia submarina en Ceuta*, Madrid, 1965.
 - Burguière A., "L'anthropologie historique", In. Le Goff. J., (sous la direction de), *La Nouvelle Histoire*, Paris, 1978
 - Cahen C., "Quelques problèmes concernant l'expansion économique musulmane au Haut Moyen Age" in, *les peuples musulmans dans l'histoire médiévale*, Damas, 1977
 - Caillé J., "Le rôle des commerçants marseillais à Ceuta au XIIIe siècle", *Mélanges d'histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman*, Alger, II, 1957.
 - Carrière (Th.), "Les marthyrs de Ceuta", in, *Le Maroc Catholique*, 1924, pp. 132- 136
 - Cénival, P. De, "L'Eglise chrétienne de Marrakech", *Hespéris*, VII, 1927
 - Cherif M., "Ceuta dans les écrits récents", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, VII. 1994
 - Cherif M., *Ceuta aux époques almohade et mérinide*, Paris, L'Harmattan, 1995
 - Cherif M., "Notes sur la pêche maritime à Ceuta au Moyen Age", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, N° IV. 1990

- Cherif M., "Notes sur les activités commerciales de Gênes à Ceuta aux XIIe et XIIIe siècles", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, VI, 1993
- Cherif M., "Taxe maritimes et autonomie politique à Ceuta", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, VII, 1995
- Chouraqui A., *Histoire des Juifs en Afrique du Nord*, Paris, 1985
- Chovin (Gisèle), "Aperçu sur les relations de la France des origines à la fin du Moyen Age", *Hespéris*, T. XLIV, 1957, pp. 249- 298
- Cipolla.C., "Sans Mahamet Charlemagne est inconcevable", *Annales ESC*, XVII, 1962
- Clément, J. F., "L'historiographie récente au Maroc", *Lettre d'information de l'AFEMAM*, 2, 1987
- Cressier P. (et autres), *El urbanismo rural de Belyounech. Una aproximación metodológica a un yacimiento islamico medieval del norte de Marruecos* in *Arqueologia espacial. Congreso sobre el Microespacio*, Teruel, 1986, pp. 327- 349
- Daroua M., *Les oulemas andalous au Maroc aux époques almoravide et almohade*, Thèse de 3e cycle, Paris 1, 1988
- Devis, (Jean), "Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. XIe- XVe siècles", *Revue d'Histoire Economique et Sociale*, 50 (1972), pp. 42-73; 357-397
- Dhina (A.), *Les Etats de l'Occident musulman aux XIIIe et XV siècles*, Alger, 1984
- Di Tucci R., "Documenti inediti sulla spedizione e sulla mahona dei Genovesi a Ceuta", *Atti della Societa Ligure di Storia*, (Gênes), t. 44, 1935
- Dufourcq, Ch. E., *L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIIIe et XIVe siècles, (de la bataille de Las Navas de Tolosa 1212 à l'avènement du sultan Abu L'Hasan 1331)*, Paris, PUF, 1966
- Dufourcq Ch. E., "Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe Chrétienne et marine musulmane: données connues et problèmes en suspens", *Revue d'Histoire et de civilisation du Maghreb*, Tunis, 1979, t 1
- Dufourcq, Ch.E, "Aspects internationaux de Majorque durant les derniers siècles du Moyen-age", *Nayurqa*, IX, 1949
- Dufourcq, Ch. E., "La question de Ceuta au XIIIe siècle", *Hespéris*, XLII, 1955,

pp. 67- 126

- Dufourcq, Ch. E., "Les relations du Maroc et de la Castille pendant la première moitié du XIIIe siècle, *Revue d'Histoire et de Vivilisation du Maghreb*, Alger, 1968, pp. 37- 62
- Dufourcq, Ch. E., "Chrétiens et musulmans durant les derniers siècles du Moyen-Age", *Anuario de Estudios Medievales (Barcelona)*, X, 1980
- Dufourcq, Ch. E., "La place du Maghreb dans l'expansion de la couronne d'Aragon: La route maghrébine par rapport à celle des îles et des épices", *II Congreso his. Culuras mediterraneo Occ.*,
- Dufourcq, Ch. E., "Aperçu sur le commerce entre Gênes et le Maghreb au XIIIe siècle", *Economies et Sociétés au Moyen-Age, Mélanges Edouard Perroy*, Paris, 1973
- Doumerc B., "La crise structurelle de la marine vénitienne au XVe siècle. Le problème du retard des mude", *Annales ESC*. Mai-juin, 1985
- Enamorado, Virgilio M. *Epigrafía y poder; Inscripciones árabes de la Madrasa al-Jadida de Ceuta*, Ceuta, 1998
- Ferhat H., *Sabta des origine au XIVE siècle*, Rabat. 1994, 15,468.
- Ferhat H., "Sabta, état bibliographique", *Hespéris- Tamuda*, 28, 1990, pp. 163-181
- Ferhat. H, "Le pouvoir des fuqaha dans la cité: Sabta du XII au XIVE siècle", In, *Saber religioso y poder político en el Islam*, Madrid, 1994, pp. 53-70
- Ferhat. H, "Un monument almoravide : la grande mosquée de Ceuta/ Sabta (approche textuelle)", *Anaquel de Estudios Arabes*, 4, 1993, pp. 77-85
- Fernandes, (Valentin), *Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal (1506- 1507)*, trad. Française par P. de Ceneval et Th. Monod, Paris, 1938
- Godinho, V.M., *L'Economie de l'Empire portugais aux XVe et XVIe siècles*, Paris, 1969
- Godinho, V.M., *Historia económica e social da expansao portuguesa*, Lisbonne, 1947
- Gois, Damiao de, *Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521*, Extrait de la chronique du Roi D. Manuel de Portugal. éd. Et traduction R. Ricard, Rabat, 1937
- Goitien, S. D., *A Mediterranean Society, The Jewish Communities in the Arab Word.*, Berkly, Los Angeles... 1967
- Goittein, S. D., *Jews and Arabs: their Contacts through the Ages*, New York,

Schochen, 1959

- Goittein, S. D., "The Unity of the Mediterranean World in the "Middle" Middle Ages", *Studia Islamica*, XII, 1960.
- Gordillo Osuna, M., "Continuidad hispánica de Ceuta", *Africa*, N° 246, 1962
- Gozalbes Cravioto, C., *Ceuta en los portulanos medievales*, Ceuta, 1997
- Gozalbes Cravioto C., " El agua en la Ceuta medieval", *Transfretana*, 5, 1993
- Gozalbes Cravioto C., "La demografía de la Ceuta medieval", II *Congreso Internacional El Estrecho de Gibraltar*, (Ceuta, Noviembre, 1990), Vol. III
- Gozalbes Cravioto C., "El agua en la Ceuta medieval: obtención, almacenamiento y distribución", *I Congreso de Historia y Medio Físico, El agua en zonas áridas : arqueología e historia*,1989
- Gozalbes Cravioto C, "El abastecimiento de agua en la Ceuta medieval", *Boletín de la Asociación Española de Orientalistas*, VII, 1981
- Gozalbes Cravioto C., "La judería y los judíos en la Ceuta medieval", *Boletín de la Asociación Española de Orientalistas*, XVIII, 1982
- Gozalbes Cravioto E., *Notas para la historia de los Judíos en Ceuta siglos XI-XVI*, Ceuta, 1988
- Granja, Fernando de la, "Fiestas cristianas en al Andalus", *Al Andalus*, XXXIV,1969
- Hammam, M., "La pêche et le commerce de poisson en Méditerranée occidentale (Xe- début XVIe siècles). Tableau historico-géographique établie d'après les sources musulmanes, in *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Age*, Rabat, 1995
- Hardy, G., Le Maroc, in *Histoire des colonies françaises*, t. III, Paris, 1931
- Hernandez Diaz J., "Los baños arabes de Ceuta", *Academia*, 1978
- Hita Ruiz, J. M. y Villada Paredes, F., *Un aspecto de la sociedad ceuti en el siglo XIV : Los espacios domésticos*, éd. Museo de Ceuta, Serie Minor, Estudios y Ensayos, Ceuta 2000
- Hita Ruiz, J. M. y Villada Paredes, F., "Unas casas merinies en el arrabal de Enmedio de Ceuta", *Caetaria*, n° 1, Algeiras, 1996, pp. 67-91
- Hoover C. B., "The Sea Loan in Genoa in the twelfth Century", *The quarterly Journal of Economic* XI, 1926

- Idris, H. R., "Commerce maritime et kirad en Berbérie oriental d'après un recueil inédit de fatwa médiévales", *J.E.S.H.O.*, 3/4, 1961, pp 225-239
- Jehel G., *Les Génois en Méditerranée occidentale (fin XIe-début XIVe siècle)*, Paris, 1993
- Jehel G., "Gênes et le Maghreb au Moyen-âge", *Studi Maghrebini*, (Napoli), vol. XXII, 1990
- Jehel, G., "La mer dans les relations entre gênes et le Maghreb au Moyen Age", *Mesogeios Méditerranée*, N° 7, 2000 (Le Maghreb et la mer à travers l'histoire), pp. 184-200
- Jehel, G., "Jews and Muslims in Medieval Genoa : From the Twelfth to the Fourteenth Century", *Mediterranean Historical Review*, 1995
- Kably M., *Société pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age*, Paris, 1986
- Klaus, Reinhardt, "Un musulman y un judio prueban la verdad de la fe cristiana: La disputa entre Abutalib de Ceuta y Samuel de Toledo". In, *Dialogo Filosofico-religioso entre cristianismo, judaismo e Islamo durante la Edad Media en la peninsula Iberica*, BREPOLs, 1994, pp. 191-212
- Koehler (P. H.), *L'Eglise chrétienne du Maroc (1221-1790)*, Paris, 1934
- Koehler (P. H.), "L'église chrétienne du Maroc et la mission franciscaine (1220-1790)", *Le Maroc Catholique*, 1933, pp. 19- 24
- Koningsveld, P. S. Van, "Christian-Arabic manuscripts from the Iberian Peninsula and North Africa: a historical interpretation", *Al Quntara*, Vol, XV, 1994
- Krueger H. C., "Genoese Trade with Northwest Africa in the Twelfth Century", *Speculum*, VIII, 1933
- Krueger H. C., "The Wares of Exchange in the Genoese African Traffic of the Twelfth Century", *Speculum*, VII, 1932
- Laroui A., *L'histoire du Maghreb*, I, Paris, 1970
- La Primaudaie (E. de),"Les villes maritimes du Maroc", *Revue Africaine*, n°16, 1872
- Lathan J. D., "The Stratigic Position and Defence of Ceuta in the Later Muslim Period", *Islamic Quaterly*, XV, 1971
- Lévi-Provençal. E., *Histoire de l'Espagne musulmane*, T. 3, Paris, 1950
- Maimonide, *Guide des égarés*, éd. Verdier, Paris, 1979

- Mascarello, A, "Quelques aspects des activités italiennes dans le Maghreb médiéval" , *Revue d'Histoire et de la Civilisation du Maghreb*, Alger, V, 1968
- Mascarenhas, (D. Jeromino de), *Historia de la ciudad de Ceuta*, Coimbra, 1918
- Mas-Latrie (L. De), *Traité de paix et de commerce concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-âge*, Paris, 1866.
- Martin Lunas, F., *Ceuta, historia de una ciudad española, Malaga*, 1982.
- Mosquera Morino, M, *La señoría de Ceuta en el siglo XIII (Historia política y económica)*, Ceuta, 1994
- Mosquera Morino, M, "Ceuta y Genova: incidencias bélicas siglo XIII, Actas del Congreso internacional "El Estrecho de Gibraltar", (Ceuta. 1987), Madrid, 1988, II, pp. 231-248
- Moulières, A., *Le Maroc inconnu*, t. II, Paris, 1899
- Pegolotti (F. Di B.), *La pratica della mercatura*. Ed. Allan Evans. Cambridge (Mss.), 1936
- Perlmann M., "Abdal Haqq al Islami, a Jewish Convert", *Jewish Quaterly Review*, XXXI, 1940, pp. 171-191
- Perroy E. (éd), "Encore Mahomet et Charlemagne", *Revue Historique*, 1954.
- Ponish M. et Tarradell M., *Garum et industries antiques de salaisons dans la Méditerranée occidentale*, Paris, 1965
- Posac Mon, C., "Datos para la arqueología musulmana de Ceuta", *Hespéris-Tamuda*, vol. 1, 1960, pp. 157- 164
- Posac Mon, C., "La arqueología en Ceuta entre 1960 y 1970", *Noticiario Hispanico Arqueológico*, XV, 1971
- Posac Mon C., "El acueducto romano de Arcos Quebrdos", *Segovia y la Arqueología romana*, Barcelone, 1977
- Posac Mon C., *La historia de Ceuta a través de la numismática*, Ceuta, 1985.
- Posac Mon M. C., "La actividad comercial en Ceuta según los archivos genoveses", in, - *Ceuta en el medievo : La ciudad en el universo Árabe*, II Jornadas de historia de Ceuta, Instituto de Estudios Ceutíes, Ceuta, 2002,
- Posac Mon M. C., "Relaciones entre Genova y Ceuta durante el siglo XII", *Tetuan*. VI. 1958

- Prémare A. L. De, *Maghreb et Andalousie au XIVe siècle, Les notes des voyage d'un Andalou au Maghreb (1344-1345)*, Lyon, 1981
- Renouard Y., *Les hommes d'affaires italiens au Moyen- Age*, Paris, 1949
- Renouard, Y., *Les villes d'Italie de la fin du XIe siècle au début du XIVe siècle*, Paris, 1969, II
- Ricard R., *La Maroc septentrional au XVe siècle d'après les chroniques portugaises, Hespéris*, t. XXIII, 1936, pp. 89-112 (Reproduit dans : *Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc*, Coimbre, 1955)
- Ricard R., " Contribution à l'étude du commerce génois au Maroc(1415- 1550), *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales*, Paris, t. III, 1937, pp. 53-73, (Reproduit dans : *Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc*, Paris, 1955)
- Romero C., *Emigradores andalusies al Norte de Africa y al Oriente Medio, siglos VIII-XV*, Tesis doctoral, Granada, 1989
- Rosenberger B. , "L'histoire économique du Maghreb" *Wirtschaftsgeschichte des V. Orients...* Leiden, 1977
- Sayous A. E., "L'activité de deux commerçants capitalistes marseillais vers le milieu du XIIIe siècle", *Revue d'histoire économique et sociale*, VII, 1929
- Sayous A. E., "Les opérations du capitalistes et commerçant marseillais Etienne de Manduel entre 1200 et 1230", *Revue des Questions Historiques*, 1930
- Schiriqui David y Manuel Leria, *Ceuta antigua y moderna*, Ceuta, 1965.
- Slouschz, N., "Histoire des Juifs du Maroc", *Archives Marocaines*, 1906
- Sotoe, Fernandez, *Ceuta medieval: aportación al estudio de las ceramicas, (s. X-XV) Ceuta*, 1988.
- Terrasse H, "Quelque remarques sur les édifices de Beliounech", *Al Andalus*, 27, 1963
- Terrasse, M., "Recherches archéologiques d'époque islamique en Afrique du Nord", *Compte rendu de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres de 1976*, Paris, 1977, pp. 590- 611
- Tisserant Wiet, "Une lettre de l'almohade al Murtada au Pape Innocent IV", *Hespéris*, VI, 1926
- Unali, Anna, *Ceuta 1415. Los orígenes de la expansión europea en Africa*, Ciudad Autónoma de Ceuta, Archivo Central, 2004

- Valencia. R., "La emigración sevillana a través de Ceuta en la alta Edad Media,
Actas del Congreso Internacional del Estrecho de Gibraltar, II, 1988, pp. 221-230.
- Vallve, Joaquín, *Contribución a la historia de Ceuta hasta la ocupación almoravide*", (Fac. Letras de Madrid, 1962
- Verlendin Ch., *L'esclavage dans l'Europe medievale*, Bruges, 1955
- Vidiacion, María F., "Le Maghreb médiéval: "mercantilisme parasitaire" ou société productrice", *Anaquel de Estudios árabes*, Nº3, 1993, pp. 241-246
- Zurara, E. G., *Cronica da tomada de Ceuta por el rei D. Joao I*, éd. F.M. Esteves Pereira, Lisbonne, 1915

الفهرس

- 5تقدم الطبعة الثانية.....
- 7مقدمة الطبعة الأولى.....
- 9تقدم بقلم الدكتور محمد بن عبود.....
- 11على سبيل التمهيد: توجهات البحث في تاريخ سبتة.....

المبحث الأول:

القاعدة الاقتصادية لسبتة في العصر الوسيط

- 25**أولاً: الفلاحة والصيد البحري.....
- 251 - الملكية العقارية.....
- 272 - عقود الاستغلال الفلاحي.....
- 273 - الماء ومشاكل الري.....
- 304 - الإنتاج الفلاحي.....
- 355 - الصيد البحري.....
- 46**ثانياً : النشاط الصناعي والحرفي.....
- 461 - التنظيم الحرفي.....
- 482 - الإنتاج الحرفي.....
- 59**ثالثاً : التجارة الداخلية.....
- 591 - إطار الأنشطة التجارية.....
- 612 - تقنيات التبادل التجاري.....
- 633 - أنظمة الوزن والكيل.....
- 66**رابعاً : التجارة الخارجية.....
- 681 - تقنيات التبادل التجاري.....
- 69أ - القراض.....
- 71ب - الشركة.....

- ج - كراء السفن 73
- 2 - التجار السبتيون في العالم 74
- 3 - سبتة والتجارة مع العالم الخارجي 80
- أ- مع المدن الإيطالية : جمهورية جنوة 80
- ب - مع الساحل الفرنسي: مرسيليا 93
- ج - مع شبه الجزيرة الإيبيرية: مملكة أراغون 96
- 4 - الصادرات والواردات 103
- 5 - المسالك والطرق التجارية 107
- 6- ضرائب التجارة البحرية 111
- أ- الواجبات الرئيسية 113
- ب- الواجبات الإضافية 115
- خلاصة مؤقتة 122
- التجارة الخارجية والاستقلال الذاتي: أية علاقة؟ 122

المبحث الثاني :

السكان والبنية الاجتماعية

- أولا : عناصر السكان 127
- 1 - المسلمون 127
- 2 - اليهود 130
- 3 - الجالية النصرانية: التجارة والتبشير 136
- ثانيا : العرادية الاجتماعية 146
- 1 - كبار التجار والحرفيين 146
- 2 - العبيد والعامه 150
- 3 - الشرفاء : فئة مغلقة وامتيازات مفتوحة 153
- 4 - العلماء والمتصوفة 158
- ثالثا : المستوى المعيشي 160

160	1 - الأكل: هاجس الأمن الغذائي
169	2 - السكن
172	3 - اللباس
174	4 - الماء: تقنيات التجميع والتوزيع
190	IV - الأعياد
190	إدخال الاحتفال بعيد المولد النبوي
196	خاتمة
201	لائحة المصادر والمراجع

صدر للمؤلف

- 1- نصوص جديدة ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، منشورات مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي- كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، تطوان، 1996
 - 2- طبعة ثانية مزيّدة ومنقحة بعنوان : الغرب الإسلامي : نصوص دفيّنة ودراسات. منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، تطوان، 1999
 - 3- محاضرات في تاريخ صدر الإسلام، طنجة، 2001
 - 4- التصوف والسلطة بالمغرب الموحد : مساهمة في دراسة ثنائية السلطة والحكم في النسق المغربي الوسيط، الرباط، 2004
 - 5- إصدارات في تاريخ الغرب الإسلامي (قراءات نقدية)، الجزء الأول، الرباط، 2005
 - 6- المغرب وحروب الاسترداد، الرباط، 2005
 - 7- إصدارات في تاريخ الغرب الإسلامي : قراءات نقدية، الرباط، 2005
- * كتب محققة :**
- 8- إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد لأبي العباس أحمد العزفي السبتي (ت. 633 هـ). تخريج ودراسة. منشورات المجمع الثقافي أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1999
 - 9- المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد لمحمد التميمي الفاسي (تحقيق ودراسة)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان (جزئان)، الرباط، 2002
- * باللغة الفرنسية :**
- 10- *Ceuta aux époques almohade et mérinide*, édition L'Harmattan, Paris, 1996
- * الترجمة :**
- 11- ملحمة الطريس : حقيقة الحماية الفرنسية الإسبانية بالمغرب، لجان وولف، منشورات جمعية تطاون أسمير، 2003 (380 ص)

* نسق وأعدّ:

12- كتاب : المقاومة والحركة المسلحة بمكناس وأحوازها، للأستاذ بوشتي بوعسرية، منشورات وزارة الثقافة، 2005

13- كتاب : مكناس وأحوازها : دراسات في الاقتصاد والمجتمع والمجال للأستاذ بوشتي بوعسرية، منشورات وزارة الثقافة، 2005

* كتب جاهزة للطبع :

- فتاوى ابن ورد التميمي (تحقيق ودراسة)

- مقتع المحتاج في آداب الأزواج لابن عرضون (بالاشتراك مع د. محمد مفتاح)

- جنى الجننتين لابن مرزوق الخطيب (دراسة وتحقيق)

- تطوانيات... رهونيات : دراسات في التاريخ والحضارة

- يهود سبتة في العصر الوسيط (ترجمة عن اللغة الإسبانية)



طوب بريس

العنوان، 22، زنقة كلكتة، المحيط، الرباط
الهاتف، 037.73.31.21 - الفاكس، 037.26.39.28
البريد الإلكتروني، toppress@wanadoo.net.ma

هذا الكتاب

... فهي دراسة تتميز بالتجديد المنهجي، وتعكس التعب الفكري الذي يشترط في كل دراسة جادة ومجددة. كما تتميز بتوثيق متين.

ويعكس تقويم المؤلف للمراجع اطلاعه الواسع على أحدث الدراسات الأوروبية حول تاريخ سبته، كما طبع تقويمه المذكور بروح نقدية صارمة.

وربط المؤلف تاريخ سبته بالمغرب والأندلس وحوض البحر المتوسط، ولكنه حدّد الحقبة المدروسة تحديداً دقيقاً، فقدم صورة منسجمة ومتكاملة للحياة الاجتماعية والاقتصادية لسبته الإسلامية، وجمع بذلك بين التوجهات العامة، والمحاور الدقيقة، كمشكلة الري، وعقود الاستغلال الفلاحي، ومشكلة الضرائب، ومشكل المياه، والسكن، والأكل، واللباس، وغيرها من العناصر التاريخية المرتبطة بالاقتصاد والمجتمع السبتيين، فأخذ الكتاب طابعاً واقعياً.